EYES INSIDE GHAZZA

عيون في غزة

مادس جلبرت و إيريك فوسا

ترجمة
زكية خيرهم

159

مكتبة 149

tele @ktabpdf

عيون في غزة

مادس جلبرت و إيريك فوسا

ترجمة: زكية خيرهم

This translation has been phublished
with the financial support of NORLA

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

الشروق

2011

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

• الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2011

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المحتويات

المقدمة	9
جمانة: مادس جلبرت	13
داخل مطر من القنابل: إيريك فوسا	21
التمهيد: إيريك فوسا	43
أهلا بكم في غزة: إيريك فوسا	59
إنها تمطر موتا: إيريك فوسا	79
من سيعيش: إيرك فوسا	99
الشهود العاجزين: مادس جلبرت	115
الإبادة الجماعية عن بعد: مادس جلبرت	137
فقط أطفال حماس: إيريك فوسا	155
ظلام في منتصف النهار : مادس جلبرت	175
من دون رحمة: مادس جلبرت	191
الحرب الجبانة : مادس جلبرت	215
أحلام في غزة: ايريك فوسا	239
المعاناة المخطط لها: مادس جلبرت	263
تبديل النوبات: إيريك فوسا	285
مجرمو الحرب: مادس جلبرت	317

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

Til Gazas barn إلى أطفال غزة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ميزان ما أثقلك هديتلي كتافي
دابت حشيشة قلبي لجلكم دابت
والشعرتين السود يا اما بروسنا شابو
فارس يا شمعتي سهيل يا مالي
يا مين يجيب الدوا وسهيل يداويني
لا تحسبون طالت الغربة يا يما ونسيناكو
صبرت صبر الخشب تحت المناشيري
صبرت لأنوا استوي لحم العصافيري
وحياتك تكبر وتجبر والرب يعطيني
جبرة قوية يا اما
وتكيد عدويني
يا ابني

ريم بنا

Rim Banna

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مقدمة

يتحدث الكتاب عن الهجوم الاسرائيلي العنيف على قطاع غزة في شتاء 2008-2009 كما عايشناها. كانت الهجمات الاسرائيلية واسعة النطاق على المؤسسات الفلسطينية والمدنيين، هجمات كانت الأكثر وحشية في تاريخ الفلسطينين الحديث. ليس أقله أن الهجوم كان موجّها ضد الأطفال في غزة. قتل أكثر من ثلاث مئة طفل وسقط أكثر من 1600 جريح. جاء هذا الهجوم الوحشي بعد أكثر من عامين من الحصار الواسع النطاق وإفقار الفلسطينيين في قطاع غزة. لفترة طويلة قبل وقوع الهجوم منعت اسرائيل بطريقة منهجية العاملين في المجال الطبي أو الصحافيين الغربيين من الدخول إلى غزة. تمكّنا من الوصول إلى غزة من مصر ليلة رأس السنة 2008، في اليوم الخامس من الهجوم.

وسرعان ما اكتشفنا أنه لم يكن هناك إلا القليل من الأوروبيين، ولم يكن هناك صحفيون غربيون أيضا، ولا أي شخص يجرأ على أن يقف ويخبر العالم عن الانتهاكات الإسرائيلية. وبالإضافة إلى عملنا كأطباء في مستشفى الشفاء، كان من واجبنا أن ننقل للعالم ما شهدناه. قدمنا تقريرا عن تلك المعاناة الرهيبة، وعن أولئك الجرحى الذين عالجناهم، وعن المأساة التي خلفها الهجوم والحصار الاسرائيلي المفروض على غزة. بلّغنا عن الشجاعة والإباء الفلسطيني، والإنسانية، والإرادة الفلسطينية التي لا تقهر. عمل كلانا ثلاثة عقود مع الفلسطينيين كزملاء وأصدقاء و مرضى، في كل من فلسطين، لبنان ومصر. سكنا وعشنا وعملنا بجدّ مع اللاجئين الفلسطينيين والشعب اللبناني الذين تعرضوا للقصف في لبنان، ومع الشعب في فلسطين. لقد سمحوا لنا أن نكون جزءا من معاناتهم الأليمة ، وشاركناهم في أعيادهم وفي مناسباتهم السعيدة أيضا .

ما زلنا نعتقد انه من الممكن الوصول إلى حلّ للقضية الفلسطينية بطريقة سلمية. الحل السياسي هو السبيل الوحيد لسلام دائم. ولكن على إسرائيل ، التي

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تملك حاليا السيطرة الكاملة، أن تظهر بالعمل أنها تحترم حقوق الإنسان الفلسطيني وحقوقه الوطنية ، وأنهم على استعداد لإيجاد حل بناء على قرارات الأمم المتحدة بشأن فلسطين منذ عام 1947 إلى يومنا هذا.

عشنا الهجوم على غزة كأطباء وشهود عيان في مستشفى. لم نر كلّ ما كان يحدث في أماكن أخرى بقطاع غزة. لكن في وقت لاحق، علمنا بمستوى الوحشية ودرجة الغطرسة التي أثارت غيظنا من خلال الوثائق التي قدمها الصحافيون ولجان التحقيق.

للكلمة قوة، تعاريف ومصطلحات، تؤثر على مفهومنا للواقع، تتزلق بعض الكلمات والمصطلحات المستخدمة بشأن الصراع في الشرق الأوسط من غير نقد أو تعليق في الخطابات اليومية والتقارير الاخبارية. يعتّم على موازين القوى والحقائق السياسية. "يستعمل الصراع الفلسطيني في كثير من الأحيان بدلا من "الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين". اسم البلد الذي يدور عليها الصراع هي فلسطين. كل من "دولة اسرائيل والضفة الغربية، وقطاع غزة تقع في فلسطين. ولذلك فإننا نشير إلى الضفة الغربية وقطاع غزة ب "فلسطين" أو "فلسطين المحتلة" وليس "المناطق الفلسطينية"

تستخدم "المستوطنة" دائما للدلالة على المناطق التي انتزعها الاسرائيليون من فلسطين. تعطي كلمة المستوطنة" انطباعا بأن مجتمعا ما أنشئ في مناطق غير مأهولة بالسكان. عندما يسيطر شخص على منطقة بالقوة العسكرية ويطرد السكان الأصليين من مزارعهم وأراضيهم، ويطرد الفلاحين كي يستولي على الأرض لنفسه، عندها يصبح المصطلح الصحيح هو "الاحتلال . والذين يقومون بمثل هذه الأفعال نسميهم "محتلين"، والتركيبة السكانية التي ينشئونها هناك تسمى ب المستعمرة". يتعارض استعمار الأراضي المحتلة مع اتفاقية جنيف. لذلك فإن السياسة الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة ليست بسياسة استيطان سلمي، إنها احتلال وحشي واستعمار يتعارض مع القوانين الدولية.

لذلك نصف التجمعات السكانية الإسرائيلية في الأراضي المحتلة على الشكل الآتي: "مستعمرات"، ومن يسكن فيها المحتلين. لأن هذا الاستعمار لفلسطين محفور في الفكر الصهيوني، وهو استعادة أرض دولة اسرائيل من سكانها

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الفلسطينيين ألأصليين وإنشاء دولة جديدة هناك حيث تقوم فقط لليهود. استعملنا مصطلحات "المحتلين الاسرائيليين" و"المستعمرات الاسرائيلية" على الرغم من أن الذين أنشأوا هذه المستعمرات قد ينتمون إلى دول أخرى. العديد من المستوطنين والذين لديهم نزعة عسكرية وعدوانية هم الوافدون النشيطون الذين يحملون الجنسية الأمريكية.

القوات العسكرية الاسرائيلية،تسمي نفسها جيش الدفاع الأسرائيلي. الأعمال الحربية التي كتبنا عنها هي هجوم وتوسّع أكثر مما هو دفاعا. ولذلك نحن نستخدم المصطلح الأكثر حيادا وهو " القوات العسكرية الاسرائيلية"

المصطلح الذي يستعمل لوصف من يتقاتلون في صراع ما، يختلف أيضا حسب انتماء المتكلّم.كلمة "الإرهابي تستعمل بكثرة في الخطابات اليومية، وفي الحقيقة إنها تعني شخص ينشر الرعب". يعتبر الفلسطينيون الحصار الاسرائيلي والقصف والتجويع والإذلال اليومي إرهابا. تسمي اسرائيل كل المقاومين الفلسطينيين وعوائلهم إرهابيين. و اعتبرت الولايات المتحدة من جانب واحد، مجموعة كبيرة من المنظمات السياسية والإنسانية وبعض الأفراد "ارهابيين" و "منظمات ارهابية". وعلاوة على ذلك عرّفتهم كمجرمين وممنوع عليهم الدخول إلى أمريكا وفقا لقوانين الإرهاب في الولايات المتحدة الأمريكية.

الخطابات اليومية عن الإرهاب والمصطلحات عن الإرهاب في أكثر الأحوال غير دقيقة ومضللة. هذه المصطلحات تعيق الحوار وتجعل من الصعب تحقيق السلام والمصالحة . اخترنا أن نقول عن الاسرائيليين أوالمصريين الذي يعملون في القوات العسكرية الوطنية "الجيش . الفلسطينيون الذين ليسوا في جيش الدولة، والذين يستعملون السلاح كمقاومة ضد الاحتلال بتوجيه من أطراف فلسطينية أو جماعات، اخترنا تسميتهم ب"المحاربين". أولئك الذين لا يشاركون في تخطيط أو تنفيذ أعمال العنف المسلح، أسميناهم المدنيين. يساء استعمال مصطلح "منطقة امنية" أيضا. يعطي المصطلح انطباعا أن المناطق التي يتم إنشاؤها هي لحماية المدنيين. في فلسطين المحتلة يعتبر إنشاء إسرائيل لمثل هذه "المناطق الامنية" في البر والجو والبحر كتدبير سياسي وعسكري لحرمان الفلسطينيين من الوصول إلى أراضيهم وأملاكهم، وحقّهم في استغلال الموارد الطبيعية في بلدهم. ولذا فإننا نسمّي هذه المناطق "مناطق عسكرية"

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لقد وصفنا تجاربنا في غزة بموضوعية وبأكبر قدر ممكن من الدقة.أي خطأ في ايصال الفكره،هو مسؤوليتنا. بني الكتاب على ملاحظات من دفاترنا الخاصة، واليوميات والصور وتسجيلات الفيديو والمحادثات خلال الزيارة. بعد فترة من الزمن، قمنا بعمليات البحث الدقيق في وسائل الاعلام ومصادر أخرى. عولجت صورنا التوثيقية إلى أقصى حد واتبعنا قواعد الصحافيين في استعمالهم لبرامج معاملة الصور. لقد تحقّقنا من الأسماء والأحداث، على قدر الإمكان. كما حصلنا على تصريح خطّي للسّماح بنشر صور المرضى والعاملين في المستشفى. شجّعتنا معظم العائلات كثيرا على استخدام الصّور. ونشكر زملاءنا الفلسطينين والنرويجيين الذين ساعدونا لانجاز هذا الكتاب. نكنّ احتراما عميقا للمرضى وعائلاتهم الذين قابلناهم، والعاملين في المجال الصحي الذين عملنا سويا معهم.

شكرا لاتاحتكم لنا الفرصة كي نعيش معكم بطولاتكم وتفاؤلكم الذي لا يقهر.

الكاتبين

اسلو - ترومسو

يوليو 2009

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

جمانة

مادس جلبرت

في البداية لم أكن أفهم نطاق القصة. في الخامس من كانون الثاني طلب مني أن أتابع طفلةً تبلغ من العمر تسعة أشهر، ولم يكن ذلك إلا إنذاراً.

كانت شاحبةً، شعرها أجعد، وبالكاد أمكن إيقاظها بعد التخدير. رفعت ذقنها بلطف، حيث كانت مستلقيةً على ظهرها حتى تتمكن من التنفس بسهولة.

استمعت باهتمام إلى صوت التنفس في كل جزء من جانبي ذلك الصدر النحيل، كان جيداً ومتناسقاً. نقلناها في نقالة كبيرة جدا، بحثنا عن غرفة العناية التي افتتحت حديثا في الطابق الرابع. في الواقع كانت الغرفة للمصابين البالغين بعد خروجهم من غرفة العمليات، لكن نظراً لتدفق أعداد كبيرة من جرحى الحرب من الأطفال، الذين يحتاجون إلى عناية مركزة، بعد خضوعهم للعمليات الجراحية وللتخدير، وجدت إدارة المستشفى حلولاً جديدة لزيادة عدد الأسرّة.

وجدنا الغرفة في نهاية المطاف.

ترسل الشمس أشعتها الى تلك الغرفة المكونة من ستة أسرة. كانت النوافذ مفتوحةً، وإحداها مكسورة، و الغرفة باردة. من الواضح أن الموظفين تلقوا خبراً بوجود مرضى جدد، كان عليهم الاستعداد وتهيئة أنفسهم، لكن بدا عليهم أنهم لم يكونوا مستعدين حينها.

- من فضلك دكتور، هل يمكنك أن تنتظر؟
- نعم، بطبيعة الحال يمكننا أن ننتظر.

مكثت مع الصغيرة جمانة بالقرب من النقالة، اضطروا لبتر جزء من يدها اليسرى بعملية جراحية بعد الإصابة البشعة التي تعرّضت لها في بيت أهلها. لا أحد يعرف أين كانت الأم، لكن الأب والجد قتلا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كانت الجملة مكتوبةً بحروف عربية بقلم الحبر على صدرها: نوع الإصابة والأولوية. صورة الأشعة كانت ملقاة على النقالة، وتظهر بتر إصبع الإبهام والإصبع الثاني والثالث. الضمادة كانت متشربة بالدم، لكن كان يبدو أن النزيف قد توقف.

الطفلة الصغيرة، الجميلة، السمراء، يظهر على قسمات وجهها ملامح الكبار، وحاجبان كثيفان. لون بشرتها شاحب يوحي بفقر الدم الذي كان نتيجة فقدان الدم، أو سوء التغذية الذي يعاني منه كثير من الأطفال في قطاع غزة.

تبدو وكأنها نائمة بسلام، وعيناها المغمضتان توحيان بتعبير متناغم لامعقول. تحسست جلدها، كان باردا، ومقشعرّا شيئا ما وكأنها كانت تشعر بالبردً. بالتأكيد فقدت الحرارة من جسمها أثناء العملية الجراحية، والآن هي مستلقية في عراء هذه الغرفة الباردة.

بعد العملية، بترت نصف اليد اليسرى للصغيرة جمانة وهي الآن تنام بسلام بعد اعطائها المخدر.

تنطبق هذه المشكلة على جميع المرضى؛ كان هناك الكثير من النوافذ المحطمة في المستشفى، ودرجة الحرارة في كانون الثاني في غزة منخفضة، هذا الشتاء لم يكن يشبه الطقس الاستوائي، تتراوح درجة حرارة الليل بين خمس وعشر درجات، لكن الشمس تدفئ الغرفة في النهار.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يبعد مستشفى الشفاء عن الساحل بقدر ثلاث بنايات، وتشاهد الموج يتكسر على شاطئ الرمال البيضاء بلون الطباشير عندما تذهب لزيارة غرف المرضى التي تواجه الغرب في الطابقين الثالث والرابع.

ولم تكن إمدادات الطاقة الضئيلة كافية لتدفئة غرف المرضى، ويبدو أن الأولوية في التدفئة كانت لغرف العمليات الجراحية ووحدات العناية المركزة، أما بقية المستشفى فكان بارداً جداً.

معظم المرضى مجهزون ببطانيات أحضرت للمستشفى من قبل عائلاتهم مع القليل من الطعام الذي كان في مقدورهم إحضاره من قبل منظمة الإغاثة الإسلامية، التي كان يبدو كان لديها مستوع أغذية في غزة.

كان إحضار البطانيات في محله في تلك الليالي الباردة، لكن جمانة لم يكن لديها بطانية، لا من منظمة الإغاثة الإسلامية ولا من أي جهة أخرى، كانت تتمتم وحيدةً من دون عائلة على ما يبدو.

بينما كنت أحاول أن أغطيها بملاءة المستشفى الرقيقة، أخبرتني ممرضة بأن الطفلة جاءت من الأحياء الفقيرة بمنطقة حي الزيتون في جنوب مدينة غزة. حسب كلام الممرضة، فإن الإسرائيليين قصفوا منزل العائلة وقتلوا أحد عشر فرداً من العائلة في صباح ذلك اليوم.

وقال آخر إن قوات المشاة البرية الإسرائيلية قد أجبرت العديد من عائلة السموني على قضاء الليلة في أحد منازل العائلة، لقصفه صباح اليوم التالي بمن فيه. عائلة السموني كبيرة، حوالي مئة شخص تقريباً، بما في ذلك نساء وأطفال ومسنون، أجبروا على المكوث في مستودع البناية في حي الزيتون قبل أن يهجم الإسرائيليون على المبنى.

هل يمكن لمثل هذا الجيش المنظم تنظيما جيداً وذا خبرة، أن يفعل مثل هذه المجزرة لأناس مدنيين لا حول لهم ولا قوة؟ جيش يتلقى ضباطه الأوامر من القيادة السياسية في دولة تدّعى بأنها من الدول الديموقراطية، يقودها رئيس حصل على جائزة نوبل للسلام؟ يبدو ذلك وحشيا جدا. لا بدّ أن يكون هناك خطأ ما، إشاعة مبالغ فيها، ريشة أصبحت خمس دجاجات. كان هناك كثيرٌ من الاضطراب والإشاعات التي تملأ غزة تلك الأيام، والخيال دائما أسوأ من الحقيقة، لكن ليس في هذه الحالة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اتضح للأسف أن ذلك كان صحيحا.

كانت هناك مجزرة، لم يكن هناك خطأ، ولكن من الواضح أن الأمر كان مخططا له، إنها كانت عملية عسكرية نفّذت بطريقة ممنهجة من جانب الجيش الإسرائيلي. جنود من القوات العسكرية الإسرائيلية نفذوا هذا العمل المشين.

مريضتنا، جمانة الصغيرة، كانت مجرد واحدة من العديد من ضحايا أسرة السموني في ذلك اليوم، والآخرون في الطريق.

مثل ردّة فعل دفاعية، نرفض دائما أن نصدّق أن مثل هذا يمكن أن يكون حقيقة. كنا نأمل أن تكون تلك اللحظات من العنف والقتل والقسوة والشرّ نتيجة ظروف مشؤومة، لحظات من الارتباك، سوء تقدير، عقلية مريضة أو سوء فهم فظيع. لم يكن الوضع كذلك في قطاع غزة.

شيئا فشيئا جاءت التفاصيل المرّوعة لمذبحة أسرة السموني لمدة يوم. أحجية الصور المقطوعة بها قطع كثيرة. كنا من بين أول الغرباء الذين كانوا على علم بما حدث. كنت أبلّغ الأخبار بمجرد ما أحصل على الحد الأدنى من التفاصيل المتقاطعة.

صحيفة إكسبرسن السويدية وضعت عناوين كبيرة، الصحافي الذي كان في لبنان والذي يعرف جيدا أنماط الجيش الإسرائيلي من تاريخه القريب، كان متأثرا للغاية بما سمع.

ما يزال اسم صبرا وشاتيلا يرمز للمجزرة الوحشية، التي نفذّت من غير رحمة، المطبوعة على جبين القوات العسكرية الإسرائيلية. اسم محفور في ذاكرة كل من هو من أصل عربي في الشرق الأوسط. جريدة أفتن بوستن النرويجية أيضا كان لها عنوان صغير في نشرتها على الشبكة العنكبوتية. كلتا الجريدتين، ركزتا على الطفلة جمانة، وبمقدار قليل على المجزرة. بعدئذ سيعرف العالم بالذي حدث.

طلب المرضون مني أن أضع قسطرة وريدية مركزية لجمانة بحيث يسهل عليهم إدخال السوائل لجسمها. كان بجسمها قسطرة وريدية صغيرة، لكن المرضين كانوا خائفين أن تتسدّ. القسطرة الوريدية المركزية هي عبارة عن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إبرة بلاستيكية محتفرة توضع على الوريد الكبير من خلال حقنها في الجلد وبطريقة خاصة لتحديد عرق الوريد عميقا في جوف الصدر أو في الرقبة. حسنات هذه الطريقة أنها تسهل عملية إدخال كمية كبيرة من السوائل والدم مباشرة إلى الدورة الدموية المركزية. و من سيئاتها المضاعفات المحتملة في عملية الوخز. هذا يعني احتمال وقوع خطر الالتهابات الجزئية. كنت أعتقد أنه لا حاجة لمثل هذه القسطرة الوريدية المركزية، لأن الجرح كان متوسطا وحالتها مستقرة. ناقشنا الموضوع قليلا في حين كانت جمانة تستفيق تدريجيا. نظرت من حولها من غير أن تبكي وبسرعة أغلقت عينيها مرة أخرى. ماما لم تكن هناك. مكتبة الرمحي أحمد

جئت إليها في وقت لاحق لأراها، قلت لهم أن ينتبهوا وألا يتركوها مكشوفة فتصبح باردة أكثر مما هي عليه.

- غطوها جيدا وراقبوا تنفسها وضغطها. أليس كذلك؟
- بالطبع سنفعل أقصى ما في جهدنا.

رأيتها مرة أخرى في منتصف تلك الليلة. كانت مستلقية على سرير كبير بحيث تبدو وكأنها دمية صغيرة. لم تعد لوحدها بعد الآن. امرأة مسنة ترتدي لباسا أسود واقفة بجانب السرير. قدّمها إلي الممرضون بوصفها جدتها "من طرف أبيها". كشفت أولا على جمانة. كانت تبدو واعية، مع وجود الإشارات "الحيوية طبيعية" التي نسميها الوظائف الرئيسية الثلاثة في الحياة: الوعي والتنفس والدورة الدموية. تطلعت في أنحاء الغرفة بنظرة مستفسرة ومندهشة. كانت المرأة صاحبة اللباس الأسود مستاءة مثل غيرها من أفراد الأسرة الذين التقيت بهم في الشفاء. تريد أن تخبر وتعبر عن غضبها بسبب ما حدث.

قالت:

- أين أم جمانة، مازالت الطفلة ترضع. ماذا سنعطيها الآن؟

شخصيا لم يكن لدي جواب مناسبٌ. سألتها:

- أخبريني ماذا حصل؟

بترجمة مسترسلة وسريعة كانت تخبر عن المذبحة. دونت بعض الملاحظات وأخذت الموافقة على أخذ بعض الصور.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أجبرت العائلة كلها على المكوث في منزل كبير خلال اليوم الرابع من كانون الثاني. ما يقرب من مئة من النساء والأطفال والرجال من جميع الأعمار، كان عليهم أن يمكثوا في المنزل طيلة الليل من دون طعام أو شراب. كانوا أشبه برهائن للقوات البرية الإسرائيلية التي كانت تتخّذ موقعا عسكريا بالقرب من المبنى. باكرا، في صباح اليوم التالي، قصفت القوات الإسرائيلية المنزل. لم أعرف منها بالضبط إن كان القصف من المقاتلات الحربية أو من طائرات هليكوبتر أو طائرات من غير طيار، أو تم قصف البيت من قبل الدبابات الإسرائيلية.

جمانة كانت مستيقظة حين كنا في جولتنا في قسم الاطفال. عيناها كانت تبرق.

على أي حال، كان القصف عنيفا مما أدى إلى انهيار المنزل، وإلى وقوع العديد من القتلى والجرحى. قتل أب جمانة وجدها وجدتها، كما قتل العديد من أفراد أسرتها. لكن أم جمانة وعمها استطاعا الفرار. ألقي القبض على العمّ من قبل الإسرائيليين، لكن أم جمانة اختفت. لا أحد يعرف أين هي الآن، إلاّ أن الجميع كان يبحث عنها.

كانت المرأة تنظر إليّ في الوقت الذي تحدثني فيه، صوتها كان عاليا وقويا، رفعت يديها فوق رأسها بلفتة حزينة حين بدأت تروي أسوأ التفاصيل، كما تفعل النساء العربيات عندما يوجهن نحيبهن إلى الله والسماء:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لماذا يحدث هذا؟ لماذا ليس لدينا أية حماية؟ لماذا يقتلنا الإسرائيليون، نحن العزل والفلسطينيون الفقراء؟ نحن لسنا سياسيين، وليس لدينا أي اتصالات، نحن مدنيون، وأناس بسطاء! ماذا فعلت لهم جمانة؟ هل هؤلاء الناس هم فقط أشرار ؟ من سيحمينا؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وسط وابل من القنابل

ٍ

إيريك فوسّا

قبل يومين من عيد الميلاد لسنة 2008 ، وصلنا فاكس إلى مركز نورواك في أوسلو. كان مكتوباً فيه أن الدكتور مدحت عباس عيّن مديراً عاماً لإدارة التعاون الدولي في غزة. كانت الرسالة موقعة باسم: باسم نعيم، وزير الصحة في قطاع غزة. الرسالة تظهر بوضوح مسؤولية الأوضاع فيما يتعلق بالأحداث المرتقبة.

لم يكن باسم نعيم وزير الصحة رسمياً. المجتمع الدولي كان يعترف بالحكومة المقبولة دوليا للسلطة الفلسطينية في رام الله، بالضفة الغربية، وبوزير الصحة فتحي أبو مغلي الذي لديه مكتب هناك. لكن من دون شك، الآن قطاع غزة- الذي كان تحت سيطرة حماس- هو الذي ينصبُّ عليه التركيز. كان باسم نعيم وزيرا للصحة لحركة حماس. نورواك كانت متوازنة في العلاقات بين الحكومتين في فلسطين منذ عام 2007.

عشية عيد الميلاد تلقى يون إيفند ينسن ، المنسق لنورواك في فلسطين، بريدا إلكترونيا من السلطات الصحية في قطاع غزة، مكتوباً فيه أن المخازن أصبحت فارغة من أكثر من مئة وخمسين نوعاً من الأدوية والعقاقير المهمة، ومئتين وخمسة وعشرين نوعا من الأدوات المهمة التي تستعمل لمرّة واحدة. الآن يمكن القول إننا نفتقر تقريبا إلى كلّ شيء.

منذ شهر آب لم يصلنا إلى غزة إلا ربع المعدات الطبية من الضفة الغربية. نورواك كانت قد أرسلت بعض المعدات الطبية للمستشفيات في قطاع غزة والتي مازالت في إسرائيل لأكثر من نصف سنة، في انتظار الحصول على إذن لإدخالها إلى قطاع غزة.

كانت رسالة غير مشجعة لبعثها إلى مجلس إدارة نورواك، وعيد الميلاد في النرويج على الأبواب، كتبت:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

"الوضع متفجر الآن. ينبغي أن نناقش نوع حالة الطوارئ التي ستكون لدينا، إن كان علينا الاتصال بالسلطات النرويجية، وما إلى ذلك. على الأرجح أننا سنواجه أضراراً جسيمة في قطاع غزة

وجاءت المواجهة.

في الساعة 11:30 صباحاً من يوم السبت 27 ديسمبر ، بدأت إسرائيل تقصف بكثافة قطاع غزة. أكثر من 50 مقاتلة، وطائرات هليكوبتر قتالية، شاركت في الهجوم. أكثر من مئة قنبلة أسقطت على المكاتب الحكومية ومراكز الشرطة ومراكز حماس الرئيسية. ما بين 225 و 290 فلسطينيا قتلوا، وكثيرون أصيبوا بجروح في اليوم الأول. كانت الشرطة واحدة من بين الأهداف المهمة، العديد من مراكز الشرطة تعرضت للقصف. صادف ذلك اليوم حفل تخريج رجال شرطة جدد. أكثر من 40 رجل شرطة لقوا مصرعهم عندما قصف مركزهم.

على أهبة الاستعداد للسفر من القاهرة. من اليسار ايريك فوسا، في الوسط يون ايفنيد ينسن، على اليمين مادس جلبرت امام فندق ماريوت في القاهرة 30 ديسمبر 2008.

بعد ساعتين من بدء الهجوم ، اتصل ينسن بوزير الصحة الدكتور باسم نعيم. أخبره بأن الجرحى يتدفقون إلى مستشفى الشفاء في مدينة غزة. وكانت هناك حاجة ماسة للمساعدة. يون إيفند اتصل هاتفيا برئيس مكتب الوفد النرويجي

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في رام الله، عضو مجلس في وزارة الصحة تور وينيسلاند، وأطلعه على الوضع، وأن نورواك كانت مهتمة في إدخال الإغاثة إلى غزة إذا كان الأمر ممكنا.

مازال الهجوم الإسرائيلي مستمرا يوم الأحد بلا هوادة. أكثر من 25 هجوماً جوياً، زاد عدد القتلى إلى 287 و900 جريح. قصفت إحدى المقاتلات الإسرائيلية المسجد الذي يقابل مستشفى الشفاء بصاروخ دمرّ المسجد تماما. وقصفت إسرائيل أيضا مُجمّع السرايا، الذي يحتوي على مكاتب حماس الحكومية والسجن الرئيسي في غزة. سبق وأن تمّ إجلاء المجمّع، لقي أربعة أشخاص مصرعهم. في الوقت نفسه واصلت حماس إطلاق الصواريخ على إسرائيل.

في صباح يوم الأحد اتصل بي يون أيفند ينسن في أوسلو.

-إيريك ، أعتقد أنني سأذهب إلى القاهرة في الصباح وآمل أن آخذ معي بعض الأدوات الطبية إلى داخل غزة.

سألت:

– هل كان لك أي اتصال مع شخص ما هناك؟

– لا ، آخر اتصال كان البارحة، ولكن سأتصل بباسم نعيم الآن.

أعرف كيف هو الوضع في قطاع غزة. كنت في حالات مماثلة مرات عدة من قبل. على الرغم من أن المستشفيات على مستوى عالٍ من النوعية، وهناك العديد من الأطباء الجيدين، إلا أنهم يحتاجون الآن إلى المزيد من الأطباء.

قلت لصديقتي نينا هوستن:

– ربما ينبغي أن أذهب إلى غزة.

أجابت نينا بهدوء:

– أمر لا يدعو للدهشة.

– إن كنتَ مضطرًا فيجب أن تذهب. إذن، فعطلة عيد الميلاد ذهبت.

عملت نينا أيضا كمعالج طبيعي بمناطق الحرب في إريتريا، وتفهمت كيف كنت أشعر.

اتصلت مرة أخرى بيون إيفند، قلت له:

– ربما سأسافر معك إلى القاهرة. معا يمكننا أن نشكّل فريقا جراحيا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- نعم
- اتّصل بمادس جيلبرت واسأله إن كانت لجنة فلسطين لديها شيء تقدّمه.

بعد ظهر ذلك اليوم اتصلت بمادس في ترومسو. كنت أعرفه منذ بداية 1980. كان مادس معنا منذ تأسيس نورواك سنة 1983، كنا قد عملنا معا في غزة في وقت سابق. كان من ذوي الخبرة في التخدير وطب الطوارئ، ويعرف غزة جيّدا كما أعرفها أنا.

- مرحبا مادس، بدأنا الآن من جديد.

بالنسبة لمادس فإنه كان دائما يضع الأفكار مباشرة إلى التطبيق. سبق واتصل بلينا خطيب، رئيسة لجنة فلسطين، وببعض المرضين ذوي الخبرة. كما اتصل أيضا بالسفارة النرويجية في القاهرة.

- ليس هناك من هو على استعداد. لكن فيتا التي تعمل في السفارة تقول بأن الحدود لم تقفل بعد.

أخبرته عن خطوط السفر.

- سأسافر معك، لقد حجزت التذاكر وتدبّرت أمري مع العائلة. بناتي آنا وسيري وصهري ثوربيورن يحتفلون بعيد الميلاد هنا في ترومسو.

قال مادس:

- كلهم يدعموني ويشجعوني على السفر. لكن، ستجري هنا مظاهرة في ترومسو غدا صباحا، وسوف أقوم بمناشدة المتظاهرين. هل يمكننا الانتظار إلى يوم الثلاثاء؟

قلت:

- لا ، يجب علينا أن نسرع؟

في وقت متأخر من بعد الظهر ، تحدثت مرة أخرى إلى يون إيفند، وقلت له:

- تخلىّ مادس عن المشاركة في مظاهرة الغد وسوف يأتي معنا، وقال لي بأنه حجز التذاكر.

طلب يون إيفيند من داغفن بيوركليد، منسق نورواك في بيروت، التوجه إلى القدس حتى يتمكن من الوصول إلى معبر إيريز- نقطة الحدود بين إسرائيل وقطاع غزة- في أسرع وقت ممكن، وقال مختتما كلامه:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- لا نعرف إن كان باستطاعتنا إرسال بعض المعدات الطبية.

كان من المهم أن تكون المساعدات الطارئة من نورواك إلى قطاع غزّة منسّقةً مع السلطات الطبية الرّسمية. أرسل يون إيفيند بريدا إليكترونيا إلى وزير الصحة في رام الله، الدكتور فتحي أبو مغلي، حيث أعلمنا بأن نسافر إلى القاهرة في اليوم التالي ونحاول الوصول إلى قطاع غزة. الليلة نفسها جهزت أمتعتي: بعضاً من الملابس، الكاميرا والهاتف المحمول. وبينما أنا أرتب أمتعتي في الحقيبة، كنت أفكر في مادس وكيف رتب أغراضه. كنت متكلا على أن مادس أحضر معه الكاميرا وحاسوبا آليا وسماعات طبية ومصابيح الجيب، ومصابيح الرأس، وأدوية الإسعافات الأولية، وربما بعض الكتب الطبية. نهضت من السرير ثم وضعت كل شيء بطريقة منظمة. خطر ببالي كم نحن مختلفان، وهذا لحسن حظنا كان قوة.

ودعت نينا صباح يوم الإثنين، كانت الساعة الرابعة صباحا.

- لا تغامر بطريقة غبية، قالتها وهي شبه نائمة.

- لا، سوف أكون حذرا وأعدك أنني سأعود. لدي تذكرة العودة بعد أسبوع.

اصطحبت معي يون إيفيند وأنا في طريقي إلى مطار غارديمووّن. كان مادس قد جاء من ترومسو مساء يوم الأحد وكان ينتظرنا في قاعة الترانزيت بفيينا. أكدت لنا وزارة الخارجية، في فرع القضايا الإنسانية، أنها قد خصصت مبلغ 30 مليون كرون نرويجي للمساعدات الطارئة بعد الهجوم الإسرائيلي على غزة، ومنظمة نورواك سوف تحصل على خمسة ملايين منها. ممثل إدارة الشؤون الخارجية كان على علم بذلك، وأبلغناه بأن لدينا قائمة بالأدوية الأساسية من السلطات الطبية لحماس في قطاع غزة، وأنني ومادس نحاول الدخول إلى هناك.

في مطار القاهرة، كان في استقبالنا رجل ذو شعر أبيض في العقد السادس من عمره. كان يحمل لافتة مكتوب عليها نورواك، وقدّم نفسه باسم عبد الله وأنه سائق يعمل في السفارة النرويجية. رافقنا إلى صف الجوازات، ومن ثم إلى سيارة السفارة وقادنا إلى فندق ماريوت فى وسط مدينة القاهرة. خارج المدخل

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

توجد شجرة ميلاد ضخمة من الصوف الأبيض، ودبابيس وأسلاك.. أجواء الميلاد في القاهرة.

كان الطقس مثل صيف النرويج البارد. جلسنا على طاولة تحت أشجار النخيل، وطلبنا البيرة.

- عملت حسابي أن التقي بكم هنا. قالها أنّرش فيتا مبتسما وأضاف قائلا، مرحبا بكم في القاهرة.

قال فيتا:

- لقد تلقينا إشعارا من وزارة الخارجية وسوف نساعدكم للدخول إلى غزة، لقد تحقّقنا من الأمر، وأعتقد أنه من المؤكد أن باستطاعتنا فعل ذلك.

لقد تحدثنا مع السلطات المصرية وتلقينا الموافقة على دخولكم.

تعتمد جميع السفارات النرويجية على شبكة جيدة من الاتصالات. المصرية رنده حكيم، مديرة المكتب بالسفارة النرويجية، تعرف الكثير من الشخصيات في المجتمع المصري؛ إنها تعرف كل شخصية وما يمكنها أن تقدمه.

وتابع فيتّا

- سنقودكم إلى الحدود، هنا في السفارة النرويجية سنقوم بكل ما نستطيع لتدخلوا إلى غزة وتخرجوا منها سالمين.

اتصل جون إيفن بطارق عرفات ورتب لقاءً في الساعة السابعة والنصف. طارق هو ابن فتحي عرفات، الذي أسس وقاد الهلال الأحمر الفلسطيني. كما أنه ابن شقيق الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات. كان طارق مهندسا ومتخصصا في التكنولوجيا الطبية. يعمل الآن مديراً لمكتب الهلال الأحمر الفلسطيني في مصر. عندما خرجت إلى الحديقة، كان طارق ومي عارف من فرع المعلومات في الهلال الأحمر الفلسطيني يدخنان النرجيلة. جون إيفند ومادس كانا أيضا في الحديقة.

كانت القائمة بالمواد الطبية التي حصلنا عليها من السلطات الطبية في غزة شاملة. اتصل طارق هاتفيا ببعض الموردين، وكان من الواضح جدا أن نعمل بعض الأولويات للأشياء الضرورية التي سندخلها معنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

خلال المساء اختار مادس بعض الأدوية التي يعتقد أنها ضرورية جدا، بعضاً من أدوية التخدير والمضادات الحيوية.

اتفقنا على أن نسافر معا اليوم التالي إلى المعبر الحدودي في رفح، ونحاول الوصول إلى غزة. بينما سيبقى يون إيفند في القاهرة ليكون منسقا للفريق، ويشتري ما تبقى من المعدات التي كانت في القائمة. أما داغفين فسيمكث ليطلعنا على الوضع في القدس.

قلت:

- لن ننتظر المعدات إلى يوم غد، الأهم هو أن نخرج من هنا باكرا بأسرع وقت لندخل إلى غزة.

قال مادس:

أوافقك الرأي. نأخذ معنا بعضاً من أدوية التخدير.

صباح يوم الثلاثاء 30 ديسمبر، أعلنت وزارة الخارجية أن وزير الخارجية يوناس غاهر سيعقد مؤتمراً صحفياً بمؤتمر صحافى الساعة العاشرة صباحا، حيث سيعلن أن النرويج أرسلت مساعدات عاجلة إلى قطاع غزة في اليوم نفسه. كنا نحن تلك المساعدة.

في الواقع لم نرد أن نقول شيئا للصحافة قبل أن نصل إلى قطاع غزة. الآن سيكون هناك الكثير من التكهنات. اتصلت بالقناة الثانية في النرويج TV2 وأخبرتهم بأنني أنا ومادس نحاول الدخول عبر الحدود.

خلال المؤتمر الصحفي أعلن ستوري وزير خارجية النرويج عن الكارثة الإنسانية في غزة، وشدّد على مسؤولية إسرائيل بضمان دخول المساعدات الإنسانية، وطالب بأن يتوقف القتال، مؤكّدا أن النرويج تعمل على إدخال المساعدات الإنسانية.

في السفارة النرويجية في القاهرة، كانت رنده حكيم قد أخذت نسخة عن جوازات سفرنا، وجهزت لنا بعض الوثائق باللغتين الإنكليزية والعربية، كتب فيها أننا طاقم أطباء نرويجيين في مهمة إنسانية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كانت محطتنا الأولى في مركز الهلال الأحمر الفلسطيني بمستشفى هيليوبوليس في مصر الجديدة، على مشارف القاهرة. التقى بنا طارق عرفات في الخارج. أخبرنا بأنه كان على اتصال مع مورد الأدوية والمعدات الطبية وكان يعتقد أنه قادر على الحصول على الأدوية في القائمة المنقحة. لكن لم يكن الأمر واضحا بعد. سيأتي المورّد بعد حوالي ربع ساعة.

قال مادس:

- ربما يجب علينا أن نرتدي لباسا يوحي بأننا نعمل في المجال الطبي، نحتاج إلى معاطف بيضاء وسترة واقية كلباس موظفي الإسعاف في الهلال الأحمر الفلسطيني هنا.

دلّنا طارق عرفات على محل يبيع الملابس للعاملين في المجال الطبي، في ضاحية تدعى "الكبري . مباشرة حول زاوية شارع بغداد، حيث كان الإخوة ياسر وفتحي عرفات يلعبان هناك حين كانا أطفالا صغارا. اشترى كل منا معطفا وعدنا إلى مركز الهلال الأحمر الفلسطيني بمستشفى هليوبوليس. كان من المتوقع أن يصل الصيدلي بعد حوالى نصف ساعة. نظرت أنا ومادس إلى الساعة. عادة تستغرق الرحلة من القاهرة إلى رفح ست ساعات. بدأنا نقلق لأننا سنصل إلى الحدود في وقت متأخر.

قال طارق:

- تناولوا بعض الشاي.

سواء أكان الوقت ضيقا أم لا، سنشرب الشاي مع طارق. هذا جزء من العادات العربية الطبيعية ومن الطقوس الاجتماعية مثل التحية و "مع السلامة"

كان طارق مضطرا أن يدعونا لتناول الشاي، وإن لم يفعل يعدّ الأمر إهانة كبيرة، ونحن مضطرون للقبول بالإيجاب. لكن أنا ومادس كان قد نفد صبرنا من الانتظار.

بعد العيش لبضع سنوات في منطقة الشرق الأوسط، يقدّر المرء هذه الطقوس. تشعرك بالهدوء تذكرك بأهمية الإنسان. قدّرنا طارق عرفات وتواضعه ومواقفه الحازمة التي كانت فعّالة للغاية. استطاع أن يوفر خلال الليل بعض الأدوية الضرورية التي تستغرق عادة الكثير من المستندات للحصول عليها.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لم يكن متأثرا لا بحماس ولا بفتح، كان كل همه أن يساعد الناس في غزة، كان يعلم أننا لن نعمل لمصلحة فتح أو الهلال الأحمر في غزة، ولكن في المستشفى العام، مستشفى الشفاء، الذي كانت تسيطر عليه السلطات الصحية في حركة حماس. وضع طارق المساعدة الإنسانية لأبناء بلده في غزة أمام انتمائه الحزبي واحترمها. قلت في نفسي: لو أن كل القادة الفلسطينيين كان لديهم موقف طارق نفسه لكان الوضع بفلسطين مختلفا تماما.

أخرج سترة الهلال الأحمر وقال لمادس:

- خذ هذه، إنها سترتي.

بدا مادس، بالمعطف الأبيض والسترة البرتقالية والسماعة الطبية حول رقبته، مثل رجال حالة الطوارئ. كان يبدو سعيدا بذلك. أنا كنت راضيا بالمعطف الأبيض.

في انتظار التجهيزات الطبية امام مستشفى الهلال الاحمر الفلسطيني، مستشفى فلسطين في هليوبولس في القاهرة قبل الرحيل الى العريش.

أخيرا وصل الصيدلي ومعه علبتان من الأدوية، ما يقارب من عشرة كيلوغرامات. تساءلت هل هذه هي المساعدات الإنسانية التي بقيمة مليون ونصف كرون إلى غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى الحادية عشر والنصف. أخيرا انطلقنا، لكن في انتظارنا ساعات لعبور صحراء سيناء.

هيأ السفير النرويجي في القاهرة سيارة وسائقا. قادنا حسن يوسف عمارة، في حين كان فتحي محمد عبد الله يبلّغ السفارة بشكل متواصل ومنتظم عبر الهاتف المحمول. قادنا حسن بشكل جيد عبر شوارع القاهرة الضيقة إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى قطاع غزة. كنت أنظر إلى ذلك المنظر الطبيعي المليء بالغبار، عندما رن جرس الهاتف. أخبار محاولة دخولنا إلى غزة انتشرت في جميع وسائل الإعلام بالنرويج.

- هل ستكون فترة الاستمتاع بالشوكولاته؟

فتح مادس كيسا من البلاستيك به ماء وشوكولاته، كان قد اشتراها من مقهى في صحراء سيناء. وضعت البلاستيك الذي يوجد فيه شوكولاتة "مارس من النوع المصري بيننا. كانت الرمال تومض خارج نوافذ السيارة، بعض الشجيرات الصغيرة وبعض البيوت متناثرة هنا وهناك. الشمس من فوقنا تكوي سقف السيارة على الرغم أن الهواء لم يكن ساخنا.

بعد الساعة الثالثة وعشر دقائق، اجتزنا الجسر الكبير من فوق قناة السويس عند نقطة القنطرة، كان الجسر عملاقا كما القناة. نظرت من النافذة، وشاهدت سفنا كبيرة تعبر ببطء، على بعد سبعين مترا من تحتنا. خباء السفينة الأحمر يبرق على سطح ذلك الماء الأزرق الساكن. الحياة تستمر، ونحن في طريقنا إلى الجحيم.

أكد لنا وزير الصحة باسم نعيم ،على الهاتف، أنه سيتم استقبالنا على الجانب الآخر من الحدود.

قال مادس مشكّكا:

- لا أعتقد أننا سندخل اليوم عبر الحدود. قطعت هذا المعبر منذ سنة، إنهم يقفلون الساعة الرابعة.

وصلنا الساعة الرابعة والنصف. كانت الشاحنات مصطفة أمام البوابة التي تؤدي إلى نقطة الحدود. استطاع حسن أن يناور السيارة ببراعة عبر الطابور وصولا إلى نقطة الحدود.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أخذ عبد الله جوازات سفرنا وذهب نحو العساكر الذين كانوا يقفون هناك، بينما بقينا نحن في السيارة.

على النقطة الحدودية كان هناك عددٌ من الصحافيين من جميع أنحاء العالم، عندما رأوا بدلاتنا البيضاء سألونا إن كنّا أطباء وفي طريقنا إلى غزة.

وأخيرا جاء عبد الله وقال:

- لا أحد له علمٌ بأنكم ستأتون، من المحتمل أن رجال الأمن الذين عندهم الخبر بقدومكم قد غادروا.

في اللحظة التي كان عبد الله يحاول الاتصال برنده حكيم في السفارة النرويجية بالقاهرة سُمع دوي انفجار كبير، كان ضغط الانفجار قويا جدا لدرجة أن السيارة تحركت من مكانها. عمّت الفوضى والكل يركض إلى سيارته. لفّ حسن السيارة بشكل دائري واندفع بسرعة إلى نقطة العبور مع غزة، متجها صوب مصر، وبالتحديد إلى مدينة العريش التي تبعد خمسة وأربعين كيلومترا، وخلفنا كانت القنابل تتساقط.

العريش في الأصل هي قرية صغيرة يسكنها الصيادون. خلال حرب 1967، عندما احتلت اسرائيل قطاع غزة، هرب كثير من الفلسطينيين إلى هنا. في عام 2008 كان هناك مئة وعشرون ألفا يسكنون في العريش ، ستون بالمائة منهم كانوا من الفلسطينيين. بعد ذلك أصبحت المدينة هدفا سياحيا للأثرياء المصريين، وعلى طول الشاطئ توجد فنادق. قادنا حسن إلى أحد تلك الفنادق، يدعى فندق سويس إين. أنا ومادس وعبد الله تناولنا وجبة الغداء في المطعم. ناقشنا هذه الأنباء: يوم الإثنين قصفت الطائرات الحربية الإسرائيلية مبنى المختبر في الجامعة الاسلامية التي، وفقا للإسرائيليين، كانت تستخدم لتخزين الصواريخ والمتفجرات. كما قصفت مسجداً في مخيم للاجئين في منطقة جباليا، وأعلن الصليب الأحمر أن المستشفيات في غزة تعاني من مشكلة استقطاب كل المصابين.

سأل حسن:

- لكن هل سمعتم عن الزورق الذي تعرض لهجوم من قبل البحرية الإسرائيلية مساء أمس؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- هجوم؟ كررت ذلك في ريبة"

نهار راس السنة 2008: ننتظر قلقين على الجانب المصري من الحدود بين مصر وغزة معنا فتحي محمد عبدالله، السائق الماهر المعروف من السفارة النروجية في مصر.

سمعنا عن زورق "الكرامة" الذي أبحر من قبرص بالعاملين في المجال الإنساني ، والمعدات الطبية والصحفيين. كان الغرض من ذلك هو الوصول الى غزة بالإغاثة عن طريق البحر. لكن قبل أن يصلوا إلى هناك، أوقفوا من قبل البحرية الاسرائيلية التي اطلقت النيران بمدافع رشاشة حول القارب. أخيرا تمكن اليخت الصغير من أن ينجو نسبيا. لم يغرق يخت "الكرامة" لحسن الحظ، واستطاع الإبحار إلى مرفأ صيدا في لبنان.

أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي، الرياح كانت تأتي باردة من البحر. اجتمعنا الساعة الثامنة لتناول الفطور.

قال مادس:

- يجب أن نغادر في أسرع وقت ممكن.

كان مادس على عجلة من أمره، فدفع حساب الفندق. ذهبت إلى الغرفة لاحضار حقيبتي، وفي طريقي إلى غرفة الاستعلامات رأيت مادس بصحبة أربعة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

رجال يرتدون جلابيبَ (الزي العربي) وكوفيات. كانوا أطباء وصيادلة من قطر والمملكة العربية السعودية ينتظرون الدخول إلى غزة منذ يوم الأحد.

كان بحوزتهم مستشفيان ميدانيان كاملان، وعددٌ من القاطرات المحملة بالمعدات الطبية، لكن لم يسمح لهم بالدخول عبر الحدود. مرة أخرى بصدمة من جراء هذا الحصار الوحشي. أصيب المئات أصيبوا من الهجمات الأخيرة داخل قطاع غزة، على بعد بضعة أميال فقط، يحتاجون إلى كل شيء. في جيبي قائمة تفصيلية عن الأدوية المسكّنة وبعض الأدوية والمعدات التي نحاول أن ندخلها معنا. يقف في الخارج طابور من المقطورات المحمّلة بالأدوات الطبية والأطباء الذين لم يستطيعوا الدخول. كان الجميع واقفا في عجز، لا يستطيعون فعل أي شيء.

قادنا حسن إلى مركز المدينة. يمكننا أن نرى أنها مدينة مزدهرة. كانت التجارة بين غزة والعريش دائما ذات أهمية. بعد أن تم إغلاق الحدود، أصبحت البضائع تهرّب عبر الأنفاق، فازدادت الأسعار، وكان ذلك كارثة إنسانيةً للفلسطينيين في غزة. جلبت هذه الحالة بعض الفوائد الاقتصادية لذويهم في العريش. في الأيام الأخيرة من عام 2008 كانت الخدمات الفندقية في حالة ركود لأن الفنادق السياحية تقفل عادة في فصل الشتاء، والآن امتلأت بزبائن جدد من الصحفيين وعمال الإغاثة من مختلف أنحاء العالم الذين كانوا ينتظرون الدخول إلى قطاع غزة.

فى الساعة التاسعة، كنا ننتظر خارج مكتب مدير الأمن في منطقة العريش. دخل عبد الله من الباب، ثم عاد بعد دقائق عدة وأشار إلينا بالدخول. كان يجلس في المكتب رجل بزي رسمي وعلى وجهه ملامح خالية من التعبير.

- إذا أردتم أن تجلسوا هنا وتنتظروا الدخول إلى مدير الأمن يجب أن تسلموا لنا هواتفكم النقالة، قالها من غير أن يلتفت إلينا.

- مستحيل! لا نستطيع أن نجلس هنا وننتظر، يجب أن نتحدث إليه الآن.

- لا يمكن ذلك، لأنه ليس هنا.

- لكن لدينا موعد الساعة التاسعة.

- حسنا، إنه ليس هنا.

نظرت إلى مادس ومن ثم عبدالله.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- هل يعني هذا أنه سيأتي قريبا؟

قال عبد الله:

- لا أعتقد ذلك.

- إذا فلنلغِ ذلك ونتوجه إلى الحدود.

نفد صبر مادس ولم يعد يحتمل أكثر. لكننا نحتاج إلى أكثر من هذا لكي نحرّر موظف الحكومة المصرية من بيروقراطيته.

- هل يمكنك الاتصال برنده حكيم وأن تطلب منها أن تتصل ببعض معارفها في الأجهزة الأمنية في أقرب وقت ممكن؟ قل لها إننا سنكون على الحدود بعد نصف ساعة.

طلب عبد الله الرقم قبل أن أنهي كلامي.

كانت الرحلة أسرع إلى الحدود. حاولت الاتصال بباسم نعيم وزير الصحة، لأتأكد إن كان أحد ينتظرنا هناك في غزة، لكني لم أفلح فأرسلت له رسالةً قصيرة (إس إم إس)، لكن لا أدري إن وصلته أم لا. اتصلت بيون إيفند ينسن في القاهرة وطلبت منه أن يتصل بباسم نعيم، ويقول له بأننا ربما سنقطع الحدود خلال ساعة. كنت خائفا من أن نبقى طويلا في الجهة الثانية من الحدود من غير أن نلتقي بأحدٍ. النقطة الحدودية معرّضة للقصف الإسرائيلي في أي وقت، وكانت مراقبة باستمرار من الجو.

منطقة سيناء منبسطة كليا وصولا إلى معبر رفح الحدودي، والمنطقة الواقعة بين العريش ورفح كانت ترابية، وتوجد فيها بعض من البيوت الصغيرة. أشرقت شمس الصباح على بساتين الزيتون والحقول، وعلى امتداد الطريق كان رجال الشرطة يقفون وهم يحملون البنادق والدروع، وبصحبتهم الكلاب.

علّق مادس:

- بالتأكيد كانت مهمتهم هي اعتراض الذين يهربون عبر الأنفاق وإلقاء القبض عليهم.

يخيل للمرء وكأنه في طريقه إلى السجن؛ أسوار عالية وجدران تفصل الحدود، لا أحد يستطيع الدخول، ولا أحد يستطيع الخروج.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قبل الساعة العاشرة والنصف توقفنا أمام البوابة الحدودية. دخل عبد الله مرة أخرى بجوازات سفرنا، خرجنا من السيارة. أجرى صحافيّ من البي بي سي لقاءً مع مادس. حاول هذا الصحافي الدخول منذ يوم الأحد ولم يفلح. كذلك أجرى صحافي فرنسي مقابلة معي، لكن لم يكن لدي الكثير لأقوله له أكثر من حاجتنا الماسة إلى الدخول. سئم الصحافي الفرنسي من الانتظار وقرر الرجوع إلى بلاده.

رجع عبد الله بجوازات سفرنا وقال:

- سوف تدخلون.

صرخ مادس بفرح:

- Yesss!

أخذنا جوازات سفرنا وعانقنا حسن وعبد الله اللذين كانا يبدو عليهما القلق.

قال حسن بجدية

- اعتنيا بنفسيكما

داخل البوابة، أخذ جندي مصري جوازات سفرنا وقال لنا اتبعوني. مشينا في منطقة مكشوفة حوالي خمسين مترا إلى أن وصلنا إلى المبنى الرئيسي، وهناك، في قلب المبنى، فُتشت حقائبنا. بعدها خرجنا من المبنى الرئيسي إلى ساحة أخرى حيث يقف أربعة جنود، كل مع كلب مربوط بسلاسل حديدية. عندما شاهدتنا الكلاب، بدأت تزمجر وتحدق بغضب إلينا.

ذهبنا نحو رجل يرتدي معطفاً رمادياً داكناً ونظارات شمسية. نظر إلى جوزاتنا وقال:

- ماذا تفعلون هنا؟

- نحن في طريقنا إلى قطاع غزة للعمل، نحن أطباء.

كنا نرتدي معاطفنا البيضاء التي اشتريناها من القاهرة. أما مادس فكانت حول رقبته سماعة طبية. أقبل ثلاثة رجال يرتدون معاطف شتوية رمادية داكنة، ونظارات شمسية.

سأل أحد أولئك الثلاثة وهو يلبس نظارته الشمسية:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- ماذا تفعلون هنا؟

أحسست أن الأمور أصبحت أكثر صعوبة. أخرج مادس هاتفه النقال واتصل برنده في السفارة. شرح لها الوضع باختصار ثم قدم الهاتف النقال إلى أحد الرجال الذين يرتدون النظارات الشمسية.

لا أدري ماذا قالت له، إلا أنني لاحظت أن لهجته تغيرت تماما.
- أهلا وسهلا بكم عبر الحدود، لكن جوازاتكم بحاجة إلى ختم. عليكم أن ترجعوا للحصول على الختم.

كنا نخشى أن يكون شخصٌ ما يحاول أن يرجعنا إلى مصر، لذلك وضعنا حقائبنا وصناديق الأدوية في وسط الساحة، هكذا تكون لنا ذريعة للعودة إذا حاول أحدهم أن يعيقنا.

طلبت من أحد أولئك الذين يرتدون النظارات الشمسية الانتباه إلى حقائبنا وصناديق الأدوية. بينما رافقنا آخر إلى رئيس مكتب الحدود المصرية،أخذ جوازات سفرنا وقال:
- انتظروا هنا.

بعد بضع دقائق عاد ومعه جوازات سفرنا مختومة، وقال بابتسامة:
- مرحبا بكم وحظا سعيدا في غزة.

في اللحظة التي خرجنا فيها إلى الساحة، خرج من الثكنة المزيد من الجنود المصريين مدججين بالعصيّ والدروع في الجهة الشرقية من الساحة. للحظات فكرت أنهم قادمون للهجوم علينا، لكنهم واصلوا المشي باتجاه البوابة نحو غزة. حقائبنا وصناديقنا ما تزال في وسط الساحة. تحقق أول رجل بنظارات شمسية من الاختام وقال لنا:

تفضلوا، وأشار لنا باتجاه البوابة حيث كان الجنود الذين هرولوا نحونا في اللحظة التي خرجنا فيها إلى الساحة. كانوا واقفين بدروعهم وهراواتهم. عندما خرجنا إلى الجانب الآخر كان الجنود يسيرون على طول العشرين مترا التي تفصل قطاع غزة عن مصر.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

غزة، اخيرا عبرنا اخر حاجز للنقطة الحدودية في رفح، في الخلفية جنود مصريون مع الكلاب خلف التحصينات والاسلاك الشائكة.

مرحبا بكم في غزة. في طريقنا شمالا باتجاه مدينة غزة في سيارة اسعاف فلسطينية مع احد رجال الاسعاف، ليلة راس السنة 2008.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الشوارع في مدينة غزة شبه خالية، معظم المحلات والمتاجر مقفلة. والمباني المدمرة كانت مكومة على بعضها.

في لقائنا الاول مع الحرب ليلة راس السنة 2008. طبيب قتل اثناء عمله في احدى سيارات الاسعاف يحمل خارج المستشفى من قبل عائلته لدفنه.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

التفسير واضح ،إنهم هناك لمنع الفلسطينيين من الفرار من غزة عبر البوابة المفتوحة، لكن بالنسبة لنا كان شعوراً مذلا، ومع ذلك كنا نبتسم، وسعداء لأننا عبرنا الحدود. تجمهرُ الجنود علينا لم يكن ليعكر صفونا الآن.

- شكرا للمساعدة، نهاركم سعيد. قلناها بفرح لأولئك الجنود، لا أحد منهم أبدى حتى ابتسامةً.

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف، ليلة رأس السنة، عندما عبرنا البوابة إلى غزة، استغرق الأمُر ساعتين لعبور الحدود.

في غزة، كان الجو مختلفا تماما؛ ثلاثة من رجال الشرطة الفلسطينية كانوا غير مرتبين، واقفين داخل البوابة، قالوا مبتسمين:

- مرحبا بكم في قطاع غزة.

التقى بنا قائد القافلة، الدكتور معاوية حسنين ،الذي كان يعرف مادس من قبل. أخذ أحد رجال الشرطة الفلسطينية جوازات سفرنا.

- سأتكفل بختم الجوازات. فقط انتظروا هنا.

بعد بضع دقائق عاد وبيده هاتف.

ناولني الهاتف وقال:

- السفير يريد أن يتحدث إليك

كان تور وزينيسلاند عضو مجلس الوزراء بمكتب النرويج التمثيلي في رام الله.

قال:

عظيم أنكم قدمتم، هل أنتم في طريقكم إلى غزة؟.

- نعم ، نحن الآن في سيارة الإسعاف، وسنبلغكم حين نصل إلى مستشفى الشفاء.

- نجلس في داخل سيارة الإسعاف بصحبة اثنين من المسعفين. أنا ومادس نظرنا إلى بعض.

مكتبة الرمحي أحمد

- إننا في الداخل ... في الداخل.

سألت المسعف الذي كان يجلس بجانبي:

- كيف هو الوضع الآن؟.

أجاب:

- سيئ؛ يقصفون طوال الوقت، انتظر وسترى.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

التمهيد *

إيريك فوسا

القصة هي كيف أن منظمة إنسانية صغيرة، مثل نورواك، ينتهي بها المطاف للعب دور الرسول بين وزير الصحة فتحي أبو مغلي من حركة فتح، ووزير الصحة باسم نعيم من حركة حماس. تعود القصة إلى عام 1982.

أرسلت لجنة فلسطين فريق طوارئ إلى لبنان عندما تعرضت البلاد لهجوم إسرائيلي في عام 1982. بعد أن احتلت اسرائيل جنوب لبنان، فهمنا أن منظمة التضامن لم يعد باستطاعتها إرسال عاملين فى المجال الطبي إلى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين هناك. بعد مشورة من وزارة الخارجية، تمّ إنشاء نورواك، لجنة فلسطين، بوصفها منظمة إنسانية مستقلة.

شيئا فشيئا بدأت نورواك ببناء مشاريع في لبنان وفي فلسطين، وأصبحت مؤسسةً إنسانيةً مستقلة. لم تكن نورواك منظمة معروفة في النرويج حتى الأحداث الأخيرة في غزة. جميع المشاريع كانت تموّل من قبل وزارة الشؤون الخارجية، ولفترات قصيرة من مديرية التعاون والتنمية (نوراد).

في السنوات الأولى تعاونت نورواك مع المنظمات الخاصة على اختلافها في فلسطين ولبنان. تغيّر أسلوب العمل في فلسطين بعدما تم التوقيع على اتفاقية أوسلو في عام 1993. تتضمن المعاهدة أن تعترف إسرائيل بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها، الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني ونظيرتها في التفاوض، وأعطت الاتفاقية الحق لمنظمة التحرير الفلسطينية بإنشاء الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة.

بدأ الحكم الذاتي الفلسطيني بإنشاء الوزارات في ربيع عام 1994، وفي الأول من تموز / يوليو من العام نفسه عاد قائد منظمة التحرير الفلسطينية

* في هذا التمهيد معلومات ومواقف تحتاج إلى تدقيق، ابقيناها كما هي احتراماً للنص الأصلي للمؤلفين (الناشر).

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ياسر عرفات إلى فلسطين، بعد 27 عاما قضاها في المنفى. كان خطّ الرحلة من القاهرة الى غزة، وبعدها سافر عرفات على متن مروحية إلى مدينة أريحا، حيث سيلتقي هناك مع فلسطينيي الضفة الغربية.

في الثلاثين من يونيو 1994 كنت أنا ويون إيفند ينسن في غزة لمناقشة مختلف المشاريع مع وزير الصحة في السلطة الفلسطينية الجديدة رياض زعنون. أخبرنا زعنون أن الهلال الأحمر الفلسطيني (جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني) ووزارة الصحة يخشون من محاولة اغتيال أو انفجار قنبلة في حشد كبير من الناس في أريحا، وأنه هيأ فريقاً طبياً لحالات الطوارئ لزيارة عرفات. سألناهم إذا كانوا في حاجة إلى فريق من الأطباء الجراحين، فأجابوا بالإيجاب. قرر وزير الصحة أن ترافق نورواك موكب عرفات بسيارة إسعاف تحمل معدات جراحية في حال حدث شيء ما.

في وقت مبكر من صباح اليوم التالي، التقينا في مستشفى المقاصد في القدس. كان في استقبالنا رئيس الممرضين الذين قدموا لنا أدوات التخدير والمعدات الجراحية مع موكب من سيارات الإسعاف. غادرنا القدس في اتجاه أريحا. توقف الموكب فجأة، أمرتنا الشرطة الإسرائيلية بالانتظار. خرجنا من سيارة الإسعاف على بعد خمسين متراً، كان المستوطنون الاسرائيليون قد أغلقوا الطريق بعجلات السيارات الملتهبة. والغرض من ذلك هو منع الفلسطينيين الذين قدموا من الضفة الغربية لاستقبال عرفات.

مكثنا ساعة في انتظار أن تنظف الشرطة الطريق من العجلات المحروقة فاجتزنا ببطء. هجم المستوطنون على سيارة الإسعاف وبدأوا بترديد هتافات ضد عرفات. كانت شوارع أريحا مزينة،والأعلام الفلسطينية ترفرف. لكن الساحة التي سيخطب فيها عرفات لا تزال خالية. أريحا محاطة بالجبال، شمالي البحر الميت، تقع على ارتفاع 258 متراً تحت مستوى سطح البحر. درجة الحرارة كانت تصل إلى 40 درجة ذلك اليوم.

كانت سيارة الإسعاف مكيفة، مادامت تسير. لكن سرعان ما طوقنا بحشد كبير من الناس، أجبروا السيارات على الوقوف. تعطل محرك السيارة؛ فلم يعد جهاز التكييف يعمل. كان على السائق أن يوقف المحرك، وسرعان ما ارتفعت

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

درجة الحرارة إلى أكثر من 40 درجة في المقصورة. كان لدينا حقائب عدة للتبريد ومكعبات الثلج لاستعمالها للناس الذين يغمى عليهم من شدة الحرّ. ملأت قبعتي ببعض المكعبات الثلجية وحفظت - على الأقل- رأسي باردا.

وصل عرفات وبدأ يخطب في الشعب. كان عدد المحتشدين أقل مما توقعت، ربما لم تكن اتفاقية أوسلو مستحبة عند معظم الناس.

تتضمن اتفاقية أوسلو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، وحق المنظمة في إقامة سلطة الحكم الذاتي. لكن خلافاً لذلك فلم تعطِ إلا القليل للفلسطينيين. لم تكن تتضمن أي حل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين الذين هجّروا من الجزء الفلسطيني الذي يقع داخل حدود إسرائيل. ولم يكن أيضا هناك شيء حول وضع القدس. ربما كان من أخطر حلقات الضعف في الاتفاقية، أنها لم تتضمن أي التزام إسرائيلي لوقف إنشاء المستعمرات شبه العسكرية الجديدة في الضفة الغربية وقطاع غزة، على الرغم أن هذا يعدّ انتهاكاً للقانون الدولي.

بين عامي 1970 و1980 ازداد عدد المستعمرات في الضفة الغربية وقطاع غزة بشكل سريع، وقرر حزب الليكود ضم الضفة الغربية وقطاع غزة.

الجدار المسمى الجدار الامني موجود في عمق الضفة الغربية ويقسم المجتمع الفلسطيني الى قسمين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وضع عرفات أوّل مقر رئيسي للسلطة الوطنية الفلسطينية في غزة، وفي وقت لاحق انتقل إلى مدينة رام الله في الضفة الغربية. أخذت السلطة الفلسطينية على عاتقها مسؤولية الخدمات العامة التي كانت سابقا من مسؤولية إسرائيل، ومن ضمن المسؤوليات إدارة الشرطة، وبالتالي مسؤولية أمن إسرائيل، بما أن السلطة الفلسطينية قد تعهّدت بالامتناع عن شن هجمات ضد إسرائيل.

كان على الشرطة الفلسطينية أن تمنع الجماعات المسلحة التي ما زالت ترسل الانتحاريين والصواريخ إلى إسرائيل.

في الوقت نفسه، أبقت إسرائيل على جميع المستعمرات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة، وسيطرت على الحدود. أقام الجنود الإسرائيليون عدداً من نقاط التفتيش على جميع الطرق المهمة في غزة والضفة الغربية. كانت للسلطة الفلسطينية السيطرة فقط على قطاع غزة المنقسمة على بعضها. في عام 1995 وقعت منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل على اتفاق جديد، حيث حصلت السلطة الفلسطينية على السيطرة على معظم المدن والقرى في الضفة الغربية وغزة. لكن إسرائيل حافظت على السيطرة العسكرية، وكانت تسيطر على كل التحركات في الضفة الغربية وقطاع غزة.

كان من الصعب أن تستمر اتفاقية أوسلو؛ لأنه ستليها مفاوضات حول وضع القدس، على الحدود بين المناطق الفلسطينية والإسرائيلية، وحول حقوق جميع الفلسطينيين الذين شردوا في السنوات 1947-49، عندما أنشئت دولة إسرائيل. أكثر من أربعة ملايين يعيشون في لبنان وسوريا و مصر والأردن وقطاع غزة والضفة الغربية، كانوا جزءا من المفاوضات. وفقا لحقوق الإنسان، كان لهؤلاء الحق في العودة إلى ديارهم في إسرائيل.

ربما يجب أن يحصلوا على تعويضات عن ممتلكاتهم، و لم تكن إسرائيل مستعدة للقيام بذلك. في الوقت نفسه واصلت إسرائيل إنشاء مستعمرات جديدة في الضفة الغربية المحتلة ومرتفعات الجولان والقدس الشرقية. عندما تم التوقيع على اتفاقية أوسلو، في عام 1993، كان مسجلا وجود 111600 من المستوطنين الإسرائيليين في مستوطنات الضفة الغربية خارج القدس. في عام 2006 كانت النسبة أكثر من الضعف لتصل إلى 282400، مقسمين على 121 مستعمرة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

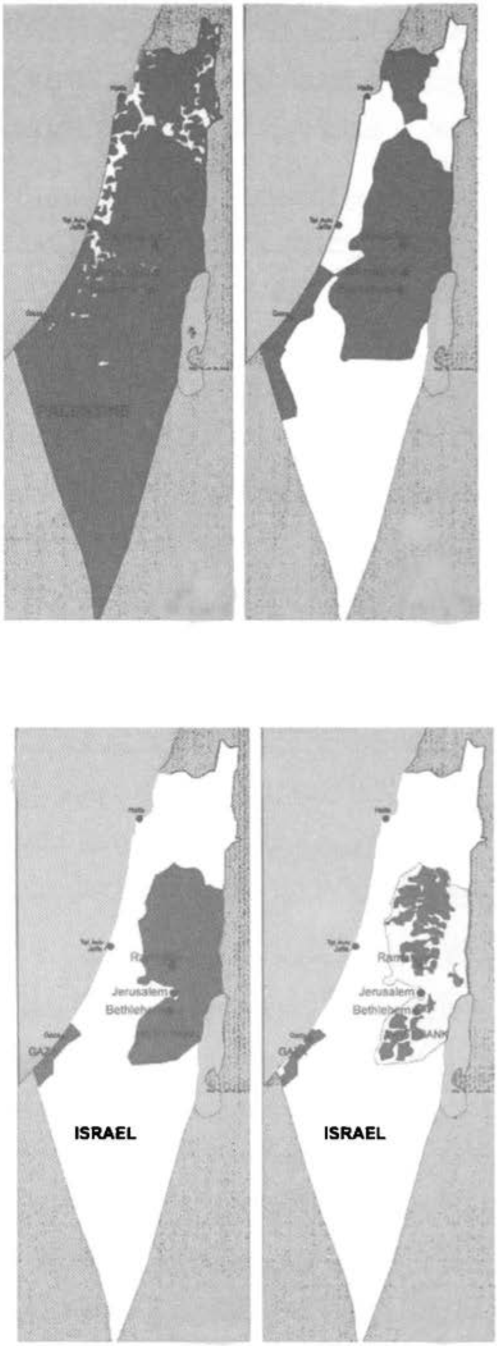

فقدان الأراضي الفلسطينية من 1946 الى 2000 الأراضي الفلسطينية هي المناطق باللون الاسود. الخريطة الثانية على اليمين تظهر خطة تقسيم الامم المتحدة لعام 1947. المصدر: أن اربور كوكيرز، مجموعة احداث فلسطين- اسرائيل.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في الفترة نفسها، زاد عدد المحتلين الإسرائيليين في القدس الشرقية من 152800 إلى 184000. في عام 2000، التقى رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك بياسر عرفات عن منظمة التحرير الفلسطينية، في كامب ديفيد بولاية ماريلاند، في محاولة أخيرة لمتابعة اتفاقية أوسلو، وانهارت المفاوضات.

بالنسبة للسكان الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، كان الوضع يزداد صعوبة، لكنهم كانوا مرتبطين بالاتفاق الذي كان مرهوناً بقبول إسرائيل، وبالتخلي عن المقاومة. في الوقت نفسه كانت حرية الحركة مقيدة، وإسرائيل مستمرة في ضم الأراضي. بلغت الأوضاع العصبة ذروتها عندما أطلق المستوطن الأمريكي باروخ غولدشتاين في 25 فبراير 1994 أكثر من مئة رصاصة على الفلسطينيين، الذين كانوا مجتمعين لأداء صلاة الجمعة، في المسجد الإبراهيمي في الخليل. 30 فلسطينيا قتلوا بالرصاص، والعديد لقوا مصرعهم في أعمال الشغب التي تلت ذلك.

قبل هجوم غولد شتاين كانت حركة حماس تقوم بعمل المقاومة بمهاجمة المواقع الإسرائيلية العسكرية، وكانت مجموعات من الفلسطينين ترمي الحجارة على الجنود الإسرائيليين بشكل غير منظم. بعد الهجوم بدأ نوع جديد من المقاومة مصحوب بانتحاريين. في شهر إبريل من السنة نفسها، قامت حماس بأول هجوم انتحاري ضد أحد الباصات في مدينة العفولة بإسرائيل، حيث لقي ثمانية مصرعهم وأصيب خمسون. تلتها ثلاث عمليات ضد أهداف في إسرائيل نفذت خلال عام 1994، تلتها ثلاث في عام 1995.

في عام 1996 بدأت موجة جديدة من العمليات الانتحارية، بعد أن أعطى رئيس الوزراء شيمون بيريز الأمر بقتل أحد المطلوبين من المواطنين الفلسطينيين، المسمى بـ "المهندس يحيى عياش، الذي كان مسؤولا عن الهجمات الانتحارية. قتل عياش بعد أن حصل على هاتف خليوي مليء بالمتفجرات من قبل عميل لإسرائيل. أدى الاغتيال إلى زيادة الانقسام بين منظمة التحرير الفلسطينية وحماس، وإلى موجة جديدة من العنف في إسرائيل.

في أكتوبر 2001، بدأت حماس وبعض الفصائل الأخرى بإطلاق صواريخ محلية الصنع من قطاع غزة إلى داخل إسرائيل. في الضفة الغربية استمر

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المستوطنون الإسرائيليون يتصرّفون على هواهم. في الوقت نفسه كانت إسرائيل تهاجم باستمرار بعض الأهداف في غزة. جعلت كثرة الحواجز التنقل والتجارة والحياة اليومية في الضفة الغربية وقطاع غزة صعبة جدا. بعد ذلك أصبح من المستحيل على الناس معرفة ما إذا كانوا سيصلون إلى العمل والمدارس أم لا.

في أي وقت يمكن أن يوقفوهم، وكانت حواجز التفتيش تقفل لساعات وأحيانا لأيام متتالية. حركة المرور من خلال المعبر الحدودي الوحيد لتنقل الناس إلى إسرائيل - هو معبر إيريز- أصبح تدريجيا أكثر صعوبة، وبدأ الاقتصاد يتدهور. قبل نشوء السلطة الوطنية كانت إسرائيل، كقوة محتلة، مسؤولة عن الخدمات الطبية للفلسطينيين، بالإضافة إلى إنشاء الفلسطينيين بعض المنظمات الخاصة والتطوعية وبعض الخدمات الصحية المتنوعة.

في عام 1947، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرار تقسيم فلسطين، وأخذت على عاتقها مسؤولية الخدمات الصحية للفلسطينيين المسجلين كلاجئين. أنشأت الأمم المتحدة في عام 1949 منظمة خاصة للفلسطينيين الذين كانوا قد فروا أو طردوا من ديارهم، (الأنوروا) هي اختصار لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى. بالإضافة إلى الخدمات الصحية كانت مسؤولة عن الخدمات الاجتماعية، والتعليم وبناء البنية التحتية في مخيمات اللاجئين.

كانت (الأنوروا) تساعد العائلات وأبناءها المسجلين كلاجئين منذ عام 1948. لم يشمل برنامج الأمم المتحدة العائلات ذات الأصول الغزّاوية. حوالي مليون فلسطيني من مواطني غزة مسجلون كلاجئين.

من خلال اتفاقية أوسلو، حصلت حكومة السلطة الفلسطينية على مسؤولية إدارة الخدمات الصحية العامة ومسؤولية عامة عن جميع الخدمات الطبية للفلسطينيين. لاحظنا ذلك جيدا، لأن الهلال الأحمر الفلسطيني لعب دورا أساسيا في الخدمات الطبية للفلسطينيين. الآن حصل على دور أقل أهمية في فلسطين. بعد إنشاء السلطة الوطنية الفلسطينية، كان من الواضح أن (نورواك) مضطرة لدعم جميع المشاريع التي يمكن أن تعزز كيان الدولة، إذا سنحت لها أي فرصة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مشروع سيظهر لاحقا أنه مهمٌ، على الأقل بالنسبة إلى الوضع في قطاع غزة خلال الهجوم الذي وقع عليها في عام 2009، كان مشروع (وحدات تركيز الأوكسجين). كانت المستشفيات في غزة والضفة الغربية تشتري قوارير الأوكسجين جاهزة من إسرائيل. وكان ذلك مكلفا بالنسبة لميزانيات الصحة القليلة. وبعد ذلك بدأ معبر إيريز يغلق باستمرار مما أدى إلى صعوبة الحصول على الأوكسجين. كان يحدث، في بعض الأحيان، أن المرضى بحالات خطيرة لا يستطيعون الوصول للمستشفى ويضطرون للمكوث في المستوصفات والعيادات بمعدات قليلة، على أمل أن يسمح لهم أن يمروا عبر حواجز التفتيش. في بعض الأحيان كان المرضى يموتون في سيارات الإسعاف التي تنتظر العبور للوصول إلى المستشفى.

لذلك أبرمنا اتفاقا مع وزير الصحة في غزة لإنشاء مركز لتركيز وحدات الأكسجين - بمعنى أن هذه الماكينات تصنع الأوكسجين من الهواء - لتوزيعه على جميع المستشفيات الرئيسية في قطاع غزة. أخذت شركة في القدس على عاتقها بناء وحدات تركيز الأوكسجين، وبعد فترة قصيرة أصبح بإمكان المرضى الحصول

مولدات الاوكسجين: الماكينة التي تصنع الاوكسجين الطبي من الهواء في مستشفى الشفاء من اهم مشاريع منظمة نورواك لدعم وتقوية المستشفيات الفلسطينية في غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

على الأكسجين أينما وجدوا في قطاع غزة. كل من حماس وحركة فتح انبثقت من جماعة الإخوان المسلمين، حركة المقاومة التي نشأت في مصر ضد الاحتلال البريطاني في مصر عام 1928. في عام 1930 تأسس فرع للحركة في فلسطين، الذين قاتلوا ضد الانتداب البريطاني. واحتجواس ضد الصهيونية المتنامية. وكان عز الدين القسام أول رئيس للحركة، وكتائب عز الدين القسام في حركة حماس تحمل اسمه. (كتائب عز الدين القسام)*.

شارك ياسر عرفات مع قوات الإخوان المسلمين المدعومة من حركة الإخوان المسلمين في مصر ضد عصابات الهاجانا الإرهابية في جنوب فلسطين. واعتقل ياسر عرفات للمرة الأولى في عام 1954، مع عناصر ومناصرين لجماعة الإخوان المسلمين. كان ذلك بعد محاولة الاغتيال الذي قامت بها الجماعة ضد الرئيس المصري جمال عبد الناصر. خليل الوزير، المعروف أيضا باسم أبو جهاد، وأعضاء آخرين من مؤسسة حركة فتح، لهم ماض مع جماعة الإخوان المسلمين*.

بين عامي 1950 و1960 نشأت حركة فتح كمنظمة تحرير وطنية لها رؤية بأن فلسطين لجميع الأديان. واصلت حركة فتح مقاومتها ضد إسرائيل بعد حرب عام 1967، وسيطرت أيضا في نهاية المطاف على منظمة التحرير الفلسطينية التي تأسست عام 1964 من الدول العربية. انتخب عرفات رئيسا لمنظمة التحرير الفلسطينية في عام 1969.

في السبعينيات حصل عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية على تأييد كبير للمقاومة ضد إسرائيل، لكن العمل في المقاومة أدى بالقيادة إلى أن تعيش في المنفى. فتح والأحزاب الأخرى في منظمة التحرير الفلسطينية لم تستطع أن تشارك في الانتخابات البلدية أو النقابية في فلسطين. على عكس أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، الذين لم يكن لهم عمل مقاوم ظاهر، كانوا يعملون في المناطق المحتلة في المشاريع الإنسانية والاجتماعية. ماعدا الحزب الشيوعي الفلسطيني، كانت المنافسة لبناء المؤسسات في الأراضي المحتلة قليلة. في الضفة الغربية كان هنالك تأييد كبير للشيوعيين والأحزاب العلمانية، لكن، كانوا قلة في قطاع غزة، لذلك أصبح الإخوان المسلمون حركة سياسة مهمة في غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بقيادة المدرس أحمد ياسين، أسست الجماعة الإسلامية مشاريع إنسانية وتعليمية للفقراء الفلسطينيين. بعد قيام الثورة في إيران عام 1979 أصبح للحركات الإسلامية معنى سياسياً مهماً، وهذا عزز الدعم لجماعة الإخوان المسلمين. أحمد ياسين والقيادات التي كانت تتعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية قتلوا واحدا تلو الآخر بما كانت تسميه إسرائيل الاغتيالات المستهدفة.

في بداية الانتفاضة الأولى عام 1987 تأسست حماس كحزب سياسي، مبنية على مبادئ جماعة الإخوان المسلمين. منظمة التحرير الفلسطينية كانت قد ضعفت نتيجة الاحتلال الإسرائيلي للبنان عام 1982 . وفي الوقت نفسه، أصبح الاحتلال في غزة والضفة الغربية أكثر سوءا. جمعت حركة حماس أنصاراً ومؤيدين من المجموعات السكانية نفسها التي كانت تؤيد جماعة الإخوان المسلمين، من الفقراء والطلاب.

ولذلك أصبحت قيادة حماس مهيمنا عليها أيضا من الأكاديميين. عندما تفكك الاتحاد السوفياتي في عام 1989 فقدت الحركة الوطنية ومنظمة التحرير الفلسطينية دعما سياسيا واقتصاديا مهما خصوصاً بعد حرب الخليج عام 1991، حيث دعم ياسر عرفات العراق وصدام حسين ضد الولايات المتحدة، فأصبحت المقومات الاقتصادية لمنظمة التحرير الفلسطينية ضعيفة بسبب سحب الكويت والمملكة العربية السعودية الدعم الاقتصادي وطرد الفلسطينيين المقيمين هناك.

دخلت منظمة التحرير الفلسطينية في محادثات سرية عن "طريق أوسلو التي أدت إلى اتفاقية أوسلو حينها كانت منظمة التحرير ضعيفة ولم يكن لديها العديد من الخيارات. انتشر الفساد في السلطة الفلسطينية، وازداد معدل الجريمة. العديد من قادة الأمن أصبحوا أغنياء على حساب الشعب الفلسطيني. وتسارعت الانتقادات ضد ياسر عرفات، كما أن إنشاء السلطة الفلسطينية أدى إلى تزايد الخلاف في حركة فتح.

لم يكن لدى السلطة الفلسطينية أي اقتصاد مستقل، ولم تكن هناك ضرائب، وبالتالي كانت تعتمد على الدعم المباشر من الدول المانحة. بينما في غزة،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أصبحت حماس أكثر وأكثر شعبية من خلال مشاريعها الإنسانية ومقاومتها ضد الاحتلال الإسرائيلي. كانت المشاريع الإنسانية تمول من أشخاص عاديين. علاوة على الادعاءات التي تقول إن حركة حماس كانت تصلها أموال من إيران وسوريا وتهرّب إلى غزة من قبل فرع حماس في سوريا.

عندما انهارت محادثات قمة كامب ديفيد في صيف عام 2000، كان هناك بالفعل استياء كبير في صفوف الفلسطينيين بسبب نتيجة مفاوضات السلام وسوء إدارة السلطة في فلسطين. وبلغت ذروتها عندما قرر أرييل شارون زيارة الحرم الشريف، التلة المقدسة - وغالبا ما يطلق عليها تل الهيكل - خارج المسجد الأقصى في القدس خلال صلاة الجمعة. استفزت هذه الزيارة الفلسطينيين كثيرا، واندلعت الانتفاضة الثانية.

عمليات الانتحاريين، وإطلاق الصواريخ من قطاع غزة،كانت تنسب إلى حركة حماس وحركة الجهاد الإسلامي، على الرغم من أن بعض العمليات كان وراءها بعض الجماعات التابعة لحركة فتح.

الغضب ضد سياسة الاستيطان، وتجاوز حقوق الشعب الفلسطيني من دون رحمة، كان سائدا عند كل السكان الفلسطينيين وعند كل الأحزاب، وليس فقط على الأحزاب الإسلامية. في 11 نوفمبر 2004 كان ياسر عرفات يعاني من مرض خطير عندما كان محاصرا في رام الله، نُقل جوا إلى باريس للمعالجة وتوفي هناك، ولم تكن أسباب وفاته واضحة. استلم محمود عباس الرئاسة، لكنه لم يكن يحظى بشعبية كالتي كانت عند عرفات.

في شباط / فبراير 2005، قررت إسرائيل تفكيك المستعمرات الإسرائيلية في قطاع غزة، وفي غضون 12 أيلول / سبتمبر من ذلك العام كانت جميع المستعمرات قد هجرت أو أتلفت، كما انسحبت القوات الإسرائيلية من قطاع غزة و انسحبت أيضا من ممر فيلادلفيا، وهو شريط من الأرض المحايدة على الحدود مع مصر. من المفترض أن يكون الممر تحت إدارة الاتحاد الأوروبي. كانت لدى السلطة الفلسطينية السيطرة على جانب قطاع غزة، ولكن ليس لديها سيطرة على الحدود والمجال الجوي والساحل. من ناحية القانون الدولي، لا تزال غزة تحت الاحتلال.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مباشرة بعد توقيع اتفاقية أوسلو في عام 1993، بنت إسرائيل حاجزا يتكون من أسوار عالية وأجهزة استشعار على طول قطاع غزة. في الفترة 2000-2002 قامت إسرائيل بتعزيز وتوسيع المنطقة العسكرية حول الحاجز وتوسعت بمسافة كيلومتر، كما عزّزت الأسوار. وأخضعت المعابر القليلة لمراقبة دقيقة. ثم أصبحت غزة سجنا، حيث كانت إسرائيل تسيطر على جميع التحركات فيها.

بعد وفاة ياسر عرفات في 9 يناير 2005 أجريت الانتخابات الرئاسية، وانتخب محمود عباس قائد فتح رئيسا لفلسطين. وبسبب عدم الرضا عن الحكومة الفلسطينية التي تم إنشاؤها بواسطة اتفاقية أوسلو، طلبت ما تسمى بالرباعية والتي هي الأمم المتحدة، الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة وروسيا أن تجرى انتخابات جديدة بين الفلسطينيين. في 25 يناير 2006 أجريت انتخابات للمجلس التشريعي في فلسطين المحتلة. أرسل الغرب 600 مراقب للانتخابات التي تمت دون ملاحظات.

كانت حماس المنتصرة، حيث حصلت على 42.9 في المئة من الأصوات وعلى أغلبية نظيفة في البرلمان بمجموع 74 من 132 مقعد. شكلت حماس الحكومة الفلسطينية وعينت إسماعيل هنية رئيسا للوزراء . أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على الفور أنها لن تتعاون مع الحكومة الفلسطينية إذا شاركت فيها حماس. ووضعوا شرطا لاستمرار الدعم الاقتصادي المباشر، وهو أن تعترف حماس بدولة إسرائيل وتوقف كلّ أعمال العنف. وافقت حماس على أن تحترم الاتفاقيات الموقعة وبالاعتراف غير المباشر بإسرائيل، وبالحدود ما قبل 1967، ووقف إطلاق النار (الهدنة) لمدة عشر سنوات. على الرغم من ذلك، قررت الدول المانحة بما فيها النرويج، توقيف الدعم لفلسطين. وهذا خلق مشاكل كثيرة في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة. مكتبة الرمحي أحمد

بالنسبة للقطاع الصحي، أدى هذا القرار إلى أن الميزانيات المخصصة للرواتب والمعدات في المستشفيات العامة اختفت بين ليلة وضحاها. المساعدات التي كانت تقدّم من خلال الأمم المتحدة لم تتوقف، لكن المقومات الاقتصادية لإدارة السلطة الوطنية، بما في ذلك خدمات الصحة العامة، اختفت. بعد الفوز في الانتخابات تلقت نورواك دعوة للقاء وزير الصحة الجديد، باسم نعيم من حركة حماس في غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في لقاء مع جون ينسن إيفند في نيسان / أبريل 2006، قال الدكتور نعيم :إن الوضع أصبح غير محتمل. المرضى يموتون بسبب نقص في المعدات والأدوية.

في 9 نيسان / ابريل أعلنت الوزارة المالية لحماس أنها لم تعد قادرة على دفع رواتب الموظفين الرسميين. وهذا شمل أيضا موظفي وزارة الصحة والمستشفيات. وزارة الخارجية النرويجية زادت المساعدات للأمم المتحدة، وحثت البلدان المانحة الأخرى على أن تحذو حذوها للحد من أثر الحصار على المجتمع المدني. لكن الأمم المتحدة لم ترد أن تأخذ مسؤولية الإدارات الرسمية، لكن من الواضح أن الأمم المتحدة لم تكن تستطيع تولّي المسؤولية بشكل علني لإدارة المنشآت الرسمية.

هذا سيؤدي إلى وضع الفلسطينيين تحت إدارة الأمم المتحدة. المقاطعة الأوروبية والأمريكية كانت بمثابة عقاب جماعي للفلسطينيين، لأنهم أعطوا أصواتهم للحزب "الخطأ". العواقب السياسية قد تكون خطيرة على المدى البعيد، لكن بالنسبة لنا نحن الذين نعمل في القطاع الصحي، كانت المعاناة الإنسانية هي الأهم.

عندما افتقرت الإدارة إلى المال لتوفير المعدات وتشغيلها، بدأت المؤسسات الوطنية التي أنفق عليها الغرب مليارات الدولارات لبنائها تنهار. في23 نيسان / أبريل 2006 تعرض باسم نعيم لمحاولة اغتيال؛ اقتحم مسلحون مكتبه، ووصل الأمر إلى تبادل إطلاق النار بين المهاجمين وحراس أمن حركة حماس وأصيب الكثيرون. وفقا لصحيفة هآرتس الإسرائيلية، كان سبب الاعتداء هو عدم رضا الناس عن الحالة الاقتصادية والقصور في خدمة الرعاية الصحية بعد سيطرة حماس.

لم تعتبرها نورواك جريمة اغتيال سياسي، ولكن كردّ فعل لبعض اليائسين وأقارب المرضى. وهذا أكد مدى خطورة الموقف وأهمية جلب المعدات والأدوية إلى القطاع الصحي في غزة. تباحثنا في هذا الأمر مع وزارة الشؤون الخارجية، ومن ثم تمّ توجيه الأموال إلى فلسطين عبر نورواك. في أيار / مايو 2006، اجتمعت أنا ويون إيفند بالدكتور باسم نعيم، ورئيس بلدية مدينة غزة، ماجد أبو رمضان، في القاهرة، حيث اتفقنا على كيفية تحويل الأموال من وزارة الخارجية النرويجية، وهذه كانت بداية التعاون الشامل.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في خلال سنتين حوّلنا حوالي مئة مليون كرون نرويجي من وزارة الخارجية إلى السلطات في فلسطين. المشكلة لم تكن فقط مجرد نقص في الموارد. كانت عملية نقل المعدات عبر معبر إيريز تزداد صعوبة. في خريف عام 2008، توقفت عملية النقل نهائيا. كان عند نورواك الكثير من المعدات المخزنة في إسرائيل والتي لم تستطع إرسالها إلى غزة. شملت المقاطعة الغربية أغلبية الناس وبدت كإشارة إلى إسرائيل من أوروبا وأمريكا أن العقاب الجماعي شيء مرضي عنه. بدأت القائمة بالمعدات والأدوات التي لم نستطع إدخالها إلى قطاع غزة تكبر وتكبر، ومن بين ما كانت تتضمنه مواد بناء "الإسمنت"، ومعدات التهوية والتنفس الصناعي، وادعت إسرائيل أن هذه هي المواد التي تستعمل لإنتاج وإطلاق الصواريخ.

بما أن إسرائيل لم تعترف بالحكومة الفلسطينية، أصبح بعد ذلك من المستحيل بالنسبة للاتحاد الأوروبي السيطرة على المعبر الحدودي في رفح، والتي كانت جزءا من اتفاقية أوسلو؛ ولذلك أغلق المعبر، وبالتالي توقف النشاط التجاري واستيراد السلع.

في يونيو / حزيران 2006، اختطفت إسرائيل 60 من قادة حماس السياسيين في الضفة الغربية، بما في ذلك ثمانية وزراء و 20 عضوا منتخبا. لم تكن هناك ردة فعل غربية قوية. في ربيع عام 2007 شكلت حماس وفتح والسياسيون المستقلون حكومة وحدة وطنية لمواجهة الغرب وإسرائيل، وكان الهدف هو رفع المقاطعة الغربية.

حصلت هذه الحكومة على أكثر من 80 في المئة من تأييد الفلسطينيين، لكن إسرائيل رفضت على الفور الاعتراف بهذه الحكومة، كما أن الولايات المتحدة رفضت ذلك أيضا، على الرغم من أن هذه الحكومة نفذت كل الشروط التي كانت مطلوبة من حماس. الاتحاد الأوروبي بدوره كان مترددا، لكنه قرر في حزيران / يونيو عدم دعم الحكومة الائتلافية. كانت النرويج تعتقد أنه يمكن فتح باب تعاون ثنائي مرة أخرى. منذ اتفاقية مكة المكرمة التي تتضمن اعترافا بحدود عام 1967.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بالإضافة إلى روسيا كانت في أوروبا فقط سويسرا وتركيا اللتان شاركتا وجهة نظر النرويج. الانتخابات التي أخذت السلطة من حركة فتح، غيرت موازين القوى في فلسطين. وبعد وقت قصير من الانتخابات في عام 2006 بدأت الولايات المتحدة بتدريب مقاتلي حركة فتح في الولايات المتحدة الأمريكية لسحق حركة حماس، وفي خريف 2006 اندلعت بعض الاشتباكات المتفرقة بين أنصار حركة فتح وأنصار حماس في قطاع غزة. في كانون الثاني 2007، بدأت تزداد المعارك وتتوسع نطاقها. أقلية فقط من سكان قطاع غزة الذين كانوا يشاركون في هذه المعارك، والتي كانت في الواقع صراع بين العشائر، لكن كان لذلك عواقب وخيمة. استمرت المعارك طوال فصل الربيع، وفي بداية شهر حزيران / يونيو 2007 سيطرت حماس كليا على قطاع غزة. امتدت المعارك منذ ديسمبر 2006، مع فترات من الهدنة. حصدت هذه المعارك ما بين 250 و 300 فلسطيني قتلوا في هذه الحرب الأهلية المأساوية. حلّ الرئيس عباس مباشرة حكومة الوحدة الوطنية، وفي 17 يونيو 2007 أنشأ السياسي و الرجل الاقتصادي المستقل سلام فيّاض حكومة موالية لحركة فتح في رام الله، واعترف الاتحاد الأوروبي على الفور بالحكومة الجديدة في رام الله، وأعادت تقديم الدعم المباشر لهذه الحكومة. وكذلك فعلت النرويج الشيء نفسه.

الفلسطينيون الآن لديهم حكومتان: واحدة في الضفة الغربية، ليس لديها غالبية لكنها تحظى بدعم الغرب وموافقته. والثانية في غزة كان لديها الأغلبية لكن من دون اعتراف الغرب بها. بالنسبة لنورواك هذا يعني أن شريكنا الرسمي هو فتحي أبو مغلي وزير الصحة في رام الله.

في الحكومة الائتلافية كانت فتح تملك حقيبة وزارة الصحة، بينما كان باسم نعيم وزيرا للرياضة والشباب. بعد أن سيطرت حماس على قطاع غزة، أصبح باسم نعيم المسؤول عن الخدمات الصحية في قطاع غزة. اختارت نورواك أن تتعاون مع كليهما. في نوفمبر 2007 زرت مرة أخرى قطاع غزة برفقة يون إيفند. كنا أول الأمر في وزارة الصحة وتعرفنا على المنسق الدولي الجديد، أما المنسق السابق، ماجد أبو رمضان، فقد فقد وظيفته، مثل معظم رجال حركة فتح اللذين طردتهم حركة حماس من الإدارات الرسمية، لكنه كان ما يزال رئيسا لبلدية غزة، فلذلك زرناه في مبنى البلدية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قال: إن الوضع ميؤوس منه.

كانت هناك مشاكل في تحويل المال من رام الله إلى غزة، ولم تستطع البلدية أداء بعض الخدمات العامة مثل جمع القمامة. فأصبحت غزة مليئة بالزبالة. كما أنه انتقد صواريخ حماس على إسرائيل، كان يرى أن الهجمات الصاروخية على إسرائيل تزيد الوضع سوءاً. في شباط/فبراير 2008 دارت معارك عنيفة في قطاع غزة، قصفت إسرائيل بعض الأهداف في قطاع غزة، وأطلقت حماس بدورها صواريخ على إسرائيل. في الأول من مارس 2008 دخلت إسرائيل شمال قطاع غزة مع قوات عددها 2000 جندي.

خلال خمسة أيام من عمر عملية "الشتاء الساخن" قتل 107 فلسطينيين وجرح 250 غالبيتهم من المدنيين.27 من القتلى و 60 من الجرحى كانوا من الأطفال. في 19 يونيو اتفقت إسرائيل وحماس على هدنة مدتها ستة أشهر، وعملت حماس كل جهدها للحفاظ على الهدنة.

قبل وقف إطلاق النار كانت المجموعات الفلسطينية تطلق ما بين 150 و 250 صاروخاً على إسرائيل في كل شهر. في الفترة من يوليو إلى أكتوبر 2008 تم إرسال أحد عشر صاروخا من غزة إلى داخل إسرائيل. وفقا لمصادر إسرائيلية، إن خطة عملية "الرصاص المصبوب" كانت موضوعة مسبقا بعد التوقيع على الهدنة. جوهر العملية أن تقصف إسرائيل وتدمر البنية التحتية، وتجتاح قطاع غزة وتشل حركة حماس. في 4 نوفمبر من اليوم نفسه الذي كانت تجرى فيه الانتخابات الرئاسية الأميركية، دخلت القوات الإسرائيلية إلى قطاع غزة بمحاذاة بلدة دير البلح، والتي تعتبر مركز الإدارة لوسط قطاع غزة.

وكان الغرض وفقا للمصادر الإسرائيلية هو تدمير النفق الذي كان سيستعمل من طرف حماس لخطف الجنود الإسرائيليين في محطة حدودية تبعد 250 متراً. قتل ستة أعضاء من حماس في الهجوم، وردت حماس مباشرة بإرسال 35 صاروخاً إلى إسرائيل. طلبت حماس تجديد اتفاقية الهدنة من جديد في شهر نوفمبر، لكنها قوبلت بالرفض من قبل إسرائيل. في صباح 27 ديسمبر 2008 بدأ الهجوم العنيف على غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أهلا بكم في غزة

إيريك فوسا

جلسنا في سيارة الإسعاف في طريقنا من المحطة الحدودية تجاه مصر، واتجهنا شمالا نحو الطريق التي تقود إلى مدينة غزة والتي تبعد نحو 30 كيلومترا. على الرغم من صوت محرك السيارة وجلجلة هيكلها، كنا نسمع صوت محرك يشبه العنين بتردد عالٍ، أو صوت محرك يعمل طوال الوقت.

قال قائد القافلة د. معاوية حسنين من المقعد الأمامي:

- إنها طائرة بدون طيار، إنهم يراقبوننا طوال الوقت. سوف تتعودون عليهم.

نظرت خارجا إلى المناظر الطبيعية. غزة المدينة الوحيدة التي تتمتع بشاطئ رملي طويل وبمساحة قليلة من اليابسة في الداخل. مساحة قطاع غزة هي 360 كيلومتراً مربعاً. تبلغ المسافة من الحدود مع إسرائيل في الشمال وحتى الحدود مع مصر في الجنوب 42 كلم.

تتراوح المسافة من البحر الأبيض المتوسط في الغرب إلى إسرائيل في نطاق الشرق بين ستة إلى اثني عشر كيلومتراً. في هذه المنطقة الصغيرة يعيش حوالي 1.5 مليون نسمة، بمعنى أن أكثر من 4000 شخص يعيشون في كل كيلومتر مربع. يعتبر قطاع غزة من المناطق الأكثر كثافة سكانية في العالم. أغلب سكان غزة من الشباب، 56 بالمئة من السكان تحت سن الثامنة عشر. اللاجئون الذين قدموا إلى غزة بين عامي 1947-1949 هم غالبية السكان في قطاع غزة. ما يقارب مليوناً من سكان غزة مسجلين كلاجئين لدى منظمة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين (الأونروا). هناك ثمانية مخيمات للاجئين المسجلين في قطاع غزة.

معبر رفح هو المعبر الحدودي الوحيد بين مصر وقطاع غزة. في الطرف الشمالي من قطاع غزة يقع معبر إيريز، وهو المعبر الوحيد لتنقل الركاب بين إسرائيل وغزة. على طول الحدود الشرقية لغزة مع إسرائيل يقع معبر كارني

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المخصص لنقل البضائع. في عام 2006، أصبح معبر كيرم شالوم، على الحدود بين إسرائيل ومصر وغزة، مفتوحا لنقل البضائع.

التقطت من نافذة سيارة الاسعاف شاهدنا حجم الدمار الهائل في رفح بعد القصف الاسرائيلي.

طبيعة غزة منبسطة، تكسوها الرمال والكثبان الرملية الممتدة إلى الساحل، تشبه الطبيعة التي مررنا بها في مصر. يمتد الشاطئ الرملي من مصر جنوبا إلى إسرائيل في الشمال. أعلى نقطة في غزة، تدعى أبو عودة، وتعلو 105 أمتار فوق مستوى سطح البحر. مررنا بمساحات صغيرة من الحقول على جانبي الطريق. حوالي ثلث منطقة غزة صالحة للزراعة، وتوجد مياه جوفية تزود مرافق الري. بعد خطة الأمم المتحدة في تقسيم فلسطين في عام 1947، من المفترض أن تكون غزة جزءا عربيا في فلسطين. ولكن بعد الحروب التي اندلعت قبل وبعد إنشاء إسرائيل في عام 1948، تم وضع قطاع غزة تحت السيادة المصرية. بعد حرب الأيام الستة في 1967، احتلت غزة من قبل إسرائيل. من عام 1967 إلى عام 1987، لم يكن هناك أي تخطيط حدودي مادي بين إسرائيل وغزة.

خلال هذه الفترة، أنشأت إسرائيل 21 مستعمرة في قطاع غزة التي كانت تحت الحكم العسكري الإسرائيلي. أصبح الفلسطينيون يفقدون أراضيهم شيئا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فشيئا. صادر حوالي 10.000 مستوطن أكثر من 20 بالمئة من مساحة الأراضي في غزة، وتقاسم أكثر من مليون ونصف فلسطيني بقية الأراضي. على هذه القطعة الصغيرة من الأراضي الزراعية، زرع الفلسطينيون الزهور والفواكه والخضروات التي تصدّر إلى إسرائيل. لم يكن الإنتاج الزراعي غزيرا، ولكنه كان مهما. بعد الانتفاضة ضد إسرائيل التي بدأت في عام 1987، بدأت إسرائيل تزيد من صرامة الرقابة على الحدود. ولكن التجارة بين إسرائيل وغزة استمرت وكان ذلك مهما من الناحية الاقتصادية. حيث أن 70 بالمئة من الطاقة الكهربائية المستهلكة في قطاع غزة كانت تأتي من إسرائيل، فقط 30 بالمئة من الطاقة الكهربائية كانت تصنع في منشآت توليد طاقة الكهرباء الفلسطينية. إلى أن تمت اتفاقية أوسلو وإنشاء السلطة الوطنية الفلسطينية في عام 1993، كانت المستشفيات العامة مثل مستشفى الشفاء تدار من قبل السلطات الإسرائيلية.

ابتداء من عام 1990 زادت حدّة التوتر بين سكان غزة والمستعمرات الإسرائيلية. الكثير من تلك المستوطنات كانت أشبه بالثكنات العسكرية، كانوا يمارسون الزراعة ويستعملون طريقة الري الاصطناعي، السبب الذي جعل وضعية الزراعة في قطاع غزة صعبة. كانت المستوطنات الإسرائيلية في توسع مستمر، فأصبح المزارعون الفلسطينيون يفقدون مناطق زراعية مهمة. في عام 2005، قررت إسرائيل تفكيك المستعمرات في غزة. وفي 17. أغسطس 2005 بدأت عملية إخلاء المستعمرات، وأثناء أسبوع كان كل المحتلين الإسرائيليين خارج غزة. هكذا استعاد الفلسطينيون السيطرة على الأراضي الزراعية والمياه. لكن في نفس الوقت أصبح الدخول والخروج من غزة صعباً للغاية. يوجد أيضا موارد طبيعية أخرى في غزة. وجدت كمية لا بأس بها من الغاز في مياه غزة الإقليمية.

ولكن لا أحد يشهد بوجود ثروات هائلة بمحاذاة هذا الشاطئ الرملي الذي تجاوزناه. على طول الطريق لم تكن هناك حركة مرور كثيرة، كنا نرى فقط بين الحين والآخر عربات تجرها الحمير. هذه العربات مهمة للغاية، حيث تستعمل لنقل السلع، خاصة بعد النقص الحاد للوقود الذي ظهر في السنوات الأخيرة. أصبحت الحمير تظهر بوضوح في شوارع المدينة. المناخ في غزة معتدل، مع هطول قليل للأمطار. في عشية رأس السنة الجديدة لعام 2008 كانت الأشجار والحقول خضراء، وكان الفصل شتوياً في غزة، وكانت درجة الحرارة تنزل إلى

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أقل من عشر درجات خلال النهار، مع احتمالية سقوط المطر. عندما يأتي الصيف تبدأ الحرارة في الارتفاع ويتوقف المطر وتجف الأراضي. ذلك اليوم الأخير من عام 2008 كانت الشمس مشرقة، وكانت درجة الحرارة تتراوح بين 15 و20 درجة مئوية.

كنا في طريقنا إلى مستشفى الشفاء الذي يقع في مدينة غزة. قطاع غزة مقسم إلى خمس مناطق إدارية هي: شمال غزة ومدينة غزة ودير البلح وخان يونس ورفح. يوجد 27 مستشفى في القطاع كله. وزارة الصحة هي المسؤولة عن 13 من المستشفيات العامة والتي تحوي جميعها 1500 سرير. أربعة عشر من هذه المستشفيات تديرها منظمات غير حكومية أو منظمات تطوعية أو مستشفيات خاصة. كل هذه المستشفيات تستوعب 500 سرير. مستشفى الشفاء وهو مستشفى تعليمي يعتبر أكبر وأهم مستشفى في قطاع غزة. في عام 1993، بني مستشفى غزة الأوروبي في خان يونس بجنوب قطاع غزة بالمساعدات الأوروبية. مستشفى غزة الأوروبي هو مستشفى رئيسي لسكان منطقة خان يونس ويوجد فيه ما يقرب من 240 سريرا. وتدير جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني مستشفيين في قطاع غزة، هما مستشفى القدس في وسط مدينة غزة ومستشفى في خان يونس. سبق وأن اشتغلت أنا ومادس في مستشفى القدس.

- انظر، هناك كان مركز للشرطة، قال الممرض الذي يجلس بجواري في سيارة الإسعاف. يوم السبت، قصفت جميع مراكز الشرطة في قطاع غزة. انتشلنا الناس في هذا المبنى، معظمهم قتلوا على الفور.

هتفت مقاطعا:

- لكن مراكز الشرطة هي أهداف مدنية.

أجاب:

- إسرائيل تعتقد أنها أهدافٌ عسكرية.

- كما قصفوا مقر وزارة الداخلية وعدداً من المباني الحكومية والمساجد. سبق لي وأن زرت غزة مرات عدة منذ عام 1987، لكن هذه هي المرة الأولى التي أدخل إليها عن طريق مصر. الطريقة المعتادة بالنسبة للأوروبيين هي عبر معبر ايريز من إسرائيل. تغيرت تلك الحدود كثيرا في

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

السنوات العشرين التي انقضت منذ عبرتها للمرة الأولى. بعد الحرب، في عام 1967 كان الفلسطينيون يستطيعون التنقل الى إسرائيل خلال النهار. بالنسبة للكثيرين منهم كانوا يقومون برحلات يومية للعمل في إسرائيل، السبيل الوحيد لإطعام أسرهم.

إلا أن العمال كانوا يُستغلّون في إسرائيل كأيدٍ عاملة رخيصة، حتى عام 2006 كنا نرى حركة المرور الكثيفة عبر الحدود. في فترة ما بعد الظهر كنا نصادف آلافاً من الفلسطينيين في طريق العودة الى بيوتهم قادمين من ورش البناء أو في المزارع في إسرائيل. الكثير منهم عمل في الأراضي التي كانت يوما ملكا لعائلاتهم منذ 60 عاما.

كان بعضهم يحمل أكياسا بلاستيكية تحتوي على طعام أو ملابس، حصلوا عليها من أرباب العمل الإسرائيليين. في كل صباح عندما يخرجون من قطاع غزة كانت تفتش أجسادهم على الحدود، وتفحص مرة أخرى عندما يعودون في المساء. غالبا ما تختفي الهدايا من أرباب العمل الإسرائيليين في حاوية القمامة في الجانب الإسرائيلي من الحدود. معبر الحدود في ايريز أكثر تطورا من أي وقت مضى منذ 1990، مع مجموعة من أبواب وممرات ضيقة عبر أجهزة الأشعة الضوئية.

من معبر ايرتز الحدودي بين اسرائيل وغزة. النظام المستخدم مبني على طريقة نظام المسالخ في الولايات المتحدة الامريكية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الحراس الذين يراقبون معبر الحدود بالكاميرات، يعطون الأوامر من خلال مكبرات الصوت حول ما يجب فعله. هذا النظام يشبه نظام إدخال الماشية إلى المسلخ. عبر سياج الماشية كان يمر الرجال الفلسطينيون كل يوم من وإلى العمل. في عام 1993، وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية إثر اتفاقية أوسلو، شدّدت إسرائيل الرّقابة على المراكز الحدودية. وأصبح عبور الحدود يأخذ وقتا أطول، وهذا أجبر العمال أن ينطلقوا إلى عملهم في وقت مبكر ليستطيعوا العبور. أرباب الأسر الفلسطينية كانوا يحقّرون ويهانون على نقاط التفتيش كل يوم، وبعض الأوقات يقضون النهار بكامله ليصلوا إلى مقرّ عملهم. منذ صيف 2007 كانت الحدود مقفلة تماما.

في 19 سبتمبر 2007 أعلنت إسرائيل منطقة غزة منطقة معادية، واعتبارا لذلك، خففت إدخال الوقود والطاقة الكهربائية. في يناير 2008 أغلقت إسرائيل تقريبا كل أنواع المرور، وتوقف إدخال الطاقة الكهربائية والوقود تماما. كانت الناس تشتري البنزين المهرب في غالونات عبر الأنفاق من مصر. مجتمع غزة توقف. تقريبا، كل الأعمال العادية توقفت. تجارة التهريب ونظام الأنفاق جعل من بعض الناس أغنياء على كل من جانبي الحدود. لكن الأغلبية أصبحت فقيرة. والفلسطينيون في غزة بدأوا يحسون بالجوع. في 21 يناير 2008 اخترقت حماس السياج الحدودي ودخل آلاف الفلسطينيين عبر الحدود إلى مصر واشتروا الطعام والحيوانات الداجنة. سمحت السلطات المصرية بذلك، لكنها كانت تراقب كيلا تُهرّب الأسلحة. بعد 12 يوماً أقفلت الحدود مجدّدا. الساعة كانت تشير إلى الثانية إلا ربعاً في أول يوم لنا في غزة.

تحدّث مادس الى قائد القافلة والسائق. سبق وأن سافرت مع مادس إلى غزة في عام 2002. هذه السنة أنذرت إسرائيل بهجوم شامل على فلسطين وهاجمت بعض القرى ومخيم جنين للاجئين الفلسطينيين في الضفة الغربية. تعرّضت مدينة غزة لهجوم كبير بطائرات هليكوبتر، وكان في أوراق إسرائيل أنها ستجتاح غزة مرة أخرى.

أرسلت لجنة فلسطين ومنظمة نورواك في حينها فريقاً من الجراحين إلى غزة. ويتألف الفريق من مادس، وأنا، وممرضة العمليات آنا مورسيت، والممرضة فينكي أورثون التي كانت آنذاك رئيسة للجنة فلسطين. وصلنا إلى غزة في مطلع

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نيسان / أبريل 2002. حينها كان الفلسطينيون يبنون المتاريس في شوارع مدينة غزة-السواتر الرملية الضخمة لكي يحاربوا من ورائها ولكي يعيقوا تقدم الدبابات الإسرائيلية. كما أن الناس سمّرت نوافذ بيوتها.

ناقشنا ما يمكن القيام به في حالة الهجوم على غزة. كان الاقتصاد الفلسطيني بعد اتفاقية أوسلو، يعتمد بشكل كامل على الأموال من الدول المانحة في أوروبا وأمريكا وآسيا. وبالتالي كان لمكتب التعاون الدولي دورٌ مهم بالنسبة لوزارة إدارة الشؤون الصحية. بالتعاون مع مسؤول هذا المكتب، الدكتور ماجد أبو رمضان، بالإضافة إلى كونه رئيسا لبلدية غزة، هيأنا وقمنا بإعداد خطط للطوارئ لمدينة غزة.

بما أن القوات الإسرائيلية متفوقة في الجو وعلى الأرض، كان مهما أن نركز على خطط لمساعدة المواطنين الفلسطينيين. كما عملنا بعض الدورات التدريبية لبعض الناس الفلسطنيين العاديين ليصبحوا مسعفين، في حالة تعرض أحد أفراد عائلاتهم إلى إصابة. في عام 2002، كنا نتخوف من الهجوم، لكن لم تكن هناك حالة مجاعة. كما كانت الكهرباء والمياه متوفرة، على الرغم من أن الوضع كان صعبا.

في 2008 كان الوضع مختلفا تماما. النقص في الطاقة الكهربائية والوقود والمواد الغذائية الأساسية جعل الوضع ميؤوسا منه. زرت غزة آخر مرة في أيلول / سبتمبر، خلال شهر رمضان، شهر صيام المسلمين. كانت التجارة في غزة تعتمد اعتمادا كليا على طرق التهريب عبر الأنفاق. في زوايا شوارع غزة تجد أكواما من صفائح البنزين مسعّرة. أصبحت تجارة التهريب جزءا من النظام في غزة، هناك حيث العديد من الأنفاق في رفح، أقامت بعض الناس محلات صغيرة أو أكشاك لبيع المواد الغذائية والأدوات الكهربائية والسجائر مباشرة من النفق. في عام 2008، الساعة الثانية، اتجهنا مرة أخرى إلى مدينة غزة. لم نشاهد أي سيارة. كنا نسير في شوارع المدينة، وبين المباني غير المصبوغة.

تتكون معظم المباني من أربعة أو خمسة طوابق، يتوسطها مبنى أو مبنيان كبيران. باتجاه الشارع تقع المحلات على جانبي الطريق. معظمها كان مقفلا بالأبواب الحديدية الجرارة. عادة تعج الحياة في مدينة غزة. لكن الآن لا يمكن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

للمرء أن يرى مخلوقا واحدا. عرجنا على أحد الشوارع فرأينا طابورا طويلا من النساء والرجال والأطفال الصغار..

- إنهم واقفون في الطابور لشراء الخبز، قال المساعد الأول الذي يجلس بجواري.

- هل هذا طابور الخبز؟ سأل مادس مرعوبا. لم نر هذا في أوروبا لعقود عديدة.

- الناس تقف خارج المخبز لمدة خمس أو ست ساعات، للحصول على الخبز، أوضح الممرض.

طابور من 600 الى 700 فلسطيني يصطفون امام احدى الافران التي لم تقفل بعد في مدينة غزة. ادى الحصار الاسرائيلي إلى نقص حاد في القمح والدقيق والكهرباء.

سرنا عبر المدينة باتجاه بوابة مستشفى الشفاء. على الجانب الآخر من الشارع، مبنى محطم كليا. أصبح مجرد كومة من الإسمنت والقضبان الملتوية والمتراكمة على بعضها.

قال الممرض:

- مسجد البورنو مقابل مستشفى الشفاء تعرض للقصف يوم الأحد.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

دخلنا عبر بوابة المستشفى وتنفسنا الصعداء. كنا نسير في منطقة حرب. كان هناك العديد من الشبان يقفون بجانب البوابة، والرجال والنساء بعضهم جالسٌ وآخرون واقفون أمام مدخل المستشفى. هنا كان أبعد ما يكون عن منطقة قاحلة أومهجورة.

عندما زرت مستشفى الشفاء في غزة قبل ثلاثة أشهر، لم يشعر أحد بوجودنا. الآن اندفع ذلك الحشد الذي كان يقف خارج المستشفى نحونا. بعدئذ قدم الأطباء والممرضون من داخل المستشفى، وتجمهروا من حولنا وسألونا لماذا أتينا؟

قلت لهم، جئنا هنا لنعمل.

- هل أنت هنا من أجل العمل؟ كنا نظن أن الغرب يريدنا أن نموت وحيدين.

كان الكثيرون فقط يحدّقون إلينا وبعضهم يمدون أياديهم للمسنا. كان موقفا سخيفا.

الطريق الذي يؤدي إلى مدخل مستشفى الشفاء ينتهي في دوّار أمام مركز استقبال الطوارئ ومبنى غرف العمليات الجراحية، هناك حيث كانت سيارات الإسعاف توصل المرضى- المصابين. الأقسام الأخرى للمستشفى كانت تقع داخلا. في اليمين مبنى كبير قيد الإنشاء، سيصبح مركز العناية المركزة ومبنى جديد للعمليات الجراحية. بدأ العمل فيه منذ سنتين، لكن لم يكتمل، بسبب الحصار الإسرائيلي وعدم السماح بإدخال مواد البناء إلى قطاع غزة. على اليسار من البوابة يوجد مبنى الإدارة، حيث انتقلت إليه وزارة الصحة مؤقتا بسبب الحرب. صعدنا السلالم ومشينا إلى ممر يؤدي إلى مكتب المدير.. هناك كان يجلس وكيل وزارة الصحة الدكتور حسن خلف، ومدير عام المستشفيات في وزارة الصحة بقطاع غزة، الدكتور محمد كاشف سويا مع الدكتور حسين عاشور مدير مجمع الشفاء. المدير الإداري في مستشفى الشفاء. نهضوا وسلموا علينا.

"قال الدكتور حسن:

- أهلا وسهلا، كنا في انتظاركم.

في قاعة الاجتماعات، ومن خلف الباب الجرار، كان يجلس د. باسم نعيم وزير الصحة، وابتسم عند رؤيتنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- أهلا وسهلا، الدكتور اريك والدكتور مادس. وأخيرا وصلتم. هل صادفتكم مشاكل في الطريق؟

قلت:

- لا أبدا، أحضرنا إلى هنا حسب المتفق عليه.
- هل جلبتم معكم بعض المعدات الطبية؟

أطلعناه على الصندوقين الصغيرين للأدوية التي حملناها معنا، وأخبرناه بأن يون إيفند يعمل على إحضار المزيد.

قال:

- إن أهم شيء هو وجودكما هنا. كيف حال يون إيفند؟

إنه بخير في القاهرة، لكنه يفضل أن يكون هنا.

- يون إيفند سيأتي حتما. إسرائيل قصفت كل قطاع غزة، لكنهم سيخسرون، ولن يستطيعوا السيطرة على قطاع غزة. إنهم سيستمرون في القصف إلى أن يعين الرئيس الجديد للولايات المتحدة الأمريكية. حينها سيتوقفون. هل تريدون أن تشربوا الشاي؟ وأشار وزير الصحة إلى شاب في العشرينيات

استقبلنا الدكتور باسم نعيم وزير الصحة في غزة في مكتبه المؤقت حال وصولنا الى مستشفى الشفاء صباح الحادي والثلاثين من ديسمبر.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وبعد خمس دقائق قدم لنا شايا حلوا بالنعناع وفي أكواب زجاجية صغيرة.
تحدث وزير الصحة بالهاتف المحمول.

في زاوية الغرفة، كنا نشاهد الأخبار في التلفزيزن من قناة الأقصى التي تديرها حماس. كان الدكتور محمد يجلس على مكتبه، وراءه نافذة تطل على الطريق المؤدي إلى المستشفى، من النافذة سمعنا صراخ الناس في الخارج. أشار إلينا أن نأتي إلى النافذة. شاهدنا طابورا من الرجال يخرجون من مبنى غرفة العمليات وكانوا يرددون الشعارات. في البداية ظننا أنها تظاهرة إلى أن ظهر التابوت الذي كانوا يحملونه.

قال الدكتور حسن:

- إنه كان زميلاً لنا. كان في سيارة الإسعاف التي قصفت البارحة. جميع من كان في سيارة الإسعاف لاقوا حتفهم.

دخل رجلان في الخمسينيات إلى المكتب.

- السلام عليكم، أنا الدكتور ناصر أبو شعبان، مدير عام تنمية القوى البشرية.

- وعليكم السلام، أجبت أنا ومادس.

قال الآخر:

- مرحبا، أنا صبحي سكيك، مسؤول أقسام الجراحة. نحن سعيدون بوجودكما معنا في المستشفى.

جلسنا جميعنا حول الطاولة.

قال الدكتور نعيم.

- نريدكما أن تعملا هنا في مستشفى الشفاء. اعتقد أن إريك يمكنه أن يعمل في قسم استقبال الطوارئ أو في قسم العناية الفائقة في غرفة العمليات.

أجبنا:

- حسنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قال د. محمد مقاطعا:

- شيء آخر، أريدكما أن تكتبا تقريرا يوميا عن رأيكما في كيفية إدارة المستشفى، حتى نحسن من أنفسنا.

أضاف الدكتور صبحي.

- نحن نعرفكم منذ وقت طويل وثقتنا بكم كبيرة. وأنتم تعرفوننا فقط من الخارج ونتمنى منكم أن تعطونا أفكارا جديدة لنحسن من عملنا. لكي أكون صادقا نحن متعبون كثيرا. لا يمكنكم أن تتصوروا كيف كان اليوم الأول من الهجوم علينا. لا نعرف إن كانت الخطط التي وضعناها تعمل بشكل سليم.

أجبنا:

- حسنا، يمكننا أن نقدم التقرير، لكن فقط على المستوى العام للعمل.

دخل رجل الى المكتب. قدمه له لنا الدكتور حسن:

-هذا أبو جعفر، يعمل متطوعا في المستشفى وسيكون مسؤولا عنكما طالما أنتم ضيوفنا في المستشفى.

سلمنا بحرارة على بعضنا البعض.

قال أبو جعفر:

- يمكنكما أن تسألوني عن أي شيء وأنا سأحاول جهدي أن أحل كل مشاكلكم.

خرج وعاد بهاتفين محمولين. وقال:.

- الآن لدى كل واحد منكما هاتف محمول محلي. والذي يمكنكما استعماله في غزة، كما يمكننا الاتصال بكما.

بدأ يخيم الظلام عندما خرجنا من مبنى الإدارة بصحبة الدكتور صبحي. على الدرج، استوقفنا شابان فلسطينان يحملان كاميرات التلفزيون وسألا:

- هل أنت الدكتور ايريك؟

أجبت:

- نعم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- نحن نصور لقناة النرويج الثانية (تي في تو)، أخبرونا بأن نجري مقابلة معك. هل هذا ممكن؟

لم أكن مستعدا تماما، واستغرق الأمر بضع ثوان قبل أن أدرك أن التلفزيون النرويجي متفق مع الصحافيين الفلسطينين ورجال التصوير في قطاع غزة.

- أنا في طريقي إلى المستشفى، هل يمكننا أن نجري المقابلة بعد ساعة؟ أجبته سائلا.

قال:

- إذا نلتقي هنا بعد ساعة على هذا الدرج.

تابعنا مسيرنا فإذا بفريق تلفزيون آخر يستوقفنا.

- نحن من قناة الجزيرة. هل يمكننا أن نجري مقابلة معكما؟

- نعم، "قال مادس، هيا بنا.

جهز رجل الكاميرا نفسه، وبدأ مادس المقابلة بشرح سبب قدومنا إلى غزة. كان مبنى الجراحة مربع الشكل ويتألف من أربعة طوابق. سيارة الإسعاف تقف أمام المبنى في دوّار عندما تنزل المرضى إلى مركز استقبال الطوارئ في الطابق الأول.في مركز استقبال الطوارئ يتم تسجيل المرضى. مكتب التسجيل كان عبارة عن غرفة صغيرة ذات نوافذ زجاجية. بعد ذلك، يتم نقل المرضى إلى اليمين من قاعة الاستقبال، حيث يوجد اثنا عشر سريرا للفحص مفصولة عن بعضها بستائر صفراء. في وسط الغرفة طاولة عليها صناديق من الحقن والضمادات والقفازات الطبية ومعدات الحقن. على رف كل نقالة كان يوجد كذلك بعض من الأدوات الطبية. وبين كل نقالة كنا نرى آلة فحص الضغط معلقة على الجدران.

فتشت في تلك الأدوات الطبية المتناثرة على الرفوف، لم أجد مقصا واحدا في تلك الغرفة. تساءلت كيف يقطعون ملابس المرضى عندما يكون الأمر طارئا. مررنا عبر قاعة الفحص في ممر بالطرف الآخر والتي انتهت أمام قاعة جديدة وهي قسم العناية المركزة. كانت هذه القاعة امتدادا للمدخل، وبالتالي، كانت دائما مليئة بالناس.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تم تحضير كميات من القفازات البلاستيكية داخل مركز استقبال الطوارىء، الضمادات وادوات الحقن من ابر وانابيب لادخال وسحب السوائل الى الجسم، في انتظار الموجة المقبلة من الجرحى.

كان باب وحدة العناية المركزة دائما مقفلا، وعلينا أن نضغط على زر حتى نتمكن من الدخول. قسم العناية المركزة مجهز تجهيزا جيدا بأجهزة التنفس الاصطناعي والمراقبة بجانب كل سرير. قسم يتألف من غرفة كبيرة كانت نظيفة ومرتبة، وتبدو عموما كأي غرفة عناية مركزة. المسؤول عن الممرضين كان يجلس على طاولة في وسط الغرفة وكان هناك مكان لعشرة من المرضى. أربعة أو خمسة ممرضين يجولون بين أسرة المرضى.

في زاوية من زوايا الغرفة كانت هناك غرفة من الجدران النقالة الخفيفة. وهنا يمكن للمرء أن يعزل المرضى الذين لديهم التهابات معدية. قسم للأشعة السينية وثلاثة مختبرات للأشعة وجهاز (سي تي) في الطابق السفلي. في الطابق الأول كان هناك مركزان لتجبير وتقويم العظام. تستوعب الغرف الأصغر شخصين، وكان هناك غرف كبيرة تتسع لثمانية أسرّة. كل من رئيس عيادة الجراحة، والدكتور صبحي، ورئيس قسم العظام، والدكتور نبيل الشوا، كانت مكاتبهم في الطابق الثاني.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

خرج الدكتور نبيل من مكتبه. ابتسم عندما رآنا. كان مادس يعرفه من قبل. تبادلا التحية.

قال مادس لاريك:

- الدكتور نبيل هو المسؤول الطبي عن قسم الأطراف الاصطناعية في بلدية غزة. إنها مؤسسة لا تقدر بثمن الآن بعد كل هذه الاصابات التي أغلبها تنتهي بالبتر.

في الطابق الثالث، قسم العمليات الذي يتألف من ست غرف، يأتي إليه المرضى عبر المصعد. مباشرة فوق المصعد كانت منطقة تستعمل لمراقبة المرضى أو للشروع في تخديرهم.

الآن، وضعوا مصابيح العمليات الكبيرة وأجهزة المراقبة هنا بحيث يمكن إجراء العمليات الجراحية عندما تكون غرف العمليات مشغولة.

قسم ما بعد الجراحة، يتألف من ستة أسِّرة، ويقع في آخر قسم العمليات. هناك أيضا معدات حديثة للمراقبة وأجهزة التنفس وممرضون ذوو خبرة. في الطابق الرابع، قسم جراحة الأطفال وقسم للجراحة العامة، جناح واحد لكل منهما. في واحدة من تلك الأسرة كان شاب في العشرينيات يحمل كاميرا التصوير التلفزيونية في يديه. رجلاه الاثنتان كانتا مبتورتين إلى ما فوق الركبتين. عندما دخلنا إلى الغرفة أخذ الكاميرا وبدأ بتصويرنا. كان طالبا ويعمل مصوراً حراً لإحدى قنوات التلفزيون المحلية عندما أصيب بصاروخ اسرائيلي قطع رجليه الاثنتين.

زملاؤه من المحطة التلفزيونية أحضروا له الكاميرا. الآن، يعمل روبورتاجات من سريره ويصور الخارج من النافذة.

- يجب علينا توثيق كل ما يحدث. هذا أهم شيء. قالها مبتسما بشجاعة. رجلاه المقطوعتان لم تكونا لتعيقانه عن أداء عمله.

معظم النوافذ،في قسم الجراحة التي تواجه البوابة الرئيسية، كانت تفتقر إلى الزجاج، وكانت الغرف باردة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اجراء عمليتين جراحيتين في نفس الوقت في غرفة عمليات واحدة.

أوضح الدكتور صبحي أن زجاج النوافذ تحطم عندما قصفت إسرائيل المسجد المواجه للمستشفى في الطرف الآخر من الشارع يوم الأحد. يشكل البرد خطرا على المرضى المصابين والذين ينزفون، لأن قدرة الدم على التخثر تنخفض. عدنا الى مبنى الإدارة مع الدكتور صبحي. في الخارج يقفت فريق التلفزيون النرويجي (تي في تو) أخبرتهم عن الوضع في المستشفى. داخل مبنى الإدارة، التقينا أبا جعفر الذي كان المسؤول عن تأمين السكن لنا.

- فكّرنا في توفير سكن لكم هنا في المستشفى.

نظرنا أنا ومادس إلى بعضنا.

- نحن نفضل عدم البقاء في المستشفى. سيكون من الصعب علينا أن نرتاح، حيث إن هناك الكثير من الضوضاء والكثير من الذين يرغبون في لقائنا.

سألت:

- هل يمكننا أن نقيم في مارنا هاوس؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مارنا هاوس فندق صغير ومعروف، يقع بالقرب من مستشفى الشفاء في غزة. ألقى أبو جعفر نظرة سريعة على الدكتور حسن، الذي قال إنه يمكننا أن نقيم في مارنا هاوس، إذا كان هذا ما نريده. سندبر سيارة.

أسرعت موضحا بدقة:

- لكن يمكننا المشي. مارنا هاوس يبعد عن بوابة المستشفى أقل من مئة متر.

قال الدكتور حسن:

إن الذهاب بالسيارة أكثر أمانا.

تبادلت نظرة أنا ومادس. على كل الأحوال مارنا هاوس ربما ليست فكرة جيدة.

قطعنا تلك المئة من الأمتار بالسيارة إلى الفندق. كانت الحديقة مظلمة وساكنة.

أجاب الرجل في مكتب الاستعلامات بتهذيب:

- لا نقبل نزلاء.

بعد بضع دقائق وصل المدير وقال مباشرة.

- لا أستطيع تأجير الغرف.

- لا توجد نوافذ في الغرف، كما أنني لا يمكنني ضمان سلامتكم ولا ممتلكاتكم.

سألنا:

ماذا حدث؟

- قصفت اسرائيل المنزل المجاور، وجميع النوافذ في الفندق تحطمت. يمكنكما رؤية ذلك بنفسيكما.

رافقنا إلى الطابق العلوي، وأطلعنا على غرفة. لم يكن هناك زجاج في بعض النوافذ.

- ليست مشكلة بالنسبة لنا إن لم يكن هناك زجاج بالنوافذ.

قال:

- لا، ولكن لا أريد نزلاء هنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كان واضحا جدا أنه لا يريدنا هناك. بعد ذلك، اعتقدت أن السبب له علاقة بمجيئنا مع مرسالنا، والذي ربما كان ممثل حماس. ربما كان يعتقد أن مادس وأنا يمكن أن نكون ذريعة لإسرائيل لأن تقصف الفندق. انتهى الأمر بشكرنا له على مساعدته ورجعنا إلى الشفاء. كان لدى مادس اتفاق (للقاء على الهواء مع تلفزيون الأناركو النرويجي لنشرة الأخبار الرئيسية). وأجريت معه المقابلة في الشارع على مسافة من المستشفى. كان الأمر غير مريح بسبب عدم وجود أشخاص آخرين هناك، وتلك المصابيح الكهربائية القوية التي تخترق ظلام الليل بشدة. أعتقد أننا كنا هدفا مغريا لطائرة بدون طيار وللصواريخ الذكية. كانت آخر مرة نجري فيها مقابلة خارج منطقة المستشفى. لم يلاحظ أبو جعفر ذلك الإخفاق التام في مارنا هاوس، وأكد بأن لديهم مكانا آمنا وجميلا بالنسبة لنا، يقع بعيدا شيئا ما عن بناية العمليات الجراحية. عرّجنا بالسيارة إلى اليمين عن طريق البوابة الرئيسية وتابعنا الطريق نزولا إلى بناية بيضاء هي في الوقت نفسه فرع للطب الباطني. بعد ذلك لجأنا مرة أخرى إلى اليمين وصولا إلى زاوية من منطقة المستشفى.

كانت وحدةً للجراحين المداومين في النهار. كان في البيت كل شيء نحتاجه: مطبخ ودورة مياه واحدة وأربع غرف، ثلاثة منها مع أسرة. في غرفة واحدة تعيش مجموعة من الأطباء العرب الذين كانوا هناك لفترة من الوقت. عرض علينا غرفة فيها سريران وتلفاز فوق كل سرير.

قال مادس مع بصيص في عينه:

- جيد مع تلفاز، هذا لم يكن متوفرا في مارنا هاوس.

أجبت:

- إنهم يهتمون بزبائنهم.

- تبدو وكأنك ستصاب بنوبة قلبية في أي لحظة، وسوف تحتاج لواحد.

- تحدث عن نفسك، قالها مادس بابتسامة عريضة.

وجاء صاحبنا وفي يديه المناشف وبيجامات زرقاء فاتحة اللون عليها الشعار الفلسطيني ومطبوع على صدرها وزارة الصحة. كما حصل كل منا على معطف طبي أبيض. لقد كانت ليلة عيد ميلاد طويلة منذ أن استيقظنا في فندق "سويس

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إن" في العريش. الآن استرخينا في أسرّتنا. الساعة الحادية عشر طرق أحد الباب. وقال:

- الآن يلقي هنية خطبة رأس السنة على التلفزيون.

ذهبنا عند الآخرين لنشاهد خطاب رأس السنة لإسماعيل هنية زعيم حركة حماس في غزة. لم نفهم الكثير، فقط رسالة واحدة كانت واضحة إن من المهم للفلسطينيين أن يتوحدوا.

- نحن الفلسطينيون لدينا مشكلة واحدة، وهي إسرائيل.

بعد الخطاب ذهبت أنا و مادس إلى الغرفة. فجأة دوى انفجار واهتز كل المبنى. سمعنا هدير الطائرات من فوقنا. الطائرات دون طيار كانت تحوم من فوقنا.

قلت:

كل عام وأنت بخير..

قال مادس:

- الآن أصبح هنا مفرقعات نارية هذا العام أيضا، ومع ذراع تحكم مجاني.

نمنا على ضوضاء آلة الحرب الإسرائيلية، وكنا على اقتناع أننا في المكان المناسب وفي الوقت المناسب.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إنها تمطر موتا

إيريك فوسا

خبط الباب بعنف، واستيقظت فجأة. كان أول أيام السنة الميلادية الجديدة. كان مادس يقف هناك بكامل ملابسه.

- لقد قصفوا هذه الليلة بشكل فظيع.

أتذكر أنني استيقظت مرات عدة من صوت القذائف. في وقت لاحق، قيل لنا إن إسرائيل قصفت مبنى البرلمان في ساعات الصباح. في الغرفة المجاورة، كانت هناك مراتب على الأرض للجلوس، والفطور موزع في الصحون على سجادة في وسط الغرفة. الوجبة تتألف من بيض مسلوق وطماطم وخيار وصحن من الفول ومعجون مصنوع من الحبوب، وخبز عربي يقدّم مع كل وجبات الطعام.

ما يقارب اليوم كله كنا نسمع هدير الطائرات من غير طيار وهي تحوم فوقنا من غير انقطاع. صوت محرك الطائرات يعلو وينخفض حسب انخفاضها أو انعراجها. كان الصوت مزعجا، استغرقنا وقتا طويلا حتى تعودنا عليه. دخل علينا المراسل وقال بأنه يجب علينا أن نغير غرفتنا. في الجهة الأخرى من المدخل هناك غرفة أكبر مع دورة مياه خاصة.

نعم، أفضل بكثير، قال مادس وأبدى إعجابه بالمغسلة الصغيرة والسريرين مع الملاءات والبطانيات الصوفية.

- هنا أيضا شاشة مراقبة فوق كل سرير. رائع لكبار السن مثلنا.

سأل مادس:

- أين تريد أن تنام؟

قلت:

- تحت النافذة، وفكرت بقطع الزجاج التي يمكن أن تتطاير داخل الغرفة في حال قصف الإسرائيليون بالقرب من هنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عرض على مادس السرير الذي عند الباب.

- قبل كل شيء علينا أن نضحي بسجادة، نضعها أمام النافذة لتحمينا من شظايا الزجاج المتكسّر . بدأ يخرج الأدوات التي كانت بحوزته واستلقى على السرير. أخرج "مصباح الرأس الصغير وقال إن هذا لا يثمّن عندما تنقطع الكهرباء..

-إنني أعرف ذلك، لكنني ليس لي مصباح مثلك. قلتها بشيء من الحسد.

لا تقلق. لقد أخذت معي اثنين. كما تعرف، نحن دكاترة التخدير معوّدون دائما أن ننتبه إلى الجراحين. "قالها مادس بشيء من النشوة"

بعدها أخرج السماعة الطبية التي علقها حول عنقه، وبعض الزجاجات الصغيرة التي تحتوي على مواد التخدير.

قلت له:

- هل عندك بالصدفة بعض المقصات؟

كلانا عنده معرفة أن من المهم أن يكون لدى الطبيب مقص عندما يريد فحص أو معالجة المرضى في الحالات الطارئة؛ فمن الصعب تجريد المصابين فاقدي الوعي من ملابسهم، وأسهل طريقة هي قطع أو قص الملابس حتى نتمكن من علاج الجريح بسرعة

قال مادس:

سوف نطلب من أبي جعفر أن يشتري لنا مقصات.

بعد ذلك ذهبنا إلى مركز استقبال الطوارئ بجانب الحائط الشمالي من المستشفى. خارج الجدار يمكننا سماع خليط من الأصوات: السيارات وصوت الطائرات من غير طيار وصوت انفجار القنابل. في مراكز استقبال الطوارئ هناك العديد من الأطباء.

- مرحبا بالأطباء!

تقدم نحونا فلسطيني في الأربعينيات من عمره يرتدي ملابس العمليات الخضراء. صاح مادس وابتسامة عريضة على وجهه:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- أهلا بعصام، صديقي القديم.

عصام أبو عجوة جراح عام. عمل لمدة سنة في السويد ويتكلم السويدية. يعرفه مادس جيدا من خلال سنوات عديدة من التعاون. سرّ عصام وانفرجت سريرته. ذهبنا إلى قسم التجبير، هناك قدّم الدكتور عصام سيجارة حسب التقاليد الفلسطينية. مادس الذي لا يدخن عادة، أخذ السيجارة ووقفنا جنبا الى جنب قرب النافذة، حيث يمكننا أن نرى بوابة المستشفى ومسجد الشفاء المدمر.

سأل عصام:

- كيف حالك دكتور إيريك؟

سُمع دوي انفجار، وصوت الهليوكوبتر كان واضحا، وكأنها على وشك أن تقوم بهجوم في مكان ما من حولنا. في الساعة الحادية عشرة والنصف بدأت سيارات الإسعاف تتدفق إلى المستشفى. ركضنا إلى مركز استقبال الطوارئ. وصل ما بين ستة و سبعة مصابين في الوقت نفسه، معظمهم كانوا من الأطفال. في غرفة الطوارئ كان هناك طفل في الرابعة عشرة من عمره مصاب بجروح على كل من جانبي مؤخرة الرأس. عدد من الأطباء والممرضين كانوا يسعفونه. شظية اخترقت رأسه بالعرض وخرجت من الجهة الأخرى، مسببة له أضراراً جسيمة في الدماغ، لكن الصبي كان على قيد الحياة.

وضع طبيب التخدير الفلسطيني أنبوباً بلاستيكيا في القصبة الهوائية وأوصله ببالون بلاستيكي يتوسع ليساعده على التنفس. وضع الممرض إبرة في كل وريد بساعديه. حدث كل شيء بسرعة مذهلة. وذلك يعني أن لهم خبرة طويلة. وضع الصبي على حمالة وسيق إلى غرفة العمليات، حيث أجرى جراحو الأعصاب له عملية، و رافقهم مادس. الصبي بقي على قيد الحياة. عدت الى مركز استقبال الطوارئ. الدكتور عوض أبو حسان كان المسؤول المناوب. كان ذا كفاءة ويملك السيطرة على العاملين تحت إمرته.

كان يعطي الأوامر ويأخذ القرارات بسرعة وبطريقة تلقائية. كل من الدكتور عوض والدكتور عصام كانا من الأطباء المديرين الشباب في المستشفى، الذين كانوا يركضون بين غرف الطوارئ وغرف العمليات بالتناوب و بكفاءة مثيرة للإعجاب. لديهم مجموعة من الأطباء المساعدين الذين يتلقون الأوامر منهم،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ومن فوقهم طبقة من كبار الأطباء الذين يأخذون القرارات في غرفة العمليات، ويساعدون إذا كانت هناك عمليات جراحية صعبة. كانوا يخرجون للزيارات ويقررون ما إذا كان المرضى يجب إخلاؤهم. أصبحت واحدا من هؤلاء الأطباء المسؤولين المسنين.

لقاء ودي مع اعز الزملاء في مستشفى الشفاء. من اليسار: الدكتور صبحي سكيك، الدكتور عوض أبو حسان والدكتور مادس والدكتور عصام ابو عجوة.

على إحدى الحمالات كان هناك طفل في الخامسة من العمر بجروح في ساقه، وعلى حمالة أخرى فتاتان صغيرتان مصابتان بشظايا في الرأس. الطفلة الصغيرة كانت تبلغ من العمر فقط ثمانية أشهر، والثانية كان عمرها سنتين أو ثلاث سنوات. كانت أمهما بصحبتهما حائرة تبكي، ولكن رغم ذلك كانت هادئة وتتحدث بصوت منخفض. سألتها:

- أخبريني ماذا حدث؟

- أجابت:

اطلقت طائرات الهليكوبتر صاروخا على أحد المنازل في الحي. خرج الأطفال من المنزل لرؤية ما حدث. ثم أرسلوا صاروخا آخر. ثلاثة من أطفالي اصيبوا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بجراح خطيرة مع ثلاثة عشر طفلاً كانوا يلعبون في هذا الشارع. وهذا تفسير سبب هذا العدد الكبير من الأطفال الذين يأتون في وقت واحد. الأطفال الثلاثة الذين جاؤوا مع والدتهم، أرسلوا جميعا إلى قسم العمليات.

وبعد دقائق معدودة توقفت سيارة إسعاف خارجا. جاء رجال الإسعاف مهرولين إلى داخل المستشفى وهم يحملون شابا على نقالة. الأقرباء يصرخون بصوت مرتفع. الشاب مصاب بجروح صغيرة في الجانب الأيمن من الصدر، إلا أنه كان يبدو غير مبال ويتنفس وهو مستيقظ تماما.

حاولت أن أجد آلة قياس ضغط الدم. ما إن وجدت واحدة حتى كان أحد الأطباء قد وجد أنبوبا من البلاستيك الذي يتم وضعه في تجويف الصدر والرئتين، عندما تكون رئة المصاب تسرب الهواء أو الدم بتجويف الصدر. بدون أي شكل ما من أشكال التخدير، أحدث فجوة بين الضلعين وأدخل الأنبوب. لم أكن أعتقد أن هذا الأمر ممكنا. هذا مؤلم للغاية أن تدخل شيئا وسط تجويف الصدر من دون تخدير. لكن ذلك حدث بسرعة مذهلة بحيث لم يعطِ الوقت للمصاب للقيام بردة فعل. هذه إحدى الوقائع التي كنا شهودا عليها، وهي إحدى المشاكل التي تظهر الطريقة التي يتعامل بها الأطباء الفلسطينيون مع المصابين.

الزيارة التفقدية للاطباء للقسم الجراحي في الاول من يناير 2009. من اليسار الدكتور حامد، الدكتور ايريك ورئيس القسم الجراحي الدكتور ناصر، الدكتور رامي، والدكتور سكيك.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يتدفق الجرحى بعد الهجمات الاسرائيلية على مركز استقبال الطوارىء بعضهم ياتي بسيارات الاسعاف والبعض الاخر في سيارات شخصية او حتى مشيا على الاقدام.

لقد تعودوا على العديد من الإصابات، حيث تكون الحاجة الملحة لبدء العلاج، غالبا يكون من الصعب على الطبيب إجراء فحص شامل. لكن لو وضعوا السماعة على صدره وقاسوا ضغط الدم عنده مرات عدة لوجدوا أن المصاب كان في حالة مستقرة، لذلك كان لديهم الوقت لإجراء صورة الأشعة السينية، وعلى أغلب الأحوال عندهم الوقت لوضع البنج الموضعي، وتهدئة الوضع.

بعد أن أدخل الأنبوب البلاستيكي، قادوا المصاب بأقصى سرعة إلى غرفة العمليات من دون أن يأخذوا قياس ضغط الدم. لم يخرج لا دم ولا هواء من الأنبوب البلاستيكي. في غرفة العمليات أخذت للمصاب صورة الأشعة، واظهرت الصورة بأنه لا يوجد أي ضرر في الرئة. كل الجروح في الصدر كانت سطحية. كما أن الأنبوب كان موضوعا في مكان منخفض من الصدر بحيث كان قريبا من المعدة، تحت الحجاب الحاجز وليس في تجويف الصدر. في الواقع، كان لديه إصابة صغيرة جدا، ولكن بسبب ذلك الأنبوب الذي أدخل في معدته، يستوجب مراقبته يوما كاملا لتجنب إصابة تجويف البطن.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أظهر هذا الوضع كذلك قصوري كجراح أجنبي. على الرغم من أنني متخصص في إصابات قفص الصدر، كانت هذه الإجراءات قد تم التدريب عليها حيث كان من الصعب على الأطباء تغييرها في حالة الطوارئ. تعلم الأطباء الفلسطينيون عبر سنوات طويلة من إصابات الحرب أن التعامل البطيء أمر مميت للمصابين الذين ينزفون؛ من المهم أن تأخذ القرار السريع وتبدأ العمل. المشكلة في مستشفى الشفاء هو أن الفرص المتاحة لإجراء تشخيص سريع ودقيق قبل بدء العلاج، كانت محدودة. أية حركة في مركز استقبال الطوارئ، مهما كانت صغيرة، تجعل أبسط الفحوصات صعبا. وقسم الأشعة كان يقع في الطابق الأسفل، لذلك كان أخذ تصوير دقيق للأشعة يأخذ الكثير من الوقت، ولهذا السبب لم تكن تُجرى هكذا فحوصات، و أن بعض المصابين يتم المبالغة في علاجهم أو يعالجون بطريقة خاطئة.

قدم إلى المستشفى ذلك اليوم أربعون مصابا على مجموعات صغيرة. لم تكن هناك مشاكل كبيرة لإلغاء العمليات. في فترة ما بعد الظهر ذهبنا لزيارة مراكز الجراحة العامة مع الدكتور صبحي والدكتور ناصر. في معظم غرف المستشفيات هناك مكان لثلاثة أسرّة. بين الأسرّة يوجد ستار. دخلنا إلى إحدى الغرف. بالقرب من النافذة كان شاب يستلقي على سرير ويعاني من جروح متعددة في ساقيه، كانت الجروح عمرها أيام وبدأت تتماثل إلى الشفاء.

- لاحظت أنه جاهز في وقت قريب لزرع الجلد. وراء إحدى الستائر كان شاب في العشرينيات، يظهر عليه بوضوح أنه محاربٌ، فقد يده اليسرى في إحدى المعارك منذ عامين. الآن ساقه اليمنى بترت، لكنه رغم ذلك كان يبتسم، وقال إنه فخور لتقديم بعض أطرافه في الحرب ضد إسرائيل. واصلنا زيارتنا من غرفة إلى غرفة. لم أر أي سرير واحد شاغر في قسم الجراحة العامة. بمجرد أن خرجنا من إحدى غرف المرضى صادفنا فريق تصوير تلفزيوني هناك. كانوا فلسطينيين يقومون بعمل لقناة الاي بي سي الأميركية. لقد اجروا مقابلة معي ومع مادس.

قلت: نحن في قمة الحاجة إلى المساعدة، ومن المهم أن يأتي مساعدون من كل أنحاء العالم ويدخلوا غزة الآن.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سأل الصحافي:

- ما هي المشكلة في رأيك؟

- إن الحدود مغلقة بإحكام، ولا تدخل المساعدات اللازمة للمدنيين. إنهم يحتاجون إلى الغذاء والوقود. وفي المستشفيات الحاجة إلى المساعدة الطبية أمرٌ ملحٌ دوماً. يجب على المجتمع الدولي أن يضغط لكي تفتح الحدود.

شاب فلسطيني يعاني من اصابات كبيرة من الشظايا. تتطلب مثل هذه الاصابات الكثير من العناية مثل ازالة الأنسجة الميتة والتنظيف لاكثر من مرة باليوم.

خارج المستشفى أجريتُ مرةً أخرى مقابلة مع صحفيين فلسطينيين يعملون للتلفزيون النرويجي،القناة الثانية (التي في تو) والتلفزيون الفرنسي، سألوا السؤال نفسه. تأثير وسائل الاعلام بدأ يتغلغل في داخلي، خاصة أهمية الصحافة الغربية التي لم تكن موجودة؛ فبدأت أفهم أن عليّ أنا ومادس واجباً أكثر من كوننا أطباء، علينا ان نكون مبلّغين. لكنها كانت مهمة لم نكن مهيئين لها. خلال فترة بعد الظهر والمساء من السنة الجديدة، كان هناك نشاط كثيف للمروحيات الإسرائيلية والطائرات بدون طيار. ذهبنا إلى مكتب المدير لنقدم له تقريراً عن رأينا بطريقة العمل. نقلنا له إعجابنا بمجهود الموظفين، لكن أشرنا له

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إلى أن هناك نقصاً في المعدات لفحص المرضى. ومشكل آخر هو أقارب المصابين الذين يأتون عادة مع الجرحى، كانوا يصعّبون علينا عملية الفحص والعلاج في مركز استقبال الطوارئ.

ذهبنا إلى وزير الصحة الذي كان يجلس في غرفة الاجتماعات المجاورة. أخبرنا بأن القصف ما زال مستمرا وأن عدداً قليلاً من مقاتلي حماس لاقوا حتفهم. حين جلسنا هناك، وصلت رسالة مفادها أن القائد المعروف نزار ريان البالغ من العمر 49 عاماً استشهد.

بالمقارنة مع معظم قيادات حماس كان ريان يحمل درجة الدكتوراه في التاريخ الديني، وكان صلة وصل بين كتائب عز الدين القسام وقيادة حماس. كان لريان شعبية كبيرة بين الناس، وخصوصا على موقفه في رفض مغادرة منزله. من وقت لآخر كانت قيادة حماس كلها مهددة من قبل إسرائيل، كما أن الاسرائليين كانوا يسقطون نشرات مفادها أنهم سيفجرون منازل الناس العاديين. طلب ريان إلى الناس أن يفعلوا مثله، أن يمكثوا في منازلهم ولا يغادرون. الآن، دفع الثمن؛ قصفت إسرائيل منزله.فضلا عن ريان، زوجاته الأربعة، وأطفاله التسعة لقوا مصرعهم.

صعدنا إلى قسم العمليات، في غرفة الاستراحة كانت أريكة وكراسي من الجلد المريحة للأطباء يسترخون عليها. رجل في الخمسينيات قدم نفسه على أنه الدكتور أحمد قنديل، رئيس قسم الجراحة. أطلعنا الدكتور أحمد على مقال كان قد كتبه في المجلة" المصرية الساينتيفيك مديكل جورنال عن الإصابات الحربية بمنطقة البطن. كان التقرير نتيجة معالجة 264 مصاباً بطلقات أو شظايا في منطقة البطن، والذين تم علاجهم بين فترة 2000 إلى 2003. أظهرت المقالة أن مستشفى الشفاء كان مستشفى أكاديمياً، لكن أيضا إصابات الحرب كانت تعتبر شيئاًعادياً في قطاع غزة. الأعمال الحربية في عام 2009 كانت فقط آخر حلقة من سلسلة طويلة من الهجمات.

ليس هناك الكثير من الجراحين الذين عالجوا 264 حالة إصابة حرب في منطقة البطن. ربما كان الدكتور أحمد وزملاؤه في مستشفى الشفاء من أكثر الجراحين خبرة في جراحات إصابات الحرب في العالم. مستشفى الشفاء هو

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المسؤول عن أحدث الخدمات الطبية المتقدمة في قطاع غزة، والمستشفى عادة هو المسؤول الأول عن إصابات الحرب في غزة. منذ بداية الانتفاضة الأولى عام 1987، ومستشفى الشفاء يتلقى الآلاف من المرضى والمصابين العاديين، فضلاً عن إصابات الحرب الخطيرة؛ لذلك يملك خبرة واسعة عند الأزمات، وخبرةً بالتعامل مع الإصابات الكثيرة. بما أن كل قسم يتألف من مبان منفصلة، فإن مستشفى الشفاء يمتد على مساحة كبيرة نسبيا، لذلك كان تحدياً أن نبني مبنى كبيراً يجمع أكثر من قسم.

بما أن الفروع المختلفة على تنوعها، كلّ منها في مبنى خاص، ومنتشرة على مساحة كبيرة؛ فقد كان تحدياً كبيراً بناء خدمات جدّ متطورة، لاحظنا ذلك التحدي في المباني المنتشرة. عندما تكون الأسرّة في مبنى الجراحة مليئة، كان علينا أن ننقل الأسرّة إلى قسم الطب الداخلي الذي يقع في مبنى آخر. وهذا يعني أن الأطباء مضطرون أن يركضوا بين مبان عدة لمتابعة مرضاهم، وفي الوقت نفسه عليهم استقبال ورعاية المرضى الجُدد. في تلك الأيام الأولى، لم نلاحظ نقصا في المكان. لكن كان هناك نقصٌ حادٌ في الأدوية التي تخصّ حالة الطوارئ. في مصر يعمل يون إيفند بجهد للحصول على الأدوية التي سألنا عنها وزارة الصحة قبل ذهابنا إلى غزة. في يوم الجمعة 2 كانون الثاني / يناير، اتصل هاتفيا من القاهرة وقال إنه يخطط لإنشاء مكتب تنسيق في فندق "سويس إن" في منطقة العريش.

خصصت لنا السفارة النرويجية سيارة مع سائق، وسكرتيرة السفارة انرش فيثا، ستكون هنا طالما أننا في غزة. لذلك وضع يون إيفند خطوط الإجلاء للخروج من غزة. ذلك الصباح كان يحاول إرسال حوالي 40 كلغم من الأدوات الطبية إلى قطاع غزة. المشرف جهز الفطور لمادس ولي على حمالة كانت في مدخل البيت الذي كنا نقيم فيه. في الليل كان ينام على الحمالة، والآن أصبحت مائدة لتناول الطعام. ربما فعل ذلك لأنه يريدنا أن نتجنب الجلوس على الأرض ونأكل على سجادة الصوف كما يفعل الآخرون.

وجبة الإفطار تتكون مرة أخرى من صحن الفول والطماطم، والخيار والزيتون والفلفل، والبيض المسلوق وربطة من الخبز العربي.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- رائع، قال مادس، أنا أحب المطبخ الفلسطيني.

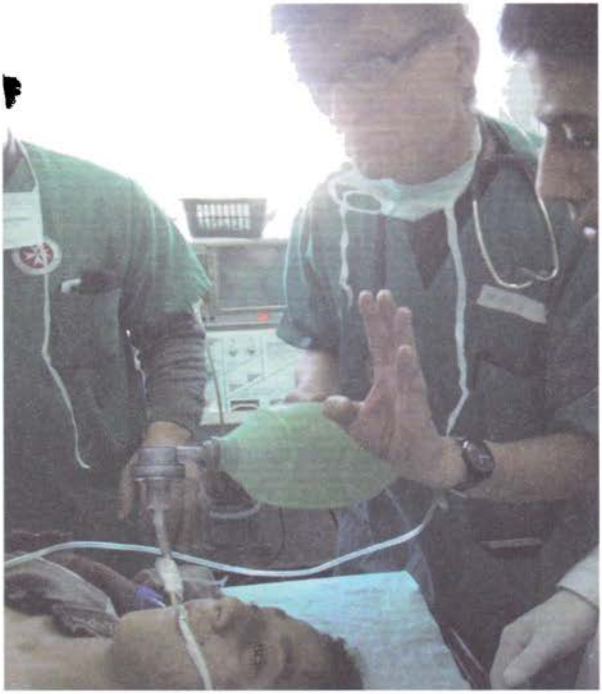

استقبال حالات محمومة: شاب فلسطيني مصاب بشظايا ويعاني من جروح خطيرة كان قد تم ادخال انبوبة بلاستيكة لضمان بقاء المجاري الهوائية مفتوحة، ويتم تمكينه من التنفس عبر حقيبة التنفس الصناعي.

أمسك بيضة بكل يد وبدأ يلوح بهما، فتحت الخبز وحشوت بداخله بيضة وفلفلا وطماطم وخيارا وأكلته مثل الساندويتش. رائع. كنت مضطرا للتحدث مع مدير المستشفى في غزة، الدكتور محمد الكاشف، لترتيب كيفية الحصول على الأدوية في حال وفقّ يون إيفند في إدخالها عبر الحدود. خارج مبنى الإدارة كانت هناك سقالة أمام المبنى. سألت العمال ماذا يفعلون.

قال أحد العمال:

- إنها لصلاة الجمعة..

نسيت أنه كان يوم جمعة. منذ تعرض المسجد عبر الشارع للقصف يوم الأحد الماضي، انتقلوا للصلاة في ساحة السيارات بمستشفى الشفاء. هناك نصبوا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سقالة ونشروا قماشا مشمعا أزرق اللون من فوق. وغطوا الأرض بالسجادات حتى يتمكنوا من أداء الصلاة. الدكتور محمد الكاشف كان يجلس في مكتبه.

قال:

- سنرسل اليوم بعض سيارات الإسعاف مع المرضى الى مصر عبر معبر رفح، عندما يتم ينقل المرضى إلى سيارات الإسعاف المصرية، يمكنكم أن ترجعوا معكم الأدوية. بدا متوتراً شيئا ما، كما أنني لم أكن متأكدا بأنه فهم عليّ ما طلبت منه. هناك الكثير من العمل مرتبط بنقل المرضى إلى مصر، كان عليه أن ينسّق مع الصليب الأحمر الدولي ومع مستشفى العريش في مصر. كما أن كثيراً من المرضى الذين سيتم إرسالهم، كانوا في حالة سيئة للغاية.

معظم الأدوية التي كنا في انتظارها من العقاقير التي كنا نستخدمها للتخدير، وكنت خائفا أن تقع في أيادٍ غير أمينة. لكن لم يكن بوسعي القيام بأكثر مما قمت به. في مركز استقبال الطوارئ كان مادس مشغولا بإدخال أنبوب إلى المجاري الهوائية لصبي أصيب بشظايا عديدة، وجروح كثيرة في ساقه اليمنى، وشرخ عميق مباشرة خلف الورك الأيمن، وجرح بالرأس حيث دخلت شظية في الدماغ. ثبّت مادس أنبوبا بضمادة، كما كان معتادا في مستشفى الشفاء، ونقل الصبي إلى غرفة العمليات. سيارة الإسعاف تتوقف بشكل فجائي أمام باب المستشفى، ينزل منها المسعفون مهرولين بمريض جديد، صبي صغير يخرج الدم من خلال ملابسه، مصاب بجروح عدة صغيرة في الجانب الأيمن من البطن.

كان مصاباً أيضا بجرح لا ينزف في ذراعه الأيمن، مباشرة تحت الكوع. نقل أول الأمر إلى غرفة الطوارئ، حيث أعطيت له بعض المسكنات، وضع احد من المرضين إبرتين في وريد كلتا ذراعيه. كان ضغط الدم طبيعيا، لكن في مركز استقبال الطوارئ لم يجازفوا. أرسلوه على الفور إلى قسم العمليات لأنهم لم يستطيعوا أيقاف النزيف في تجويف البطن. رافقته إلى غرفة العمليات، حيث الدكتور أحمد قنديل كان واقفا، ولم يكن لديّ شكٌ في خبرة الدكتور أحمد. نظر إلى الجروح في المعدة واستعمل مقصا ليقطع الأطراف الزائدة في الجروح. لم تكن الجروح عميقة عند تجويف البطن. أظهرت صورة الفحص بالموجات ما فوق الصوتية عدم وجود الدم في تجويف البطن. كان الطفل مصابا بجروح سطحية

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فقط؛ لذلك لم نكن بحاجة لإرساله إلى غرفة العمليات. لو منحناه مزيدا من الوقت في غرفة الطوارئ لعرفنا وضعه بشكل أوضح.

المشكلة مرة أخرى أنه كان من الصعب التمييز بين المرضى الذين كانت حالتهم مستقرة، مع ضغط دم طبيعي وتنفس طبيعي، وأولئك الذين كانت حالتهم غير مستقرة وينزفون. وهذا بسبب الوضع الذي يتغير طوال الوقت، وكثير من الناس يهرولون داخل وخارج مركز استقبال الطوارئ. كنت في طريقي خارج قسم العمليات مرة أخرى، رأيت مادس قادما من باب المصعد مع طفل على نقالة، يبلغ من العمر اثني عشر عاما. كان من الواضح أن هذا الصبي يعاني من جروح بليغة، ومادس واجه صعوبة في الحفاظ على توازن ضغط الدم عنده، مع أن الطفل حصل على السوائل الوريدية في ذراعيه. رفعنا عنه اللحاف الذي كان من فوقه. ساقاه كانتا مبتورتين. كانت هناك علامات للسخام وحروق في كعب رجليه. لم تكن رجلاه تنزفان، وهذا مؤشر على أن الأنسجة المتبقية ميتة كلها. نظرت إلى جيب خصيته، كان ممزقا، وإحدى الخصيتين كانت مكشوفة.

أحمد 12 سنة. كان في حالة جد خطيرة عندما جيئ به الى مستشفى الشفاء. كانت قدماه والاطراف من الجزء الاسفل من جسمه مبتورة على الارجح من قنبلة الدايم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أدرناه على جنبه لنقيّم الإصابات التي في ظهره. رأيت أن كل فتحة الشرج اختفت ومعظم العضلات على النصف الأيسر من المؤخرة أيضا اختفت، كان الجلد متشققاً، وبدا الأمر وكأن العضلات قطعت بسكين. في الجزء الأسفل كانت مئات من الجروح الصغيرة على شكل نقط،، لم أر قطّ في حياتي ذلك النوع من الإصابة. من المؤكد أن هذا سلاح جديد.

أنا و الدكتور أحمد نظرنا إلى بعضنا البعض، وبما أن الصبي كان يعاني من انخفاض ضغط الدم من المؤكد أنه ينزف من داخل تجويف البطن، وبما أن الإصابة كانت بليغة، أمل الحياة كان ضعيفا جدا. ورغم ذلك طلبنا من المرضين أن يجهزوا المعدات لفتح البطن؛ حتى نتمكن من إيقاف النزيف المحتمل في الداخل، في حين كان مادس وفريق التخدير يحاولون إسعافه عن طريق التنفس الاصطناعي.

همس مادس في أذني:

- هل تعرف من هو هذا؟

- لا.

- هذا ابن شقيق الدكتور عصام، الجرّاح الذي يتكلم السويدية. يجب علينا الاستمرار حتى يأتي الدكتور عصام ليلقي عليه نظرة الوداع.

ناقشت أنا ومادس قنابل (الدايم) وهي مواد متفجرة تستعمل فيما يسمى القنابل الماسية الصغيرة. هذه القنابل خفيفة الوزن ويمكن للطائرات الصغيرة حملها. الطائرات من غير طيار التي تعدّ إسرائيل واحدةً من الدول الأولى في تطويرها تحمل بسهولة مثل هذه القنابل. ولكي تكون القنابل خفيفة فهي مصنّعة من الألياف الزجاجية (الفيبر جلاس)؛ لذلك فإن جسمها الخارجي ليس معدنيا ولا يرسل شظايا كثيرة عند الانفجار كبقية القنابل. في المقابل للقنبلة أجنحة و نظام ملاحي متطور جداً يتألف من (جي بي إس) نظام تحديد المكان، وكاميرات الفيديو بحيث يتمكّن الطيار من التحكم بالقنبلة وتوجيهها مباشرة إلى الهدف. هذه القنابل يمكن أن تكون مخصصة لاختراق الدروع أو لقتل عدد كبير من الناس.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تكنولوجية (الدايم) طورت خصيصا لقتل أو لإصابة مجموعة من الناس في منطقة محصورة من غير أن تصيب أضرارا مادية أو أشخاصا خارج نطاق الانفجار. يتحقق ذلك بأن القنبلة مصنوعة من مواد شديدة الانفجار، ومن جزيئات صغيرة من التنغستين. عندما تنفجر القنبلة يذوب التنغستين ويصاب الضحية بغيمة من غبار مادة التنغستين الذي يمزق الأنسجة إلى قطع ويحرق الجسد. تطلق القنبلة على الأرض بالقرب من الضحية، وتأتي موجة الضغط من أسفل. الناس الذين يكونون بالقرب من موقع الانفجار، يتمزّقون إلى أجزاء، والناس البعيدون شيئا ما يتلقون إصابات في الرجلين والجزء السفلي من الجسم. أثبتت التجربة على الحيوانات أن مادة التنغستين تسبب سرطان العضلات؛ لذلك فقد قيل إن المرضى الذين ينجون من قنابل (الدايم) معرضين للإصابة بسرطان العضلات لاحقا.

كان هناك حديث عن أن إسرائيل استخدمت مثل هذا النوع من القنابل خلال الهجوم على لبنان في صيف عام 2006. كنت هناك بضعة أسابيع أثناء الحرب. وتحدثت مع بعض الأطباء الذين عالجوا مثل هذه الحالات، لكنني لم أر مثل هذه الحالات بنفسي. الآن أعيش هذه الحالة.

قدم المشرف علينا الساعة الواحدة، وقال بأن هناك سيارة إسعاف في انتظارنا لنقوم بجولة في غزة. سألت الدكتور باسم نعيم إن كان من الممكن أن نزور مناطق أخرى من غزة، حين التقيت به اليوم الأول من زيارتي. لكن مادس سبق وتحدث مع رئيس بلدية غزة السابق السيد ماجد أبو رمضان الذي حذرنا من مغادرة المستشفى لأن الاسرائيليين كانوا يطلقون النار على سيارات الإسعاف. لم يكن واضحا حجم المجازفة؛ لذلك اتفقنا على عدم مغادرة مستشفى الشفاء.

لو كنا صحافيين لكانت فرصة ذهبية لكي نرى بأم أعيننا ماذا يجري في المناطق التي تُقصف. لكن كنا فقط فريق جراحين أرسل إلى مستشفى الشفاء للعمل هناك. بإمكاننا إجراء بعض المقابلات لنخبر عن الوضع في المستشفى، لكن الصحافة لم تكن مهمتنا. التقرير كان مقتصرا فقط على عملنا كأطباء، وهذا الذي اتفقنا عليه. بينما كنت أجلس في غرفة استراحة الجراحين في قسم العمليات، دخلت امرأتان فرنسيتان ورجل فلسطيني:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مرحبا، نحن من منظمة أطباء بلا حدود

سألتهم:

- هل أنتم أطباء؟

أجابوا:

لا، نحن منسقو العمل للمنظمة.

واحدة من الفرنسيات والفلسطيني، كان مركزهم غزة. والأخرى كانت مسؤولة عن منطقة الشرق الأوسط، وعادة ما تتواجد خارج فلسطين.

سألتهم: لماذا لا يوجد فريق طبي من منظمة أطباء بلا حدود؟. أجابوا بأنهم أعتقدوا أنه لا حاجة لإرسال هكذا فريق. لكن الآن أعدنا النظر في الوضع وندرس إمكانية إرسال فريق من الجراحين. لذلك جئنا لزيارة مستشفى الشفاء. كان من الواضح أنهم يعانون من مشكلة تجنيد المتطوعين. بدأت أشك في أنه ليس فقط الحصار الإسرائيلي هو الذي

كانت عملية انعاش الطفل احمد يائسة. ربط المرضون يدي ابن الثانية عشر من عمره مثلما يحصل مع الاشخاص على فراش الموت وفقا للشريعة الاسلامية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يعيق دخول رجال الإغاثة إلى غزة، بل أيضا رفض الدول الغربية التعامل مع إدارة حماس في غزة هو الذي أعاق المنظمات الإنسانية الكبرى. كان من الصعب أيضا تجنيد فريق الإغاثة في وسط عطلة عيد الميلاد في أوروبا.

- آمل أن تستطيعوا إرسال فريق جراحي لأننا بحاجة للمزيد من الجراحين الأوروبيين هنا في مستشفى الشفاء.

الدكتور عصام يعاين واحداً من العديد من الجرحى الاطفال الذين قدموا الى مستشفى الشفاء. افراد عائلة الطفل يتابعون قلقين. كان هناك نقص حاد للحمالات والأسرة نتيجة الحصار.

بعد أن ذهبوا، قمت بجولة في قسم العمليات. كان المكان هادئا، نزلت إلى مركز استقبال الطوارئ، حيث كان هناك مادس مع قليل من المرضى. قال مادس:

- هيا بنا نزور الدكتور نبيل. هل تذكره؟ إنه مسؤول عن قسم تجبير العظام.

ذهبنا إلى الدكتور نبيل لنزوره في مكتبه المتواضع في الطابق الأول. العديد من جراحي العظام كانوا موجودين، وكان الجو جيدا. شربنا الشاي وتجاذبنا أطراف الحديث. في مساء ذلك اليوم، ذهبنا لاجتماعنا اليومي مع إدارة المستشفى. الدكتور صبحي يجلس في مكتبه.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قال الدكتور محمد:

- نحن قلقون من حصول إصابات عديدة مثل التي حدثت يوم السبت 27 ديسمبر/ كانون الأول.

قلت:

- يبدو لي أن الأمور تسير معكم كما يجب. لكنني أفهم أن الوضع قد يكون مختلفا في حالة قدوم عدد كبير من المصابين في آن واحد.

قال الدكتور صبحي:

- إيريك، لم تكن لدينا السيطرة على الوضع ذلك السبت.
- أنا قلق من أن شيئا مماثلاً قد يحدث مرة أخرى.

في يوم السبت 27 ديسمبر كان الدكتور صبحي طيلة اليوم في مركز استقبال الطوارئ، محاولا انتقاء المصابين وتوزيعهم على الأقسام المختلفة في المستشفى. لكن كانت هناك فوضى عارمة، بسبب أقارب المصابين.

ناقشنا هذا قليلا، وتبين لنا بأنه لا توجد منطقة مخصصة للإصابات الطفيفة ولأقارب المصابين. معظم المصابين كانوا إما في مركز استقبال الطوارئ أوقسم العمليات، وبما أن أقارب المصابين يرفضون ترك مرضاهم، أصبحت الأقسام مليئة بسرعة. كان ذوو المصابين يملأون مركز استقبال الطوارئ أو على الدرج خارج قسم العمليات. وبما أنه لم تجرِ معاينة دقيقة للمصابين في مركز استقبال الطوارئ، كانوا يرسلون المصابين بإصابات كبيرة مباشرة إلى غرفة العمليات، مما تسبب بملء مدخل غرفة العمليات بالجرحى، بعضهم مات على مدخل غرفة العمليات.

سأل الدكتور صبحي: إيريك، قد سبق وأن أجريت محاضرة حول تنظيم العمل في حال وقوع إصابات كثيرة في وقت واحد. هل يمكنك أن تعيد هذه المحاضرة غداً؟

قلت:

- بكل تأكيد. لكن يجب أن تقودوا هذا الاجتماع، يجب أن نبني قاعدة على تجاربكم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اتفقنا على أن يكون الاجتماع في مبنى الإدارة، الساعة الحادية عشرة في اليوم التالي. عندما وصلنا الى المبنى كان وزير الصحة هناك يريد أن يتناقش معنا بشأن بعض الحالات الخاصة التي شهدناها. أخبره مادس بأنه سبق وأن رأى مثل هذه الإصابات في قطاع غزة، في عامي 2006 و 2008، وأنه قد جمع بعض المعلومات عن أسلحة الدايم. ألقى محاضرة عن سلاح الدايم ومحتوى هذه القنابل. كنت أفكر في ذلك الصبي الذي توفي، وبالمصابين ذوي الجروح الخطيرة. أصبح الأمر واضحا لي، بأن ما رأيناه ما هو إلا بداية. حجم ذلك الهجوم بدأ يوضح لي بأنه ليس هناك رحمة في غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

من سيعيش

إيريك فوسا

عندما استيقظت صباح يوم السبت 3 كانون الثاني / يناير، كان مادس مستيقظا.

قال:

– تنام نوماً ثقيلا على الرغم من أن المنزل كان كله يهتز.

أجبته:

– لم لا؟ من المهم أن يحصل الإنسان على الراحة التامة. المهم هو النوم عندما تتاح لنا الفرصة.

شاهد مادس الأنباء وقال:

– كانت هناك مظاهرات في الضفة الغربية وقطاع غزة.

– تحدثت أيضا مع الصحافيين النرويجيين في إسرائيل. يحاولون الدخول إلى غزة، لكن لا توجد أية طريقة لذلك حاليا.

هيأ المشرف الإفطار، لم نلاحظ بعد نقصاً في الطعام. كانت الشمس مشرقة في الخارج، لكن الطائرات بدون طيار وطائرات الهليكوبتر مازالت تحوم. الصوت يأتي ويذهب. طائراتٌ بدون طيار كانت هناك طوال الوقت، لكن صوت الهليكوبتر كان متنوعا. فجأة سمعنا ستةً انفجارات في تتابع سريع، وبعد ثوان تلتها ستة انفجارات أخرى. كنت قد سمعت هذا النوع من الطلقات من قبل في لبنان، كانت بارجة هي التي تطلق الصواريخ. أولا سُمع صوت قرقعة عندما أطلقت الصواريخ، بعدها سمعنا صوت سقوط الصواريخ.

ذهبنا إلى مركز استقبال الطوارئ في الساعة التاسعة، وتبادلنا أطراف الحديث مع الأطباء وطلاب الطب. في ساعات دوام النهار كان هناك العديد من طالبات الطب من جامعة الأزهر. مادس كان يدرّس هناك في خريف عام 2008،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

و يعرف بعضهن. في قطاع غزة، هناك جامعتان توفران التعليم لمستوى مرحلة الماجستير:

الجامعة الإسلامية في غزة التي أنشئت في عام 1978، وجامعة الأزهر في غزة التي تتعاون مع جامعة الأزهر في مصر. إلى الآن تخرجت ست مجموعات من الأطباء من جامعة الأزهر. الجامعتان أيضا تعدّان رمزا للصراع بين حركتي فتح وحماس. العديد من القادة السياسيين لحماس وفتح في غزة يدرسون في هاتين الجامعتين، جماعة فتح في جامعة الأزهر وجماعة حماس في الجامعة الإسلامية.

في المعارك بين فتح وحماس في ربيع عام 2007، اقتحمت الجامعة الإسلامية من قبل عناصر فتح، لأنهم يعتقدون أن حماس تخبئ الأسلحة في مباني الجامعة. أما في جامعة الأزهر، عام 2008 فقد حصلت مواجهات عديدة بين طلاب الكتلة الاسلامية وكتلة فتح. في 14 أكتوبر كسر طلاب الكتلة الإسلامية المكاتب ومزقوا صور ياسر عرفات احتجاجا على طرد اثني عشر طالبا إسلاميا إثر أعمال شغب في وقت سابق. وهددوا أيضا المسؤولين في عدد من الكلّيات، واحتلّوا الجامعة قبل أن يطردوا من قبل الشرطة.

الفلسطينيون لديهم مستوى عال في التعليم. العديد من العائلات تعيش على نفقات أحد أفراد الأسرة من ذوي التعليم العالي الذين يعملون خارج فلسطين، ويرسلون النقود إلى عائلاتهم. لكن في السنوات الأخيرة لم يكن من السهل الحصول على التعليم. الحصار على غزة أثر كثيرا على المدارس، وبالفعل، في ربيع عام 2008، ذكرت اليونيسيف في تقريرها أن المدارس تفتقر إلى الكهرباء والتدفئة. التعليم كان متقطعا، والعديد من الطلاب تركوا المدارس. كثير من الفلسطينيين يدرسون في الخارج، تحديدا في مصر والأردن، ولكن أيضا في أوروبا والبلدان العربية الأخرى.

عندما أغلقت إسرائيل الحدود في يونيو / حزيران 2007، فقد المئات من الغزاويين فرصة مواصلة دراستهم. في 29 ديسمبر 2008 قصفت الطائرات الإسرائيلية مبنى المختبرات في الجامعة الإسلامية، وزعمت إسرائيل بأن المختبرات كانت تستخدم لانتاج القنابل. أنهينا الحديث مع الطلاب. في مكتب

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الدكتور محمد الكاشف مدير شؤون المستشفيات بمديرية الصحة كنا في انتظار كبير الأطباء صبحي سكيك بجانب قسم الجراحة، بينما كان في انتظارنا الدكتور ناصر أبو شعبان رئيس قسم الموارد البشرية. كانوا قد وجّهوا الدعوة لكل كبار الأطباء في العيادة الجراحية خلال فترة المساء والصباح.

ناقشت مع مادس الكيفية التي سنطرح فيها الموضوعات في الاجتماع. مع أن مستشفى الشفاء كان قد سبق وأن مرّ بحالة إصابات عديدة في الوقت نفسه، لكن تجربة 27 كانون الأول / ديسمبر اليوم الأول من الحرب كانت حالة خاصة. منذ أن انهار نظام التسجيل، لم يعد أحد يعرف العدد الذي تلقوه، ومن أجريت له عمليات جراحية. قتل على الأقل 250 شخصا، وأصيب أكثر من ألف بجراح ذلك اليوم. مئات تعرضوا لإصابات خطيرة. في الأيام الأولى بعد الهجوم تدفق عدد من المرضى إلى المستشفى،في الحقيقة لم يكن هذا تحديا كبيرا لمستشفى كمستشفى الشفاء. إدارة المستشفى كانت تعتبر ذلك الهدوء الذي يسبق

اب مع ابنتيه المصابتين اصابات خفيفة ينتظر قلقا في غرفة الانتظار في مستشفى الشفاء. كان معظم المصابين من الاطفال وصغار السن الذين يعانون من سوء التغذية. النافذة في الخلف كانت محطمة جراء القصف.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

العاصفة. ستأتي حالات جديدة مع الكثير من الإصابات التي تشبه اليوم الأول. اختتم الاجتماع بأن يتهيأ المستشفى لهجوم إسرائيلي كبير. سبق وأن درّسنا مرات عدة جراحة إصابات الحرب و التعامل مع إصابات كثيرة دفعة واحدة في غزة. كنت قلقا هذه المرة إن كان بوسعنا أن نعلّمهم شيئا. معظم أطباء التخدير والجراحين كانوا أكثر خبرة منا.

قال الدكتور صبحي: نعم، لكننا نعرف أيضا أن لديكم خبرة، والجميع في المستشفى يريدون أن يستمعوا إليكم لأنهم يثقون بكم ولأنكم أتيتم من الخارج.

اتفقنا على أن ندير مناقشة بحيث لا نتحدث كثيرا. رافقنا الدكتور صبحي إلى قاعة المحاضرات المتواضعة. كل من الدكتور ناصر والدكتور صبحي قام بإلقاء مقدمته، ورحبوا بي وبمادس. بعد ذلك أخذت الكلمة. بدأت بإخبارهم قليلا عن شخصيتنا وعن مشروع نورواك في غزة. الكثيرون دهشوا عندما سمعوا أننا كنا نعمل في المجال الصحي مع الفلسطينيين حين كانوا أطفالا. مادس هو طبيب التخدير ومسؤول قسم الطوارئ في المستشفى الجامعي في شمال النرويج.

عملت لسنوات مع الإصابات في مستشفى الأوليفوول، وكمدرب خمس عشرة سنة في جراحة الحرب في الخدمة الطبية للقوات المسلحة، ومتخصص في جراحة القلب والرئة. نحن الاثنان على حد سواء لدينا خبرة من العمل كأطباء في مناطق الحرب في جميع أنحاء العالم. وقفزنا مباشرة إلى الموضوع : من الذي يجب علينا أن نساعد وكيف يمكن أن نقرر من الذي يجب مساعدته عند ضيق الوقت وقلة الموارد؟ عندما يأتي العديد من المرضى في آن واحد، يجب أن يعالج المرضى حسب الترتيب الصحيح. بدأت تكرار المبادئ لإعطاء الأولوية للمصابين في حالة وجود إصابات عديدة، هذا الذي نطلق عليه بالمصطلح العلمي (ترياج) وهي تحديد أوليات المرضى استنادا إلى خطورة حالتهم. في حالات الإصابات العديدة التي تأتي في الوقت نفسه، يكون من المستحيل معالجة الجميع. لذلك من المهم استخدام الموارد على أولئك الذين يمكن إنقاذهم. يبدو هذا فظيعا، لكن الأمر هكذا. حين كنت أتحدث كتبت الفئات الأربعة التي يمكن أن نصنّف المرضى فيها، عندما نتعامل مع الإصابات العديدة في آن واحد

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

1- مستعجل.

2- يستطيع الانتظار.

3- يجب أن ينتظر.

4- نتريث لعلاجهم (يحتضرون).

حوالي 60 في المئة من المصابين الذين يأتون إلى المستشفى بعد القصف الإسرائيلي، عادة ما تكون إصاباتهم خفيفة ولا تحتاج للكثير من العلاج. يمكن أن تكون الأضرار جروح سطحية عدة من جراء الشظايا. هذا النوع من الإصابات في حد ذاته لا يهدد الحياة، ولكنه مؤلم، ويجب تنظيف الجروح للوقاية من الالتهابات. حتى ولو كانت الإصابة لا تشكل أية خطورة، يكون المصابون في حالة خوف ويحتاجون إلى الرعاية، ولا سيما الأطفال. كما يجب أيضا إعلام وطمأنة ذوي المصاب. من المهم أن نميز ذوي الإصابات الخفيفة وتأمين إخراجهم بسرعة من مركز استقبال الطوارئ حتى لا يأخذوا مساحة في حين يحصلون على الرعاية التي يحتاجون إليها.

ويعد هؤلاء المرضى هم من الفئة 3، ومحظوظون. اقترحنا أنه من الأفضل أن نخفّف على مركز استقبال الطوارئ من هؤلاء المصابين ونمررهم مباشرة إلى منطقة مخصصة لذوي الإصابات الخفيفة.

بعض المرضى في حالة سيئة بسبب النزيف الكبير الذي لا نملك القدرة على إيقافه. في حال أتى هؤلاء المرضى في يوم لا يوجد فيه الكثير من المرضى الآخرين، سوف تستخدم المستشفى جميع الموارد لإنقاذهم. لكن إذا كان في المستشفى عدد كبير من المرضى يحتاجون إلى عمليات جراحية، من المهم أن نتجاوز أولئك الذين هم في حالة سيئة وحظهم قليل في العيش، ومن المهم ألا نستعمل عليهم كثيرا من الموارد. لا نحتاج إلى خيال كبير لنفهم أنه من الصعب جدا أن نقرر أن المصاب بجروح خطيرة يحتضر ولا يتلقى العلاج.

هؤلاء المرضى من الفئة 4، وغير محظوظين. في زمن السلم لا نستخدم هذا التصنيف، لأننا نحاول أن ننقذ الجميع. من الصعب على الأطباء أن يتغاضوا عن هذه الفئة. لذلك من المهم التحضير عند زيارة مواقع الحرب أو انتظار الحرب.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عندما نُخرِجُ المصابين بجروح طفيفة، والذين لا نستطيع تقديم الكثير لهم، يعتنى بهم في قسم الإصابات الخفيفة. تبقى المجموعة التي تحتاج إلى عمليات جـراحيـة، وهنا أيضـا، يجب على الأطبـاء أن يعطوا الأولوية . بعض المرضى يحتاجون إلى عمليات جراحية على الفور لكي ينجوا، و الآخرون باستطاعتهم الانتظار.

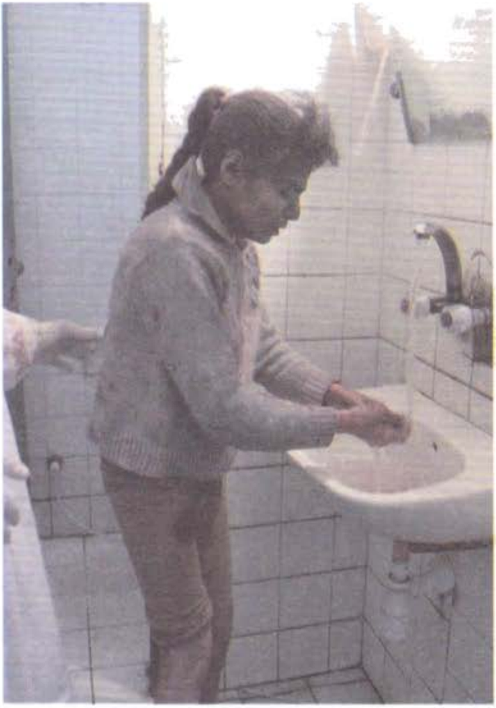

احدى المصابات من مجموعة "المحظوظين". كانت الفتاة مغطاة بالغبار اثر تعرض منزلها للقصف، وكانت تعاني من بعض الجروح الطفيفة التي لا تهدد حياتها.

تحديد الأولويات أمـر ضـروري عندمـا تكون الموارد قليلة، في حين كـان ذلك صعبـا القيام به في حالة من الفوضى، حيث توجد هناك فرص قليلة لفحص المرضى بطريقة جيدة. العديد من الأطبـاء قالوا إن ذلك كـان مشكلة في اليوم الأول من الهجوم. لم يكن هناك مكان لجميع المرضى، وبالتالي، كان الكثير منهم في غرفة الطوارئ. هناك الكثير من المرضى وأسرهم، الشيء الذي يجعل العمل شبه مستحيل. في مركز استقبال الطوارئ، كان هناك دائما طبيب من ذوي الخبرة يتولى المسؤولية لوضع أولويات للمرضى ويقرر من الذي يجب أن يرسل

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إلى غرفة العمليات. هذا الطبيب كان الآمر على الأطباء الأخرين والممرضين والمتطوعين الذين هم في استقبال الطوارئ.

الدكتور صبحي، الذي قاد عملية الفرز ذلك السبت، أخبرنا بأنه فقد زمام الأمور. ركز على فصل من هم مصابون بإصابات خفيفة وإخراجهم من المستشفى في أسرع وقت ممكن. وأرسل الآخرين إلى غرفة العمليات - لم يفصل أحدا من المصابين بإصابات خطيرة والذين لم نكن نملك موارد لإنقاذهم-. هذه الأولوية الحاسمة كانت في ممر قسم العمليات، وكان من الواضح أن الاختيار كان صعبا للغاية. الدكتور قنديل كبير الأطباء والمسؤول عن قسم الجراحة المعوية، هو الذي كانت له الكلمة الأخيرة. في مدخل قسم العمليات كان هو المسؤول عن تحديد الأولويات. المشكلة كانت في عدم وجود الموارد للعمليات الجراحية. كانت هناك فقط ست غرف للعمليات وتنقصها الكثير من المعدات الطبية.

قال:

- لو كانت لدينا المعدات الكافية، لكان باستطاعتنا معالجة الجميع.
- من الصعب تقرير أن أحدا لا ينبغي أن يحصل على العلاج عندما يكون على مدخل غرفة العمليات.

لزيادة طاقة إنتاج أقوى في غرف العمليات الستة، بدأ الأطباء في إجراء العمليات لمريضين في كل غرفة. كما أنهم يجرون العمليات في الممر، وهي منطقة مخصصة في الواقع لمراقبة المرضى. أجريت العمليات للمرضى على نقالات تحت ضوء مصابيح العمليات المتنقلة.

الدكتور حامد أبو عبيد، أحد أطباء الأعصاب، علق فورا بأن من الواضح أنه لا يمكن أن تجرى العمليات لكل الجرحى. لم تكن هناك طريقة أخرى غير هذا الاختيار الصعب. مهما كانت المعدات متوفرة. كما أنه يعتقد أنه من المستحيل زيادة القدرة التشغيلية في المدى القصير، وأيده في كلامه الدكتور ناصر أبو شعبان.

لم يكن هناك مناطق أخرى في المستشفى يمكن أن تستخدم كمكان للعمليات بطريقة معقولة، لذلك يجب عليهم أن يكتفوا بالمنطقة التي لديهم. ربما الشيء

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الوحيد الذي يمكن فعله على المدى القصير، هو أن نحصل على أجهزة التخدير ومصابيح للعمليات النقالة. لكن لا أحد يعلم من أين يمكن الحصول على هذه المعدات. منذ فترة طويلة ونورواك تحاول أن تتدارك النقص في معدات التخدير وأجهزة التنفس الاصطناعي وأجهزة المراقبة في مستشفى الشفاء.

في أوائل خريف 2008 اشترينا معدات، لكن إسرائيل لا تريد تمريرها عبر الحدود. هذه المعدات كان ينبغي أن تكون هنا الآن.

كانت هنالك مشكلة أخرى، وهي ذوو المصابين الذين يريدون أن يكونوا بجانب مرضاهم، يقفون في الممر والسلالم خارج قسم الجراحة. ناقشنا إمكانية وجود مناطق خاصة لذوي المصابين بحيث يمكنهم الانتظار هناك. إن من الشائع، في حالات الكوارث، تصنيف ذوي المصابين إلى مجموعات بالطريقة نفسها التي نصنف فيها المرضى.

من الناحية المثالية، يجب أن يكون ذوو المصابين، الذين هم في حالة احتضار، إلى جانب المريض. أولئك الذين ينتظرون مرضاهم في غرفة العمليات يجب أن يكون لهم مكان خاص للانتظار. وعائلات المصابين بإصابات خفيفة من الأجدر أن يكونوا في مكان آخر. ربما يمكن استخدام المنطقة المحيطة حول غرفة الطوارئ على نحو أفضل. عدد من الأطباء أخذوا الكلمة والحديث أصبح أكثر صخبا. كان من الواضح أن جميعهم عاشوا الوضع في اليوم الأول من الهجوم الإسرائيلي الذي كان يحمل طابعا خاصا ويحتاج الحديث عنه. ويعيقهم الحديث باللغة الإنجليزية، في نهاية المطاف تحولت المناقشة إلى اللغة العربية، وأخذت طابعا من الحدة. غادرنا الاجتماع، ووقفنا خارج المستشفى لفترة من الوقت. حينها مرت طائرة من طراز إف 16 فوق رؤوسنا ورمت شيئا. الذين كانوا يقفون هناك، أخبرونا بأن تلك هي منشورات باللغة العربية تحث المواطنين على مغادرة منازلهم. وهذا معناه أن قصفا مدمرا سيطال مدينة غزة يلوح في الأفق.

في الثالثة والنصف بعد الظهر كنا في استقبال الطوارئ. هناك التقينا مجموعة من الأطباء، الذين كانوا معنا في الاجتماع، منهمكين في إعادة ترتيب الطابق الأول من مبنى المستشفى. كانت المجموعة برئاسة الدكتور صبحي. قال لي بأنهم سيحاولون في تلك اللحظة القيام بالتحسينات التي ناقشناها. في

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

غضون ساعة واحدة وضعوا ثماني نقالات في قاعة خارج وحدة العناية المركزة. كان المقصود أنه في ذلك المكان ينبغي معالجة الإصابات الطفيفة التي ليست بحاجة لإدخالها لغرفة العمليات.

قلت:

- ما هذه الفعالية في العمل! شيء مدهش حقا.

في هذه الأوقات العصيبة، كان الطريق قصيرا من القول إلى الفعل. كنا فخورين جدا بما شاركنا فيه، وشعرنا أن الأطباء في المستشفى لديهم ثقة فينا. مستشفى الشفاء منظم بطريقة مشابهة جدا للمستشفيات الجامعية الأخرى في أوروبا، على الرغم من أنه صغير، ويحتوي على ما يقرب من 500 سرير. العديد من الاطباء تلقوا تعليمهم في بلدان عربية وأوروبا والولايات المتحدة. خبرتنا بالكاد أضافت شيئا جديدا إليهم، ولذلك كان من المهم أن نكون متواضعين وأن نكون جاهزين لأداء أي شيء يطلب منا. كان ايجابياً أننا قد عملنا ودرّسنا هنا من قبل.

لذلك طلب منا الدكتور محمد والدكتور صبحي أن نقدم تقريرا يوميا لهم، واقتراح التحسينات المطلوبة. شعرنا بأننا كلفنا بمهمة من الصعب حلّها. يستغرق الأمر وقتا طويلا للنظر في الروتينيات المتبعة، وسيكولوجية التعامل مع ذوي المصابين. على الرغم من أننا عملنا في غزة سابقا، إلا أننا نعرف حدود ثقافتنا عن المنطقة. لكن الدكتور محمد والدكتور صبحي أصرا على أن تعليقاتنا كانت مهمة. شعرنا بنوع من الاحترام، حسب ما فهمناه أنه نداء للمساعدة في حالة ميؤوس منها. في نهاية المطاف أصبحنا نحن في هذا الوضع الصعب الذي كانوا يعيشونه. حينها أدركنا الحالة الصعبة التي كان يمر بها الموظفون. لا يمكننا أن نغفل عن ملاحظة أن جميع الذين كانوا يعملون في مبنى الطوارئ والأقسام، كانوا يضعون سماعة في آذانهم ويسمعون الإذاعة المحلية ليتابعوا الأماكن التي تقصفها إسرائيل في غزة. قدمت أنا ومادس إلى هذه الحرب بإرادتنا، وعائلاتنا وبيوتنا في أمان بأسلو وترومسو. لكن الفلسطينيين كانوا يعيشون في خوف دائم من فقدان بيوتهم وعائلاتهم وحياتهم، وفي الوقت نفسه كانوا مضطرين للعمل ليلاً نهاراً من أجل إنقاذ الأرواح. بعد ذلك اتضح لنا أنه حتى رجال الإغاثة كانوا معرضين للقصف مثل غيرهم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ذات يوم قدم زميل ووجهه شاحب، نعرفه من قبل؛ كنا قد تناولنا طعام العشاء في بيته ومع عائلته. تعرض منزله للقصف، سألناه كيف حال العائلة. أجاب:

- الحمد لله لم يكن أحد في المنزل.

لكن أحد الأطباء من كلية الطب كان في بيته عندما قصف فقتلت زوجته الحامل وواحدة من بناته. الطبيب نفسه وابنته الثانية جاؤوا وهم مصابون بجروح خطيرة. أحد الجراحين، الدكتور رائد العريني،مر بالظروف نفسها، له طفلان نقلا إلى المستشفى بينما كان في العمل. قصف منزلهم، وأصيب طفلاه بإصابات بالغة، لكن لحسن الحظ أنهما ما يزالان على قيد الحياة. بعد يومين التقيت به على الدرج عندما كنت ذاهبا لزيارة المرضى، سألته عن حال العائلة.

أجاب الدكتور رياض: إنهم بخير.

لكنه لم يكن يبدو سعيدا. سألت:

- كيف حالك؟

- لست في حالة جيدة. بالأمس قصف منزل ابن عمي، فلاقى حتفه، وأصيب شقيقه.

لكن الدكتور رائد واصل العمل. أنا ومادس نعلم بأننا سنعود بعد وقت قريب إلى النرويج. أما الفلسطينيون فلا يستطيعون مغادرة غزة. بعد فترة من الزمن في غزة أصابنا اكتئاب وغضب لما رأيناه من الإصابات، نساء وأطفال مقطعة الأوصال، في حين وضعنا كان مختلفا تماما.

الفلسطينيون لا يستطيعون أن يتغيبوا عن العمل للحداد والشعور بالألم. عليهم أن يتماسكوا إلى أن تنتهي الحرب. أعتقد أن أهم دور قمت به أنا ومادس هو أننا مثلنا نوعا من الوضع الطبيعي. الخطر في مثل هذا الوضع الميؤوس منه، أن المرء عند نقطة معينة، لا يستطيع تحمل المزيد من المعاناة. عندما يضع الأطباء أنبوبا في صدر المريض من دون تخدير، إنه لشيء مؤلم جدا. في إحدى الغرف كان هناك طبيبان إخصائيان في التجبير يثبتان يد طفل مكسورة من غير تخدير. ركض مادس بسرعة وأعطى الطفل حقنة (الكيتامين)، هذا يفسر نظرة الفلسطينين للألم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

جريح باصابة خطيرة ينتظر في طابور ليجد طريقه الى غرفة العمليات. على الحمالة في خلفية الصورة الدكتور رياض الارنيسي مع طفلين يعانون من اصابات خطيرة.

على الرغم من أنني ومادس عشنا تحت ظروف أقل ضغطا، إلا أن عبثية الموقف جعلتنا نحن أيضا نتغير. كان يأتينا دائما أطفال صغار بإصابات بالغة جدا. وعالجناهم لساعات. وفي اللحظات التي نعتقد فيها أننا انتهينا تأتي دفعة أخرى جديدة من المصابين. في آخر المطاف يصبح الإنسان عديم الحس وغير مبال. هنا يكمن الخطر، في أن يبدأ الطبيب بعدم المبالاة بمعالجة المرضى بالاحترام والتعاطف اللذين هما حق لكل إنسان. في بعض الأحيان من المستحيل تجنب بعض الحالات التي نتعاطف معها، ونبدأ حينها بالتحدث عنها للزملاء الأطباء. وهذه الحالة مررنا بها في الحروب السابقة. لذلك سياسة (نوروداك) تحدد العاملين في مجال الصحة في مناطق الحرب، لا ينبغي أن يعمل الطبيب أكثر من أسبوعين ومن ثم يتم استبداله.

في الساعة الرابعة من اليوم نفسه، قدمت إلينا الكثير من الإصابات وهذا ما كانت تخشاه مستشفى الشفاء، حقيقة واقعة. قصفت الطائرات الإسرائيلية مسجد إبراهيم المقادمة في بلدة بيت لاهيا، في حين كان هناك حوالي 200 شخص مجتمعين للصلاة. أربعة وعشرون شخصا أتوا في الوقت نفس بإصابات

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بالغة.أسرعت أنا ومادس الى استقبال الطوارئ، نظرنا خلف الستائر، فإذا برجل يطلب منا أن ننظر إلى جرح فتاة مصابة في الرأس، مستلقية على إحدى النقالات وإلى جانبها جدتها. بدأ مادس بفحص الفتاة، ومعالجتها في حين كنت مشدوها أنظر إلى جدتها. كانت هناك صورة للأشعة السينية على النقالة، تظهر كسورا في فخذها الأيسر ورجلها اليسرى. كانت تحاول أن تلتقط أنفاسها، والارتباك يبدو واضحا عليها. لم يؤخذ قياس ضغط الدم عندها، ولم يكن هناك طبيب بجوارهم. الذين رأوها،أرسلوها إلى قسم الأشعة فكانوا على الأرجع مشغولين بشيء آخر.

أخذتُ آلة ضغط قياس الدم وبدأت بقياس الضغط عندها، لكن لم يكن عندها نبض في الشريان الذي في ذراعها. لقد أجروا لها صوراً بالموجات فوق الصوتية لمنطقة البطن ولم يعثروا على أي نزيف داخلي. كما أنه لم يكن هناك أي علامات تشير للإصابة في الصدر، لكن كان من الواضح أنها تنزف. اكتشفتُ حينها أن الفخذ الأيمن كان أكبر بكثير من الأيسر. بالتأكيد كانت تعاني من نزيف حاد في الفخذ .كان من المستحيل معرفة من كان المسؤول عن المريضة. بعدما جررناها إلى غرفة الطوارئ، فقدت الوعي. حاول مادس الحصول على معدات لفتح الفخذ، ووضع كماشة في شريان النبض. لسوء الحظ، توقف قلبها قبل أن أدرك ذلك. حوادث كهذه تدل على حالة الفوضى التي كانت في استقبال الطوارئ عندما يأتي العديد من المرضى في الوقت نفسه. لا أحد يأخذ مسؤولية متواصلة على المريض نفسه. الجراح الذي شاهد المريضة أول الأمر، دعا جراح العظام، الذي أمر النظر في فحص الرّجل. عندما عادت من الأشعة، لم يكن هناك كثير من الأطباء للنظر في حالتها. كانت في حالة صدمة بسبب النزيف الحاد عندما رآها مادس أول مرة.

خرجنا مجددا إلى استقبال الطوارئ. بعد فترة وجيزة جاء صبي في الثامنة عشرة من عمره بإصابة صغيرة في الجزء الأمامي من الصدر. أدرناه فوجدنا جرحا أكبر في ظهره وفي المكان نفسه. لم يكن لدينا شك بأن هذه رصاصة أو شظية دخلت من الصدر وخرجت من الظهر.

واحد من الأطباء المساعدين وضع له أنبوبا في الجزء السفلي من تجويف الصدر. لم يخرج من الأنبوب دم أو هواء. كان الطفل يعاني من ضغط منخفض

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في الدم، ومن الواضح انه كان ينزف في مكان ما في جسمه. في مثل هذه الحالة من الضروري الإسراع في معرفة مكان النزيف. بما أن مدخل ومخرج الإصابة كان في أعلى منطقة الصدر، كان واضحا لنا أن النزيف لم يكن من منطقة البطن، لكن للتأكد أكثر أجرينا فحصا بالموجات فوق الصوتية من تجويف البطن، وأظهرت أنه لا يوجد هناك سائل، وأن النزيف لم يكن يأتي من المعدة.

بقي فحص تجويف الصدر، لكن لم يخرج أي دم من الأنبوبة. أعطى مادس التخدير للطفل، وأدخلت أنا أنبوبا جديدا بمنطقة تجويف الصدر أعلى من مكان الأنبوبة الأولى. وسّعت الجرح وأدخلت أصبعي في تجويف الصدر. كانت الرئة منتفخة وملتصقة بالقفص الصدري، لذلك كان من الصعب إدخال الأنبوبة لإخراج الدم. حاولت أن أبعد بقدر ما أستطيع الرئة عن جدار الصدر بأصبعي وأدخلت أنبوبا جديدا لكن خرج قليل من الدم. حصلنا على صور الأشعة السينية التي أظهرت كثيرا من الدم في تجويف الصدر. عندما سعل، خرج الدم من فمه، كانت بالتأكيد إصابة في الرئة تحتاج إلى عملية جراحية.

مركز استقبال الطوارىء وغرفة الطوارىء مليئة بالجرحى الذين تدفقوا بعد قصف مسجد إبراهيم المقادمة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نقل المريض إلى غرفة العمليات، وأجريت له عملية سويا مع الدكتور الجراح الفلسطيني عبد الغفار الزعانين. فتحت قفص الصدر من الجهة اليمنى، وحررنا الرئة من القفص الصدري. ربما سبق له أن تعرض لالتهاب رئوي وحساسية في كيس الرئة التي أدت إلى التصاق الرئة في جدار الصدر. و أمام الرئة كان هناك كثير من الدماء، التي قمنا بإخراجها. كان هناك أيضا تراكم هائل من الدم في فتحة ما بين الرئتين. خيطنا الثقوب التي كانت تنزف، لكنه مازال ينزف. أبعدنا الرئة ووراءها أكثر عن جدار الصدر بحيث نتمكن من رؤية الجزء الخلفي من تجويف الصدر، فنزل الدم من فتحة بالظهر، على أغلب الظن النزيف يخرج من وريد بين الأضلاع. قمت بخياطة غرزة ذلك الوريد، فتوقف النزيف. أدخلت أنبوبين بصدره وأرسلته إلى غرفة العناية المركزة.

أمضينا بضع ساعات فقط على هذا المريض، الذي في الواقع لم تكن لديه جروح كثيرة، لكنه كان ينزف بشدة ومن غير توقف. كل مريض بحاجة لتشخيص دقيق وعلاج، وهذا يستغرق وقتا. عندما خرجت من غرفة العمليات، سألني أحد

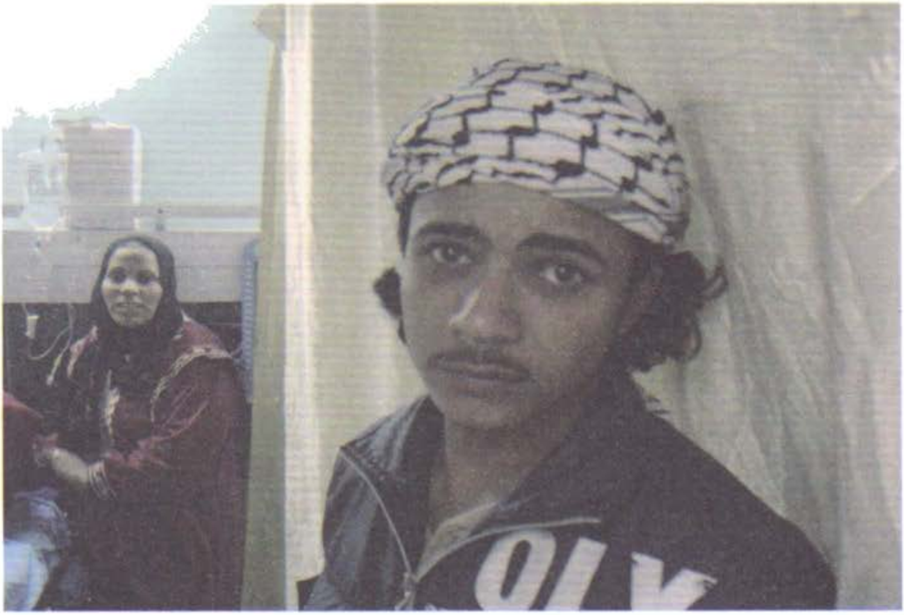

كان العديد من افراد عائلات وذوي المصابين القلقين يملؤون المستشفى. عادة كان اكثر من واحد من افراد العائلة الواحدة مصاب او من عداد القتلى.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

جراحي الأوردة، الدكتور محمد الدوش، إذا كان باستطاعتي مساعدته في عملية جراحة الأوردة. كان مرة أخرى طفلاً صغيراً مصاباً بشظايا كثيرة. الإصابة الرئيسية كانت جرحا كبيرا في الجزء العلوي من ذراعه الأيمن، مع تمزق في الشريان والوريد. كان هناك أيضا تمزق لواحد من الأعصاب الثلاثة في الذراع. الدكتور محمد، أزال الأوعية الدموية المصابة. كانت الشرايين متضررة إلى حدّ بعيد، وبعض منها كان لا بد من استئصاله. ولذلك، أخذت قطعة من ألياف الرِّجل حتى نتمكن من استعمالها كشريان اصطناعي بين الطرفين.

عندما انتهينا تولى جراحو الأعصاب ترميم وإصلاح العصب. سبق لي أن تفحصتها، كانت ممزقة نسبيا. على الأرجح أنه سيصاب بشلل في يده. لكن كان هناك أمل في عدم إصابته بالشلل في حالة نجاح جراحي الأعصاب في تصليح الجزء المتضرر. ندمت أنني لم أحضر معي العدسة المكبرة التي بقيت في مستشفى الريكس هوسبيتال. مثل هذه الكماليات لم تكن متوفرة في غزة. هذه أيضا عملية استغرقت بضع ساعات. عندما يأتي الكثير من المصابين في الوقت نفسه يكون مغريا أن نسد بعض أوردة الدم ونبتر الذراع.

بتر الذراع أسرع، وفي نفس الوقت يوفر مكانا جديدا لمصاب آخر. في بعض الأوقات،من الجيد فعل ذلك. لكنها مسألة ليست ببسيطة لطفل في سن المراهقة أن تبتر ذراعه اليمنى، ومستشفى الشفاء لديه أخصائيون يمكنهم أن يقوموا بأصعب العمليات بدقة وبمستوى عال جدا. كنت دائما معجباً بحجم العمل والوقت الذي كان يعطى للحفاظ على أطراف المصابين وبالنتائج الجيدة بعد إجراء العمليات. وكذلك في أحلك الحالات عندما يكون الضغط هائلا وتريد أن تنتهي بسرعة.

بعدما انتهينا من العملية في وقت متأخر من المساء، أدركت أن إسرائيل قد بدأت بالغزو البري عبر طابور من الدبابات.

الحدود القريبة من بلدة بيت لاهيا في شمال غزة، مدعومة من طائرات الهيليكوبتر القتالية. ذكرت إسرائيل أنها قتلت مقاتلين من حماس، وحماس ذكرت انها قتلت جنودا إسرائيليين. ونحن في المستشفى سجلنا خمسة وثلاثين إصابة، و13 قتيلاً بعد قصف مسجد آل المقادمة في بيت لاهيا وجميع المصابين كانوا من المدنيين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الشهود العاجزون

مادس جلبرت

كانت رحلة ليل طويلة تقابلها رحلة نهار أطول باتجاه ليل آخر. في 4 يناير الساعة الواحدة والنصف، كنا في وحدة العناية المركزة عندما دخلت القوات البرية الإسرائيلية إلى قطاع غزة.

كانت وحدة العناية الفائقة مليئة، وكنت مشغولا بطفلين صغيرين يصارعان من أجل الحياة بعد إصابتهم بجروح نتيجة مواد متفجرة - "الإصابات الناتجة عن انفجار - والتي كانت تعتبر مصطلحا عاما للجروح الناتجة عن القصف. الطفل الأول كان في الخامسة عشرة من عمره، يرقد فاقداً الوعي بجهاز تنفس اصطناعي بعد إصابة قاتلة بشظية في رأسه. دماغه متضرر والأمل ضعيف في إنقاذه. لم تكن لديه جروح أخرى ظاهرة، فقط تلك الشظية القاتلة في رأسه. عيناه كانتا متورمتين وملتصقتين، مع كدمات كبيرة، زرقاء زهرية. عدا ذلك كان وجهَ طفل صغير. تابعته طوال اليوم وناقشت مع الأطباء بأنه من الأفضل في مثل هذا الوضع، إنهاء الحالة في وقت مبكر، لأن ذلك يوفر علينا الجهد، ومن الناحية الأخلاقية سنوفر عليه الآلام.

- ثقافتنا لا تسمح بذلك. مازال القلب ينبض، وأعطيناه دواء منوماً حين كنا نفحصه و ننظف له الجروح في الرأس. لا يمكننا معرفة ما إذا كان مستيقظا مع أن إصابته في الدماغ قاتلة. كما أننا لا نعرف إذا كان فقدان وعيه ناتج عن الأدوية المخدرة. معجزة يمكن أن تحدث!

كنت أفكر طوال الوقت في نقص الأسرّة في غرفة العناية المركزة، وبالمرضى الجدد، الذين هم في حاجة إلى جهاز التنفس والعناية المركزة، بعد خروجهم من العمليات الجراحية.

تقييم زملائي كان لا يختلف تماما عما نفعله في الوطن فيما يتعلق بإصابات الرأس الخطيرة. هنا ليس لنا شك في أن الدماغ لا يصل إليه دوران الدم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الوضع في الشفاء كان شيئا آخر. النقص في القدرات كان واضحاً؛ بحيث لم يكن باستطاعتنا إيجاد مكان لوضع المرضى الجدد في وحدة العناية المركزة. هل كان ذلك صحيحا لمواصلة علاج التنفس الصناعي؟ أليس من الضروري إعادة الأولويات أيضا في وحدة العناية المركزة؟ احتفظت بهذه الأفكار لنفسي.الفلسطينيون أسياد في ديارهم وأدرى بقيمهم وعاداتهم.

كنت أعرف من تجربتي الطبية في مركز العناية الفائقة في مستشفى جامعة ترومسو مدى حساسية قرار توقيف العلاج خاصة عند الصغار المصابين بإصابات مميتة في الرأس. التوازن بين التفاؤل المفعم بالأمل، والتشاؤم الواقعي، هو أمر صعب. كثيرا ما يظهر على المصاب في الرأس مظاهر عادية مع أن الدماغ متوقف عن العمل. يمكن للقلب أن ينبض لعشر سنوات حتى لو كان المريض لن يستيقظ أبدا.

المعايير القانونية والطبية لحالات الوفاة- في ثقافتنا الطبية النرويجية- مرتبطة بتوقف تام لوظيفة الدماغ وليس القلب. بالنسبة للكثيرين يعتبر نشاط القلب رمزاً للحياة والأمل، وتوقف الحياة "الموت" يكون فقط عند توقف القلب.

فتى مصاب بشظية قاتلة في دماغه. يملك المرضون والاطباء في قسم العناية الفائقة خبرة ولكنهم يفتقدون كل شيء بسبب الحصار الاسرائيلي.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وحدة العناية المركزة في مستشفى الشفاء كانت دائما تثير إعجابي لطرق العلاج الحديثة والمجارية للعصر، وللتوثيق الجيد جدا. حتى في هذا الوضع المأساوي كانوا يقومون بالعلاج على أفضل وجه، مع وجود عدد كبير من الإصابات الخطيرة، ومع النقص في الموارد، ورغم الحصار الذي ترك بصماته واضحةً على مستشفى الشفاء.

الطلاء مقشّر من الجدران، والنوافذ المحطمة لم يتم إصلاحها، والكثير من المعدات التقنية الطبية فيها عيب أو نقص. كان من المستحيل الحصول على الأشياء البسيطة جداً في المستشفى. كنا نفتقر إلى الكواشف الكيميائية لمعايرة أجهزة فحص الدّم. كان المهندسون الصحيّون يضطرون لاستخدام الطرق اليدوية وارتجال الحلول لعدد من المجالات. الانضباط وأخلاقيات العمل كانت مرتفعة جدا، التزاما وإصرارا.

يجب علينا أن نبذل قصارى جهدنا لشعبنا، إنه واجبنا. نقدم لضحايا الهجمات الإسرائيلية أفضل علاج حتى لو كانت الظروف صعبة جدا.

المريض الثاني مستلق داخل مركز العناية الفائقة. كان يبلغ من العمر حوالى اثنتي عشرة سنة، وكان يعاني من إصابة مروّعة في نصف جسمه الأيمن: الكتف والذراع الأيمن كانا تقريبا شبه مقطوعين، الجزء العلوي من عظم العضد مكسور، والجزء الأيمن من الرأس والوجه محطم. تعدت الساعة منتصف الليل والطفل مازال ينزف دما من كل مكان.

- علينا أن نجري له عملية أثناء الليل، الذراع يجب أن يثبت، لكنه في حالة سيئة. نظرت إليّ ممرضة العناية المركزة بنظرة متسائلة:

ماذا يمكننا أن نفعل؟ علينا أن نبذل قصارى جهدنا، لكن ربما لن يعيش. من بعيد سمع صوت انفجار القنابل من جديد. أليس هناك نهاية لهذا القصف؟ كم من الناس ستمزق أجسادهم إلى قطع هذه الليلة؟

- دكتور مادس، تفضل للأكل معنا!

طاولة نقالة جرّت إلى مدخل وحدة العناية المركزة. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد منتصف اليل في الرابع من يناير. لا الأطباء ولا الممرضون تناولوا شيئا منذ وجبة الغداء. ربما فقط علبة من البسكويت الغني بالحراريات. كانت

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الطاولة النقالة مليئة بالأشياء التي هي موجودة الآن في غزة. رزمة من الخبز العربي غير الطازج، صحون صغيرة من طماطم وقطع خيار وقليل من الزيتون. الجبنة وطبق علبة التونة الذي هو بالطبع الصحن "الرئيسي اليوم - كما الأمس - كما أول أمس.

اختفى كل شيء من على المائدة، عندما كان هناك عشرة رجال جياع في استراحة يستحقون فيها لقمة أكل طيبة، لم تكن في الواقع إلا لقمة. لا أحد منهم شبع، فرغ ما في المائدة بسرعة.

ينام العاملون في المجال الطبي بضعة ساعات في اليوم على مدى اسابيع. كانت حصص الوجبات الصغيرة توزع بطريقة اخوية.

كانت غزة بحاجة إلى كل شيء ومن بين ذلك احتياجها للمواد الغذائية. في 23 ديسمبر 2008 النرويج وبقية العالم الغربي - التي هي عادة غنية بالأكل- كانوا قد بدأوا الاحتفالات بعيد الميلاد، بينما أقفلت آخر المطاحن في غزة؛ لأنه لم يعد هناك قمح للطحن. يوجد في مخزن الطحين فقط 450 طناً، وفقا لآخر تقرير صادر عن مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الإنسانية، مليون ونصف شخص بحاجة الى نحو 450 طنا من الطحين في اليوم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

من السهل أن يعرف المرء كم هي هزيلة احتفالات عيد الميلاد في غزة، حتى بالنسبة للأقلية المسيحية التي تشكل واحداً في المئة من السكان. تلك المائدة النقالة اختفت وحلت محلّها سجادات الصلاة التي وضعت تجاه مكة. أحد الممرضين أمّ المصلين، صوت سوبرانو جميل يرتّل القرآن، ملأ الغرفة وبدأ يتصارع ذلك التجويد مع صفير وأصوات الآلات الأخرى في غرفة العناية المركزة التي كانت دائما آلاتها تصدر أصواتا. دويّ القنابل شكّل صوتا عميقا وخفيفا مثل "الباص (بوم - بوم) . نظرت إلى تلك الظهور الراكعة، أحسست بالارتياح للصلاة، وبخشوع أكثر من السابق، جمعهم كما جمعني معهم، لنشكل وحدة وسكوناً كان أكبر من أنفسنا. ملأت تلك الأجواء الروحانية الغرفة وأخفضت أصوات الخوف من أمواج ذلك القصف الكافر.

ليحفظنا الله جميعا. نحن الآن كثيرون ونحتاج إلى حماية. كنت في قمة التعب، لكنني أجريت آخر مقابلة في مكتب رئيس الممرضين. أعتقد أنها كانت لإحدى الإذاعات الفرنسية. كان المكتب نظيفا ومرتبا. أفرغت جيوبي من بقايا الحقن وزجاجات التخدير . من الأفضل أن أملأ جيوبي بحقن وزجاجات جديدة للتخدير للاستعداد للدفعة الجديدة من الجرحى. الحقن والأنابيب الصغيرة يمكن جلبها من على عربة كبيرة في داخل غرفة العناية الفائقة. كان الأمر بمثابة خدمة ذاتية، بها عدد من الأدراج والصناديق في صفوف طويلة. الآن هي مرتبة، لكن عندما يبدأ العمل يصبح مخزن الحقن في حالة فوضى كما في غرفة الطوارئ. كالعادة طلبت ثلاث قوارير من الكيتامين مركز بدرجة (50 ملغ/مل) والتقطت العديد من حقن عيار 10 ملليمتر التي كان مكتوبا عليها بوضوح بقلم الحبر (كيتا 50ملغ/مل)..

بالمقابل أعددت أيضا أدوية أخرى ضرورية لإعطاء تخدير سريع وآمن. عمليات التخدير في أيام الحرب مثل الجراحين أيضا أيام الحرب. على المرء أن يعمل بسرعة وبسهولة وبقدر ممكن من الأمان مع استهلاك أقل قدر ممكن من الموارد. عادة تقنّن الموارد في حالات الحرب والكوارث الطبيعية عندما يتدفق العديد من الجرحى والقتلى ليفوق قدرة الخدمات الصحية المحلية. يتغير الاتجاه من إعطاء كل شيء لمريض واحد إلى العكس، وتوزيع الموارد المحدودة على أكبر

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عدد ممكن من المرضى -أوالجرحى- الذين لديهم أملٌ في الحياة والذين يمكن إنقاذهم بعمليات جراحية سريعة لا أكثر.

لتحقيق ذلك، لا بد من انتقاء من لهم اصابات خفيفة وليس من لديهم إصابات خطيرة، في الوقت نفسه يبقى عندنا المجموعة التي لديهم إصابات قاتلة.

الحالات الميؤوس منها، يعطى لهم التخدير، واحترام وجود ذويهم أثناء احتضارهم. من الأحسن أن يكونوا في منطقة مغطاة، قد يبدو الأمر ساخرا، لكن هذا هو الحل الوحيد والأخلاقي لإنقاذ أكبر عدد من الذين يمكن أنقاذهم.

كان اختيار جرحى الحرب، الذين سيتم إدخالهم إلى غرفة العمليات، والتقرير السريع للعملية الجراحية، حساساً ويأخذ وقتا. حساس لأن التساهل في الاختيار يؤدي بسرعة إلى امتلاء غرفة العمليات بالمرضى، ويؤدي إلى الانهيار في النظام. إضافة لأن التقييم الطبي لمدى ضرر الإصابة واستجابة الجسم لها، والواقعية في اختيار من له فرصة للبقاء على قيد الحياة،هي أمور ضرورية، أضف إلى ذلك أن تشخيص حالة المريض أمرٌ صعب ومعقد جدا.

لا يكفي فقط المعرفة النظرية الأكاديمية. الطبيب المسؤول عن "الترايغ"، أو وضع أولوية المصاب الذي سيدخل غرفة العمليات، لا بد أن تكون لديه خبرة طبية عالية وأن يعرف فرصة المصاب إن كان يمكنه العيش بعد العملية الجراحية، وأهمية العلاج الذي سيتلقاه بعد العملية في غرفة العناية المركزة. التخدير العام للمريض يتطلب شخصين في البداية، وعلى الأقل شخص واحدً لا بد أن ينتبه للمريض أثناء العملية.

في اختيار أبسط الأشكال من التخدير، يمكن إعطاء التخدير لأكبر عدد من المرضى عندما تكون الموارد قليلة والمرضى كثيرون. وينطبق الأمر كذلك على الأدوية المسكنة للآلام. اختلاف الثقافات يظهر جليا في هذه المنطقة. لقد عايشنا مرات عدة، في بعض المناطق العربية، أن الآلام جزء من واقع الحياة المر، المختلف عن ثقافتنا "الخالية من الألم . في كل من فلسطين ولبنان يستخدم العاملون في المجال الصحي كميات أقل منا منً المسكّنات للعمليات الصعبة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الأدوية المسكنة المشتقة من الأفيون كالمورفين والكودين هي مسكنات جيدة جدا، لكن آثارها الجانبية سلبية للجرحى.

الغثيان والقيء مع ضعف في التنفس هي آثار جانبية خطيرة، يمكن أن تهدد المجاري الهوائية والتنفس عند المريض. كذلك الانخفاض في ضغط الدم هو أثر جانبي آخر. وهذه الآثار الجانبية، نستخدمها حجة لعدم اعطاء هذه المسكنات للمرضى الذين هم في حالة وعي، ويعانون من آلام كسور في العظم أو آلام البتر الجزئي، أو أي حاجة ملحة لأعطاء المخدر. البديل هو جرعة خفيفة من الكيتامين التي ليست فيها هذه الأضرار الجانبية السلبية. بجرعة صغيرة يبقى المريض مستيقظا، وغالبا ما يكون في حالة النشوة. هو أو هي لن يحس بالآلام، سيتنفس جيدا وستكون دورة دمه طبيعية، ولن يحتاج إلى أجهزة مراقبة متطورة.

كنت أعطي دائما الكيتامين كمسكن للمصابين بإصابات بالغة، غير فاقدي الوعي. ليس من النادر أن هذا كان يثير بعض النقاش.

- دكتور مادس، لماذا أعطيت الكيتامين لهذا المريض؟ الآن ستكون لدينا مشاكل. لم تعد لدينا أماكن في قسم المراقبة.

النقاش حول إعطاء المسكنات، مثله مثل كل النقاشات الساذجة؛ دائما تعلو الأصوات ويشتد النقاش، فسّرت ذلك بأنه نتيجة الضغط الشديد الذي نمر فيه جمعياً.

ربما ينبغي أن أتقبل هذه الثقافة المحلية، للاختيار بين أن ندع المريض يعاني من آلام شديدة، أو أن نعطيه جرعة قليلة من المهدئات التي لا تتطلب مراقبة المريض، وكان هذا هو الأسلوب الشائع: أن تترك المريض يتألم.

لم أتقبل هذا الوضع للمرضى الذين كنت مسؤولا عنهم. ليس فقط لأسباب إنسانية، وإنما أيضا لأن الآلام شيء غير فيزيولوجي وسلبي بالنسبة لأداء جسم المصاب وقوة مقاومة الجسم عموما. وبالطبع لدي أيضا بعض الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية للمرضى الذين أعالجهم كطبيب تخدير. وأعلنت هذا بوضوح إلى كل زملائي من أطباء التخدير والجراحين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ضمان احترام الخصائص المحلية في حالة الحرب العصيبة، وفي الوقت نفسه تحسين وتطوير العمل، يتطلب تدريبا مكثّفا. الثقة والاحترام المتبادلان كانا راسخين ومتوازنين، لكن مخاطر الغطرسة وفقدان الحس الإنساني كبير. الأطباء الفلسطينيون بارعون، ومتعلمون تعليما جيدا، ودائما يحبون الاطلاع على الجديد في المجال الطبي. وعلى الرغم من ذلك لم يكن هناك الوقت الكافي لتغيير الإجراءات وإعادة ترتيبها عندما تتساقط القنابل وتأتيك دفعات جديدة من القتلى والمصابين الذين يمكن أن يكون من بينهم زوجتك أو أطفالك. إثارة هذه التفاصيل في مثل هذا الوقت العصيب سيكون بلا معنى وفي الوقت نفسه سيترتب عليه صرف الانتباه عن الأشياء الأهم، مثل: السرعة، والانضباط، والتدابير الحازمة ذات الأولوية لانقاذ حياة أكبر عدد ممكن من الجرحى الفلسطينيين. إن زملاءنا في الشفاء، وفي المؤسسات الصحية الأخرى في قطاع غزة، كانوا دائما منهمكين ليؤدّوا مهامهم خلال النهار الطويل مع الحد الأدنى من فرص النوم والراحة. إنها بطولة تاريخية بكل ما للكلمة من معنى.

بعد وجبة الليل، التقيت بإيريك وزملائه من الجراحين. ذهبوا لزيارة ليلية إلى وحدة العناية المركزة، وفحصوا مريضا خرج لتوّه من غرفة العمليات. رافقناهم إلى القاعة الكبيرة في الخارج، والتي كانت دائما مليئة بأفراد عائلات المرضى الذين يبحثون عن مرضاهم، وبفريق التلفزيون الفلسطيني والزوار الذين يزورون أقرباءهم. وكانت فرحتنا كبيرة عندما شاهدنا آلآثار المترتبة على اجتماع الأطباء ذلك السبت: نصف القاعة الآن أصبح منظما كغرفة طوارئ جديدة. هنا سوف يأتون بالجرحى ذوي الإصابات الخفيفة، بعد تقسيم المرضى حسب إصاباتهم، من مركز الطوارئ الرئيسي. الحمالات مصطفة في هذا المكان، تستوعب عشرة إلى خمسة عشر جريحاً بإصابات خفيفة، يمكن أجراء الفحص عليهم وعلاجهم، وبالتالي نوفر قدرة للاستقبال في غرفة الطوارئ، وإعطاء الأولوية لذوي الجروح البالغة، لأولئك الذين لا يستطيعون المشي.

أصبحت الساعة الواحدة والنصف، نزلنا إلى غرف نومنا، متعبين، لكننا كنا نشعر بسعادة النتائج الجيدة وبحرارة استقبال الناس على الرغم من ذلك

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

القصف والوحشية. كان الليل ساخنا، كنت نائما بشكل متقطع. دوي الانفجار يقترب شيئا فشيئا، فجأة دوى انفجار كبير ليس ببعيد عن المستشفى. كل من المبنى والأسرّة بدأت تهتز. شعرت بضغط الانفجار وأنا مستلق على السرير، كما أن النوافذ كانت دائما مفتوحة لتعيق تطاير الزجاج إلى قطع قاتلة في حال سقوط قنابل في مكان قريب. مثل تلك الشظايا الزجاجية سبق وأن قتلت واحدا وجرحت العديد في المستشفى، عندما قصف الإسرائيليون مسجد الشفاء الذي يقع مباشرة عبر الشارع.

- اللعنة، إيريك، كانت قريبة جدا.

- نعم، أحسست بالضغط،، تمتم وهو شبه نائم.

بين دوي تلك الانفجارات، كنت مثل هدوء غزة خلال الليل. تذكرت أيام كنت في بيروت الغربية عام 1982. تذكرت هذا الصمت المخيف نفسه قبل وقوع الانفجارات الهائلة. لم أكن خائفا، ولكنني رأيت الجرحى والقتلى بعد كل انفجار. هل أصاب الانفجار منزلا؟ سيارة؟ سيارة إسعاف؟ واحدا أو أكثر من الناس؟ كيف يبدون بعد الانفجار؟ وماذا يشعرون؟

كنت أعرف، إذا كان هناك مصابون سوف يأتون حتما إلى المستشفى في وقت قريب. كنت أفكر بالألم الذي سيشعرون به. الصدمة لمن أصيبوا من القنبلة، أو عندما يرتج البيت من حولهم ويتحول إلى أجزاء. القلق واليأس عندما يبحثون وسط الظلام والغرف المليئة بالدخان، ربما انهار المنزل : أين الأطفال؟ ؟ الجدة؟ زوجي؟ عمي وعمتي؟ من نجا ومن أصيب، ومن تعرض للقتل؟ هل ستأتي سيارات الإسعاف؟ هل سيأتي المزيد من القنابل من السماء؟ هل يمكننا الهرب؟

العائلات الفلسطينية كبيرة، وفي غزة يعيشون في مساكن ضيقة، طوابق فوق بعضها، كلما كبر الأطفال وأتت أجيال جديدة يبنون شقة فوق المنزل. عادة لا يسمح الاحتلال بمثل هذا التوسع، لا للمباني الجديدة ولا حتى للمنازل الفسيحة. والنتيجة هي أحياء سكنية مكتظة بالسكان، لا سيما بالنسبة للمليون فلسطيني الذين يحملون صفة لاجئ ويتمتعون بدرجة أدنى من الحقوق في قطاع غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

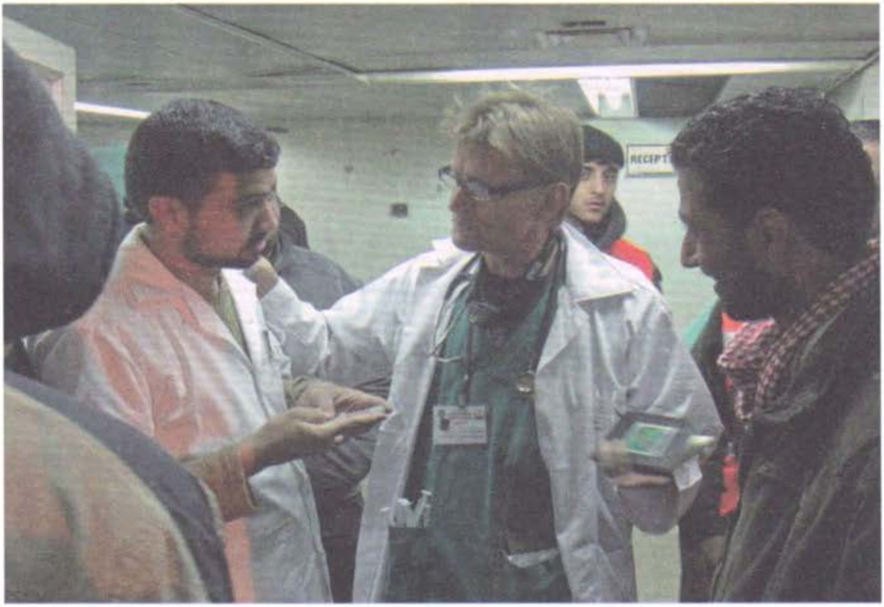

كان اسامة المسؤول عن المرضين يملك دائما لوائح بالقدرة على استيعاب وتوزيع المرضى في المستشفى وغرف المرضى كان هناك حاجة للاسرة والاماكن للجرحى الجدد في كل من غرف العمليات والعناية الفائقة.

عندما قرر الاسرائيليون القصف الدقيق للمنازل والمدارس والمساجد والشوارع، كان يجب أن يعلموا أن المدنيين سيدفعون الثمن. وتأكدوا بشكل فوري عندما عرضت لقطات تلفزيونية بعد دقائق قليلة، القتلى والجرحى الذين نقلوا إلى مستشفى كمال عدوان في الشمال، مستشفى القدس على مسافة غير بعيدة في مدينة غزة ومستشفى غزة الأوروبي في الجنوب أو عندنا" في الشفاء صور من القرب، لا لبس فيها، لوجوه أطفال ونساء قتلى وكبار السن من الرجال ممزقة أذرعهم وأرجلهم. السلطات الإسرائيلية شاهدت الصور التلفزيونية نفسها كما شاهدناها نحن. كيف يمكنهم أن يسمحوا بذلك؟ ما الذي يصبون إليه؟ ما هذا النوع من الإنسانية التي تجعلهم يسمحون للنساء والأطفال أن يكونوا هدفا للقنابل يوما بعد يوم؟ هذا ما كنت أفكر به إلى أن أنتابني نوم مضطرب.

لم يكن نوما غريبا، وكان جيدا أن نبدأ يومنا عند شروق الشمس. جمعت أدواتي اللازمة على المفرش، و تحققت من أن كل شيء في مكانه. دفتر الملاحظات مع آخر تقدير محدّث عن أرقام القتلى والجرحى من وزارة الصحة؛

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ومقص كبير لتقطيع الملابس الذي كنت قد اشتريته من السوق، والذي حظى بشعبية كبيرة كأداة لتحل محل المشارط الطبية الصغيرة التي عادة تستعمل لقص ثياب الجرحى. الحقن الجاهزة وبعض القساطر الوريدية، والضمادات، والسماعة الطبية، الجوال المحلي والدولي، ولفة اللصاق، ومصباح الرأس، وبطاقة تعريف فلسطينية.

كل شيء في مكانه، ملابس العمليات الخضراء، والأحذية الجبلية الجيدة، وسترة شتوية مع جيوب جيدة. إنه أيضا فصل الشتاء في غزة، والبرد يزحف أيضا بسرعة إلى المستشفى.

عندما تنخفض درجة الحرارة ليلا نحو السبع او الثماني درجات، مع الرياح الباردة القادمة من البحر الأبيض المتوسط، يمر البرد عبر النخاع والعظام، لم تكن تحمي تلك النوافذ المكسرة لا المرضى ولا أهاليهم ولا حتى الموظفين.

كان المستشفى يعج بالحركة. غرفة الطوارئ مشغولة بجريح حرب يعاني من جرح كبير في البطن. كان الجريح في حالة من الصدمة، وينبغي أن تجرى له عملية بأسرع وقت. أصدقائي أطباء التخدير كانوا يسيطرون على الوضع، استقبلوني بابتسامة عندما دخلت.

- الدكتور مادس، استيقظت باكرا؟ تعال وساعدنا، إننا في طريقنا إلى غرفة العمليات.
- جيد أنكم دثرتموه ببطانية من الصوف حتى لا يتجلد من البرد.
- نعم، كان علينا فعل ذلك. أنت دائما تصر على أن نفعل ذلك طوال الوقت. أنت على حق، الجميع هنا يشعرون بالبرد.

أخذنا المريض بسرعة إلى غرفة العمليات. كان جراحو الأمراض الباطنية في الانتظار، وفتح البطن تمّ على الفور وبشكل دقيق. جروح في المصارين، ونزيف معوي من جهات عدة. تمّ إيقاف النزيف الذي في البطن وبدأ الجراحون يبحثون بجهد في الأمعاء الدقيقة بأكملها بحثا عن الثقوب فيها. لم يجدوا سوى ثقب صغير واحد الذي لم ننتبه إليه. ذلك الجرح سيؤدي إلى تسرب محتويات الأمعاء مع بكتيريا إلى تجويف البطن بعد إغلاقها. مثل هذا التسرب يهدد الحياة ويؤدي إلى التهابات وتسمم في الدم، الذي يعتبر من أصعب الانعكاسات التي تؤدي إلى وفاة معظم جرحى الحرب المصابين في البطن.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كنا في قمة التعب ولكن العمل كان على ما يرام. كنت أعطي الدم وفي الوقت نفسه أدير عملية التخدير برفقة أحد تقنيي التخدير. كان الحديث قليلا عن إصابات اليوم السابق والتفكير في هجمات وتدمير اليوم القادم. ربما من الأفضل ذلك. ويعتبر ذلك أيضا آلية لحب البقاء.

احد ضحايا القصف يخضع لعملية جراحية في منطقة البطن. كان اعضاء الفريق الجراحي متعبين، لكنهم يقومون بعملهم على اكمل وجه.

بعد العملية الجراحية، ذهبت إلى مركز التعقيم حيث تنظف الآلات وتعقم، كان كل شيء منظم، الأدوات ملفوفة وجاهزة في أوراق خضراء، وموضوعة بشكل جد منتظم. لتشغيل المستشفى، لا بد من كل الأقسام أن تتفاعل مع بعضها حتى في حالات الكوارث، يجب أن يُضمن الحد الأدنى من المهام التي تدير المستشفى. التفاعل والخدمات اللوجيستية ذات أهمية حاسمة.

بالنسبة للموظفين، فإن النوم النظيف والأكل والاتصال مع العائلة مهم جدا و يمنحهم قوة مع الوقت. مصطلح النوم النظيف هو ضمان حد أدنى للنوم، ما لا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يقل عن أربع ساعات من النوم المتواصل في اليوم . إذا لم يحصل المرء على أربع ساعات من النوم المتواصل يضعُف الأداء عنده مع الوقت. الكثيرون في غزة، وبالأخص في مستشفى الشفاء، ينامون أقل من ذلك في بعض فترات الحرب.

القصف والدمار ومسؤولية العمل طغت على حاجة النوم. كثيرون كانوا ينامون يوما بعد يوم في المستشفى لأن الذهاب إلى بيوتهم محفوف بالمخاطر. فنجان من القهوة والسجاير كانت تقدم للموظفين -على حافة الأسرة- في غرفة النوم التي ابتدعوها بجوار غرف العمليات. بضع ساعات من الراحة كل ما كانوا يحصلون عليه، وعمليات جديدة في انتظارهم.

ما يزال المرضى يأتون إلى غرفة العمليات بشكل مستمر. تبدو الانفجارات قريبة جدا، لذلك نزلت إلى استقبال الطوارئ. صوت صفارات الإنذار وموجة جديدة من السيارات الخاصة وسيارات الإسعاف هرعت إلى الشفاء. تنقل المرضى على نقالات بطريقة غير نظامية وفوضوية. ما إن يحصلوا على أماكنهم في النقالات يبدأ الشروع في علاجهم: تأمين الممرات الهوائية، وفحص الدم، الذي غالبا ما يكون أول شيء نقوم به، حيث نضع القسطرة في وريد المريض ونأخذ عينة من الدم للتحليل ونقوم بكتابة لائحة بنوع الإصابة التي عنده. ومن ثم يأتي جراح ذو خبرة . النزيف الخارجي يجب أن يتوقف على الفور، والجريح يجب أن يبقى دافئا. كثير من المرضى يوضع لهم أنبوب بلاستيكي في تجويف صدرهم بين الضلوع، حيث غالباً ما يتجمع الدم والهواء بسبب إصابات من شظايا الانفجار وإصابات التفجير في تجويف الصدر.

مثل هذا الأنبوب البلاستيكي منقذ للحياة؛ لأنه يخرج الهواء الذي يشكل خطرا على الحياة وضغطا على التجويف الصدري في حالات النزيف، حيث يضغط الدم على الرئتين والأوعية الدموية في تجويف الصدر. اثنان من رجال الإسعاف دخلا مهرولين وهما ينقلان على نقالة طفلا فاقدا للوعي . لم يكن هناك مزيد من الحمالات للمرضى. كان علينا أن نضع الحمالة على الأرض. كنت أمسك بآلة التصوير وأصور وصول المريض، اضطررت أن أضع الكاميرا على الأرض، وأخذت زمام المبادرة في العمل. كنا قد حصلنا على تصريح من إدارة المستشفى لالتقاط بعض الصور، وكان ذلك عمليا . كنت آخذ التصريح من المريض أو من عائلة المريض قبل أن ألتقط الصور.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قاعة النوم المرتجلة في قسم العناية الفائقة. بكوب من القهوة العربية القوية وسيجارة تبدأ نوبة جديدة من العمل على مدار اليوم. كان من المهم ان ينام المرء عندما تسنح له الفرصة.

كان الطفل فاقدا للوعي، ولم يقم بأي ردة فعل على الإطلاق. في البداية اعتقدت أنه ميت، ومع ذلك رفعت رأسه لكي ينفتح مجرى الهواء، ووضعت أذني على فمه فسمعته يتنفس. إنه يتنفس، لكن على نحو ضعيف جدا. صرخت مرارا وتكرارا، أعطوني الحقيبة - وهي حقيبة بلاستيكية نستخدمها للمرضى الذين لا يتنفسون-. النبض كان بالكاد محسوسا في العنق. مع الكمامة وحقيبة التنفس نجحنا في جلب الهواء لجسمه، ونقلناه بسرعة إلى غرفة الطوارئ، هناك وضعنا له أنبوبا بلاستيكيا في القصبة الهوائية (عملية إبقاء العضو البشري مفتوحا بواسطة أنبوب) وسيطرنا على عملية التنفس عنده. على الفور أدخل أنبوب في كلا جانبي الصدر، لكن لم يخرج لا الهواء ولا الدم. كان للطفل 20 - 30 حفرة على شكل نقاط في جدار الصدر. ولا واحدة منها كانت تنزف. أصوات التنفس كانت متساوية في كلا الجانبين، لكن لم تكن له ردة فعل على الإطلاق، والنبض بدأ يضعف تدريجيا.

جسد ذلك الطفل النحيل كان واضحا عليه أثر علامات وكدمات على جدار البطن، وإصابة في الرأس. كان وجهه محروقا. فحصنا القفص الصدري والبطن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وأدرناه على الجانب، ولكن لم نجد شيئا غير تلك الثقوب التي بجدار الصدر والكدمات وإصابة الرأس. وضعت أصبعي الصغير في عمق إحدى الثقوب. لم يكن الثقب منتشرا، فقط عند الأضلاع. أخذت قطعة صغيرة من داخل إحدى تلك الثقوب، كانت تبدو مثل الفشار، في حجم حبة الذرة. بالكاد تبدو كمعدن على شكل هيكل بلاستيكي بلون رمادي أبيض. الدايم؟

الجراح يعتقد ان الطفل على حافة الموت. أصررت أن أكشف عليه، وطلبت منهم أن ينقل إلى غرفة العناية المركزة.

قال:

- ليس هناك أسرّة فارغة.
- لكن لا يمكننا أن نتركه فقط مستلقيا هنا. يجب علينا أن نرى كيف تتطور الأمور معه، ألا توافقني الرأي؟
- بلى، ولكن أين سنضعه؟
- سأقوده إلى وحدة العناية المركزة، ثم نرى.
- طيب، يمكنك أن تحاول.

أخذناه إلى وحدة العناية المركزة.

قالت المرضة بشدة عندما وصلنا:

- لكن ليست لدينا أسرّة فارغة، وأنت تعرف أنه يجب أن يكون الأمر متفقاً عليه، قبل أن تأتوا به.
- لكن فقط نريده هنا. ربما يتحسن أمره؟ فهو تعرض لانفجار قوي مع إصابة شديدة في رأسه وصدره وبطنه.
- لا أعتقد أننا يمكن أن ندخله، ولكن على أي حال لا يوجد أي مكان له الآن.
- هيا بنا نفتش على سرير.

جهزنا غرفة صغيرة ووضعنا أجهزة المراقبة والتنفس الصناعي للطفل. كان في القلب نشاط كهربائي، لكن لم نحس أي نبض لا في الرقبة ولا في الفخذ. لدينا نشاط كهربائي من غير نبض، إننا بحاجة أن نجس النبض من الوريد، لا اشعر أبدا بالنبض. حتى ضغط الدم عنده ليس قابلا للقياس. علينا أن نبدأ بعملية إنعاش للقلب.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قام ممرض بعملية الضغط على الصدر، لم يكن العمل جيدا لأن وضعية اليدين كانت خطأ وهذا ليس بالشيء غير العادي في حالات الظروف العصيبة. وأطلعته بطريقة ودية على مكان وضع اليدين على الصدر وأريته التقنية الصحيحة. هل كانت حقيبة القلب مليئة بالدم؟ أدخلت إبرة من أسفل البطن إلى حقيبة القلب. خرج تقريبا ثمانية إلى عشرة ميلي لترات من الدم وليس أكثر، وإلى تلك اللحظة لم يكن لدينا تفسير لعدم وجود نبض. إشارة تخطيط القلب تغيرت وتسطّحت. رأيت من خلال شاشة المراقبة أنه لم يكن هناك أي ردة فعل لكل هذا العلاج.

محمود المشهراوي 11 سنة اصيب بصاروخ اسرائيلي على الارجح اطلق من طائرة من دون طيار. ابن خالته قتل على الفور، بينما محمد مات في قسم العناية الفائقة.

أوقفنا عملية التنفس الاصطناعي اليدوي، وقرفصت على الأرض بجانب السرير، خلعت القفازات ووضعت يدي على جبهته. لا ينبغي أن يترك هذا العالم وحده. لا أحد من مرضاي يجب أن يفعل ذلك. لمست جلده، ما يزال دافئا وبه رائحة البارود.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

توفي محمود قبل ظهر يوم الأحد 4 يناير ببضع دقائق. سألت الممرضات أن يستدعوا الأسرة التي سبق وأن رأيناها في المنطقة. شقيقه أشرف مشهراوي الذي تبين في وقت لاحق، أنه المصور والمنتج للتلفزيون المحلي، دخل ووقف عاجزا عند قدمي أخيه.

قلت

- توفي. أنا متأسف جدا. هذا وشاحه للذكرى.

ضممته بلطف.

- إنه أخي الصغير. عمره إحدى عشرة سنة. أرسلناه هو وأبناء إخوته، أحمد الذي يبلغ ست عشرة سنة إلى سطح المنزل ليلعبوا. المفروض أن يكونوا هناك أكثر أمانا من اللعب في الشارع. هكذا اعتقدنا.

أشرف كان يبكي.

- جاءت قنبلة مع صاروخ صغير. كانت موجّهة مباشرة إلى السطح. استخدم محمود وأحمد السقف ليكونا في أمان.

- لا نريد لهما أن يكونا في منزلنا أو في الشارع. يمكن أن يكون هناك خطر في شارع الوحدة في وسط مدينة غزة. أرسلناهما إلى سطح المبنى للتأكد من أنهما لن يتعرضا لإصابات.

حين كان أشرف يخبرنا بالأمر كانت دموعه تذرف. عمر شقيقه محمود 11 سنة وابن عمه أحمد 16 سنة. أطفال غزة مميزون، يكبرون مع القنابل والحصار وعدم الأمان، من دون أن تكون لهم السلامة والحماية اللتان تعتبران حقا طبيعيا في 2009 حقوق الإنسان واحترامه، وحرية التنقل وحرية التعبير.

الاثنان قتلا بسلاح فتاك، صوّب عليهما وأطلق عليهما من يد إنسان يجلس في غرفة تحكم وقيادة بعيدا هناك. الأحد 4 يناير كانون الثاني كان يوما رهيبا. قتلت القوات الإسرائيلية طفلين فلسطينيين كانا يلعبان على سطح المنزل. ونهار الأحد قصفت الطائرات الإسرائيلية سوق الخضار المركزي الذي يقع في منطقة تجارية شديدة الازدحام في مدينة غزة. يوم الأحد دخلت علينا أمواج من الجرحى والقتلى من جميع الأعمار وجميع أنواع الإصابات. ولم نر أي محاربين،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فقط رأينا أطفالاً ونساء وكبار السن من الرجال، والنساء المتقدمات في العمر. عندهم شيء واحد مشترك: وهو أنهم جميعاً من المدنيين الفلسطينيين.

مراسل الجزيرة مباشرة من مركز استقبال الطوارىء. في مستشفى الشفاء كانت التغطية الاعلامية 24 ساعة باليوم. كان هناك حوالي 100 صحفي يعملون بشكل دائم للوكالات الاعلامية و700 يعملون صحفيين مستقلين لحسابهم الخاص. لم يسمح بمرور الصحافيين الغربيين خلال الحصار.

كنا نتلقى باستمرار رسائل جديدة حول الهجمات. الكثيرون يستمعون إلى الأخبار المحلية من خلال سماعة الأذن، بينما كانوا يعملون. الهواتف النقالة تستقطب (إف إم) الموجات القصيرة التي كانت تحذيرات قصيرة ومعلومات عن النظام.

صاح شخص ما أمام مكتب الطوارئ:

- قصفوا سوق الخضار في ساحة فلسطين. هناك العديد من القتلى والجرحى.

موجة من الجرحى الجديدة لم تنتظر. لا أتذكر التفاصيل، مجرد شعور بأن تغرق بالصور والأصوات المرعبة . أطراف وأجزاء بشرية ملقاة هنا وهناك، فجأة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في كل مكان على الأرض، على حمّالات، على مقاعد، في غرفة الطوارئ، وراء الستار، يمشون بجروحهم التي تنزف، امرأة حامل تحتضر، أطفال مبتوري الأطراف، الضجيج يعلو وينخفض مثل صوت شلال مخدر بأصوات وصراخ وأوامر وضياع وأنين.

في حشد من صخب يائس، كان من المستحيل تقريبا أن ترسم نمطا أو تنظيما. لكن كان هناك نظام. كانوا يفحصون ويفرزون ويعطون الأولويات.

كنا نأخذ الجرحى الذين يمكن إنقاذهم إلى قسم العمليات، وبعدها ينقل اثنان في كل غرفة عمليات، وتجرى لهم العمليات في القاعة الرئيسية التي تربط مداخل غرف العمليات ببعضها. كنت غارقاً بالعمل إلى آخر قدراتي ومعرفتي. الانطباعات كانت عنيفة جدا، وموت محمود لا يزال في داخلي كدمعة لم أبكها. لم يكن هناك وقت، وأنا أعرف ذلك. التركيز، والتركيز، والتركيز.

ابتعد عن كل ما يشوّش أفكارك ومشاعرك. كن عمليا وواضحا، اعثر على الواجبات الصحيحة وقم بالعمل. لكن أليس لهذا الشيء نهاية؟ هل سيستمر الوضع هكذا؟ هل هناك أحد يوقفه؟ كنت أعرف أن العالم لا يعلم ما نعلمه نحن. مصوروا التلفزيون الفلسطيني كانوا يصورون طوال الوقت

قناة الجزيرة، وقناة البريس تي في الإيرانية لديهم صحافيون، يبثون مباشرة عبر الأقمار الصناعية من خلال عربة تقف خارج مدخل المستشفى، إذا جاز التعبير بشكل مستمر. لكنهم كانوا من الفلسطينيين، ومن العرب. بطبيعة الحال، كانوا مختصين من الدرجة الأولى، صحفيين مهرة، نزيهين ودقيقين. لكن الغرب يبحث دائما عن "الأصوات البيضاء كالعادة.

كان هناك 800 صحفي في غزة خلال هذه الحرب، معظمهم من الخبراء المقيمين. حوالي مئة من الصحفيين العاملين في الوكالات المختلفة والصحف ومحطات التلفزيون، والباقي كانوا يعملون لحسابهم، لم يكن الأمر أنه لا يوجد صحفيون في غزة. كان فقط أنه لا يوجد هناك صحفيّون غربيون، وذلك نتيجة الحصار الإسرائيلي المنهجي. كانت وسائل الإعلام في غزة هدفا عسكريا، أربعة فلسطينيين صحافيين قتلوا وجرح العديد كانت وسائل الإعلام في غزّة أهدافاً عسكرية. كنا نركز دائما عليها في كل مقابلة كانت لنا على الهواء. لكن ذلك لم يساعد كثيرا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مع استثناءات قليلة، كان الصحفيون المحليون لا يُستخدمون إلا لالتقاط بعض الصور التقنية، وتوصيل بعض الصور والصوت إلى محطات التلفزيون والراديو ووسائل الإعلام النرويجية. كنت أنا وإيريك "الأصوات البيضاء ، في حين كانت الحملة الإسرائيلية الإعلامية تذيع أن جميع الصحفيين العرب هم أبواق لـ حماس . مررنا بالوضع نفسه عندما أجرينا مقابلة لمحطة "فوكس نيوز الأمريكية" مباشرة بعدما بدأنا نشرح الوضع الدقيق والقصف الإسرائيلي وتعاطفنا مع الشعب الفلسطيني وليس مع حركة حماس، كانت محطة فوكس نيوز تعرض صورة كبيرة لي في موقعها الإلكتروني وأنا أعمل بمستشفى الشفاء كتب فوقها بخط عريض: طبيب الدعاية لحماس . كان الوضع لا يطاق.

- أتى مصابون كثيرون جدد من سوق الخضار.

أحسست وكأنني مضغوط باتجاه الجدار ولا أستطيع التنفس. ذهبت نحو النافدة في نهاية قاعة الاستقبال. نظرت خارجا، فرأيت دخانا مرتفعا نحو السماء. سمعت الانفجار. سمعت سيارات الإسعاف. لم أعد أتحمل. علينا أن نوقف هذا. يجب عليكم أن تسمعوا! التقطت الهاتف الخليوي، وكتبت رسالة على الفور من دون أي تعديل: قصفوا سوق الخضار المركزي في غزة قبل ساعتين. قُتل عشرون، وجُرح ثمانون. أحضروا كلهم إلى مستشفى الشفاء. يا للهول، نحن نغرق في الموت والدم والأشلاء. أطفال كثيرون. نساء حوامل. لم أر شيئا في حياتي بهذه البشاعة. نسمع أصوات الدّبّابات الآن. أعلنوا هذا، أرسلوا هذا، أصرخوا، افعلوا شيئا، افعلوا المزيد. نحن نعيش في كتب التاريخ الآن، كلنا" مادس ج. 03-01-09 مدينة غزة الساعة 13:50

الكلمات كتبت والصرخة طلعت، لكنها مازالت كنص مرتجف في متناول اليد. لمن سأرسلها؟ لدي وقت ضيق، لذلك اخترت المجموعات القليلة التي وضعتها لإرسال الرسائل القصيرة بسرعة من غزة. اخترت مجموعة الميديا، أطفالي، وبعض من لائحة الأسماء، ليسوا بكثيرين، وضغطت على "أرسل. ، وأخذت ما تبقى من موجات الراديو، والتي لم يتم حظرها أو قصفها من قبل المخابرات الإسرائيلية وآلة الحرب، أمسكت بالكلمات ورفعتها على أجنحة غير مرئية

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

حاملة تلك الكلمات إلى المتلقين الذين أرسلوا الصرخة في الثانية الجديدة، إلى أناس آخرين.

لم تكن لدي أي خطة لشن حملة بالرسائل القصيرة، كانت مجرد صرخة، صرخة استغاثة، نداء استغاثة من قطاع غزة لأولئك الذين يمكن أن يسمعوا. كتبت التاريخ خطأ، حتما لأن الأيام والليالي اختلطت علي، واليوم الآخر هو تتمة لما كان يجري في اليوم السابق. لم يكن الثالث من كانون الثاني / يناير ولكن كان الرابع من كانون الثاني/2009 حين كتبت الرسالة.

أطلعت إيريك على الرسالة القصيرة في تلك الليلة.

- اعتقد أنها كانت أقوى رسالة كتبتها منذ جئنا إلى هنا. أليس كذلك؟

- بلى، بالطبع. أجاب إيريك.

- تصور لو كانت وسائل الإعلام الغربية هنا. تصوّر كل الإحداث التي لم يتم الإبلاغ عنها. لا يمكننا المغادرة من هنا قبل أن يأتي أشخاص آخرون يتولون الإبلاغ. يوم الأحد كان أيضا طويلا، مصحوباً بليل آخر ساخن. ولكن كان لدينا واجبات مهمة قبل أن نذهب إلى النوم. أجهزة مراقبة جديدة سوف تنقل إلى فرع غرف مراقبة القلب ومركز استقبال حالة الطوارئ، وغرفة الطوارئ. اكتشفت أن مركز مراقبة القلب المجهّز جيدا يقع في المبنى نفسه الذي كنا نسكن فيه. بعد نقاش مكثف مع الأطباء، اتفقنا على أن الوضع السيئ للمراقبة الالكترونية للمرضى في كل من غرف الاستقبال وغرف الطوارئ لم يكن مقبولا ـــ إذا كان يوجد هناك بدائل-.

كان الأمر سهلا، إذا نقلنا أربعة أجهزة لقياس ضغط الدم، وتخطيط القلب وآلة تعديل الأكسجين في الدم، من قسم مراقبة القلب إلى القسم الجراحي حيث ساحة المعركة. بعد مناقشة وإقناع، تمت الموافقة، وكان بإمكاننا تعديل مراكز الاستقبال الضرورية بأربع شاشات جديدة وتعديل اثنين من مراكز الاستقبال. وبهذه الطريقة نضاعف القدرة. لكن لسوء الحظ سيظهر لنا بعد ذلك أن هذه الأمور هي من الضروريات الأساسية تماما.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الإبادة الجماعية عن بعد

مادس جلبرت

يوم الإثنين، 5 يناير كانون الثاني. كنت مستيقظا باكرا، في الساعة السادسة، وأرسل الصور والقصص بالبريد الإلكتروني إلى وسائل الإعلام. كان الجميع نيامٌ، والقصف قد توقّف. لم ننم كثيرا ذلك الليل، كما أننا ذهبنا الليلة الماضية إلى النوم في وقت متأخر. ذلك القصف المكثف كان يوقظنا باستمرار.

في البريد الوارد، وجدت مفاجئة دافئة ومريحة: حوالي منتصف الليل تقريبا وصلتني رسالة من إنغريد إيفرستن، التي تعمل في المجال الثقافي في أطراف جزيرة سينيا - ثاني أكبر جزيرة في النرويج- التي بدأت بتعبئة ثقافية في شمال النرويج لدعم غزة. أرسلت لي رسالة، بالبريد الإلكتروني، كانت قد تلقتها من لارس برمنس، وهو موسيقي من شمال النرويج. كان من بين أولئك الذين تلقوا رسالتي القصيرة اليائسة قبل يوم واحد، وعلى الفور جلس وكتب أغنية.

تحمل تلك الأغنية،المكتوبة حديثا، عنوان سوق الخضار ، ووضعت بملف "إم بي ثري في البريد الإلكتروني الخاص بإنغريد. ارتجفت يداي قليلا حين كنت أوصل سماعات الجوال بجهاز الكمبيوتر، ونقرت مرتين على أيقونة الأغنية. صوت لارس العذب واللين ملأ داخلي حزنا لا نهاية له، لم أكن أستطيع كبح عواطفي؛ فبدأت دموعي تسيل.

كل ما كان بداخلي مسيطَر عليه انقلب، تأثرت كثيرا بنعومة صوته- على غرار صوت بوب ديلان الأجش- متوازن مع سؤال حيرني : هل كان سوق الخضار في مدينة غزة هدفا عسكريا؟ وإذا لم يكن كذلك، لماذا قصفوه بصواريخهم الذكية؟ النص كان مريرا وفيه الكثير من التساؤلات، مصحوبا بجرح، تقريبا لحنٌ حالمٌ، وعزف قيثارته الدقيق:

لديهم أسلحة حديثة جدا

لن يؤذوا أرواحا كثيرة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لديهم أسلحة حديثة جدا

مثل طبيب جراح وسكينه

تسعى فقط لأهداف عسكرية

قل لي لماذا قصفوا سوق الخضار

لديهم أسلحة حديثة جدا

بومضات كعشية العام الجديد

لديهم أسلحة حديثة جدا

ويريدوننا أن نعتقد

أنه كان فقط هدفا عسكريا

قل لي لماذا قصفوا سوق الخضار

أنظر إلى التكنولوجيا الفائقة لطائرات الهيليكوبتر

استمع إلى صرخات العصر الحجري

انظر إلى الصنادل الصغيرة المليئة بالدم

حتى لا يفوتك ما تعنيه

تسعى فقط إلى الأهداف العسكرية

قل لي لماذا قصفوا سوق الخضار

كما لو كانت تلك الأغنية رفعت بتلك العبارات التي أرسلتها الليلة السابقة. لارس برامنس كان منظم الحفلات خلال الآونة الأخيرة لـ قافلة الثقافة لقطاع غزة" في ربيع عام 2008. جولة رائعة في ترومس مع فنانين جيدين وعروض جميلة في كل من هارستا، فينسنيس وترومسو، يعود دخلها إلى غزة وإلى ورشة الأطراف الاصطناعية. تعرفنا على بعضنا جيدا في تلك الجولة، وكان لارس وسيطا مخلصا لإظهار التضامن بين شعب شمال النرويج والشعب الفلسطيني الذي عايشته كثيرا في السنوات الأخيرة. أثرت عليّ الأغنية وأصبحت مليئا بإحساس جديد وعميق، لقوة لغة الثقافة التي هي أقوى من الحصار والقصف.

تستطيع الأغنية أن تطير فوق كل الحواجز وتملأ قلوب الناس بمشاعر جديدة، المشاعر التي من شأنها أن تحثّهم على الحركة. اللغة الطبية الفاترة،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

التي نستعملها نحن الأطباء غالبا، ومسافة الأرقام المجهولة للمعاناة الحقيقية، عوّضت بتعبير جديد، تفجرت عبر رسالة جوال قصيرة كانت صرخة يائسة من أجل التغيير، ليس تقريرا طبيا ولا عملا مخططا له. كنت مليئا بمشاعر قوية، أجلس حينها ببيجامتي الزرقاء ذلك الصباح، حيث كان الجميع نياما من حولي.

رسالتنا وصلت إلى النرويج، الكلمات، الصور، وضياعنا، كلها استقبلت في الوطن ونشرت. ربما كانت قدرتنا على الإقناع أكبر مما كنا نتصور. ربما كان لقصصنا، وتقاريرنا، والمقابلات والشهادة العينية التي عشتها أنا وإيريك فقط، تأثير لم نكن ندركه. أحد الزملاء العرب استيقظ لتوّه ومر بجانبي. قلت له: تعال واسمع، لقد ألفوا أغنية عن غزة في النرويج. حصلت عليها للتو في البريد الإلكتروني. اسمع! أمسك بسماعة التلفون.

قال:

- أغنية جيدة وقوية المضمون. لكنه لم يحسّ بالدموع. فكرت أن ذلك ناتج عن الاختلاف في الثقافات. فقط سأنتظر حتى يستيقظ إيريك. استغرق الأمر ساعة قبل أن أسمعه الأغنية. كذلك أحبّ الأغنية، لكن لم تسل قطرة من دموعه. كان يتذوق الشاي والخضار مع القليل من الخبز الجاف. أخبَرَنا الطباخ أنه لم يعد هناك خبز في قطاع غزة.

أعتقد أنني يجب أن أشتري طائرة بدون طيار حين أرجع إلى النرويج. أنام بشكل جيد حين أسمع صرير هذه الطائرة. ابتسم إريك ابتسامة عريضة.

كنت أحسده قليلا على نومه السريع. ربما من السهل إيقاظ أطباء التخدير. ثلاثون سنة من العمل في النوبات، حيث الأصوات من أجهزة الاستدعاء، وأصوات الإنذارات للأجهزة اللاسلكية، حين تستدعى لحالات الطوارئ، وفي أقصى سرعة يجب أن تكون مستعدا، جعلت عادة النوم عندنا حساسة جدا حتى لأخفض الأصوات. الجراحون ينامون أفضل، لأنهم متعودون على أن يأتوا بعد أن نكون قد جهزنا لهم المريض.

الحرب العشائرية القديمة بين الجراحين وأطباء التخدير هي مصدر غني للشتائم المتبادلة، والصفات الشائنة. كان دائما لدي ميل لذلك المزاح الليلي الذي يساعد دائما العاملين في المجال الصحي ليتمكنوا من السيطرة على كثير من

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المواقف العنيفة والمؤلمة التي نتعرض إليها في عملنا. "المزاج الجيد هو مهارة" هكذا درّسنا البروفسور لارس ويسث، الذي يعمل نيستور للطب النفسي في حالات الكوارث النرويجية. لقد لعب دورا كبيرا من أجل تنمية أكاديمية سليمة الحسّ في التعامل مع ردود فعل الموظفين أثناء وبعد المجهود.

نحن نعلم أن التدريب والخبرة من أهم العوامل التي تحمي من التأثيرات السلبية للعمل المجهد لفترات طويلة. وأنت تختار هذا الوضع لنفسك، الشيء الذي اخترته أنا وإيريك، في مثل هذه الحالة، أننا محصنون من الإجهاد، ولكن ليس ضد الضغوط النفسية الهائلة التي نتعرض لها جميعا. روح النكتة عندنا بصفة عامة، وضحكة إيريك الدافئة الرنانة، ساعدتني مرات عديدة خلال تلك اللحظات حين تكون قدراتنا بدأت تخفّ واليأس في طريقه إلينا. مع أننا نعرف كثيرا عن الحرب، وفي رصيدنا خبرة كبيرة، وكلانا يعرف جيدا أنماط وردات الفعل عند الآخر، إلا أنّ الحمل كان ثقيلا علينا في هذه الحرب. والأقدار التي عشناها وشاركنا فيها كانت تفطر القلب وتهزنا وتحملنا إلى آخر حدود قدرتنا. غرفتنا كانت هي الملاذ الوحيد التي كنا نخلو فيها لنبكي ولنجدد طاقتنا، كنا نعتني ببعضنا البعض ونخلد للراحة. من دون هذه الصداقة الحميمة والاحترام المتبادل لبعضنا، لم نكن نستطيع أن نصل إلى هذه النتيجة الجيدة.

كان إيريك يتجول لفترة في غرفتنا بـ ببيجامته الزرقاء بيجامة حماس، لكنه الآن يرتدي الزيّ العملي الثابت، وهي ثياب العمليات الخضراء. كانت البيجامة مريحة ودافئة. كتغيير مرحّب به من ثياب العمليات التي تبتل دما وعرقا. لم نأت بالكثير من الملابس معنا. فقط بنطلون الجينز وسترة، وبعض الملابس الداخلية. كلانا متعود على أن يسافر بملابس قليلة. بعد سنوات عديدة في العمل الميداني نعلم بأننا يمكن أن نجلب ملابس من البلد الذي نحن فيه. من السوق المحلية أو عبر الأصدقاء.

كان ينتظرنا الكثير من العمل حين نأتي إلى غرفة النوم.

اليوميات يجب أن نعيد تحديثها، علينا أن نرد على المكالمات الهاتفية الواردة، ونجيب على طلب المقابلات المكتوبة على شكل رسائل قصيرة في الهواتف الجوالة عندما تكون مفتوحة، وأن نرد على البريد الإلكتروني عندما تكون

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

خطوط الانترنيت مفتوحة. كنت أريد تحميل صور اليوم على جهازي المحمول، وكتابة بعض القصص إلى المجموعة الصحافية النرويجية المتواجدة على الجهة الإسرائيلية شمال الحدود. كان الفريق الصحافي مؤلف من فريديك جراسفيك من محطة "تي في تو النرويجية، وجون ماغنس من جريدة الفي جي ، ولينا فرانسون" من جريدة داغ بلا"، وهؤلاء جميعاً كانوا يأخذون رفضاً مستمرا للدخول إلى غزة من قبل السلطات الإسرائيلية. هذا كان جزءا من إستراتيجية الدعاية الإسرائيلية، هدفها تعتيم أخبار غزة على الصحافة الغربية.

لكن يجب أن تكون هناك حدود، لمرات عدّة لم يسمح للصحافة الأجنبية أن تدخل إلى قطاع غزة، وكان ضباط المكتب الإعلامي للجيش الإسرائيلي يأخذون الصحافيين بالحافلات إلى الأماكن، حيث سقطت بعض الصواريخ الفلسطينية، ليطلعوهم على تلك الحفرة الصغيرة في الطريق التي كانت من جراء الصواريخ. شعرت بمسؤولية كبيرة بأن أوصل بعض الصور والنصوص يوميا إلى أولئك الصحافيين، بحيث تكون لديهم المواد لإرسالها للوطن" النرويج" في المجموع كنت أرسل مابين 20 و30 رسالة قصيرة مرفقة بملصق لصحافيين نرويجيين عدة. قطرة في البحر، لكنها جديرة بالثقة حيث أنها معلومات من الداخل .

هذا العمل أيضا كان يستغرق الوقت الطويل. بالطبع لم ندع المقابلات التلفزيونية ولا حتى الاتصالات مع وسائل الإعلام على حساب عملنا الأساسي كأطباء ووقتنا لمرضانا. أيدينا الأربعة، وعينا كلّ منا، وتجربتنا الطبية الواسعة، زادت بالطبع القدرة في مستشفى الشفاء. وعلى الرغم من ذلك كانت كقطرة في بحر. كان لدى المستشفى أكثر من أربعمئة طبيب باختصاصات مختلفة، ومن دون شك، كان باستطاعتهم أيضا القيام بكل الأعمال بما فيها الجراحة والتخدير والعناية الفائقة من دوننا، مع تلك الأوضاع القاسية.

في حال كان لدينا اتفاق على مقابلة مع الأناركو أو سي إن إن مباشرة، كان يعلم الفريق الذي من حولنا، وكانوا يساعدوننا في الانتباه إلى الوقت. بالطبع لم نتوقف في عملية جراحية أو أي إجراء آخر فقط لنتكلم مع وسائل الإعلام، ولم نترك مريضا كنا نعالجه لإجراء مقابلة. كنا دائما نقول، فلينتظروا. كان الجوال يرن باستمرار،أو كان الفريق التلفزيوني يصور شيئا آخر إلى أن نكون نحن جاهزين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قسّمنا المقابلات فيما بيننا وكنا نحاول، لا أكثر ولا أقل، أن نرد على وسائل الإعلام المختلفة. على سبيل المثال، كان إيريك دائما مع سي إن إن، وأنا كنت مع البي بي سي والبـــريس تي في، في حين كنا نتناوب في الرد على القنوات النرويجية، وكنا نعطي حوالي ما بين عشرة وخمسة عشر مقابلة يوميا إلى كل أنواع وسائل الإعلام من العالم. بالإضافة إلى أن علينا أن نأكل شيئا ونتحدث إلى أصدقائنا وزملائنا الذين ينامون معنا في الجناح نفسه من المستشفى. كنا نحدّث معلوماتنا عن المعارك من خلال تلك الحوارات مع الأصدقاء والتي كانت دائما تجرى بالإنجليزية أو تترجم إلى الإنجليزية من صديقنا التقني الشاب الذي كان يساعدنا في ربط الإنترنيت وبعض الأشياء الصغيرة. وكان أيضا يترجم لنا حين كنا نشاهد الأخبار في التلفزيون الذي كان دائما مفتوحا في غرفة النوم الكبيرة". في الغرفة المجاورة هناك زملاؤنا الأطباء العرب.

عندما تعمل خطوط الإنترنيت كنا نذهب إلى المواقع النرويجية والعالمية على قدر ما يسمح لنا الوقت والاتصال. كنا دائما ننام متأخرين ونكون أوائل

اجواء من الفرح حول مائدة الفطور. الدكتور مادس واضح كالبيضة التي في يده.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المستيقظين. كان هناك ضغط على الكابل الأبيض الذي يوصلنا بالإنترنيت. اكتشفت أن أفضل وقت لاستعمال الإنترنيت كان بين الخامسة والنصف إلى السابعة والنصف؛ عندها تكون الشبكة لي أنا فقط لأن الآخرين نيام. القصف يكون قليلا في ذلك الوقت الذي نسميه في شمال النرويج صباح الليل الساعات الأخيرة من الليل. ساعات الصباح تمدني بسكينة لتلخيص وصياغة أفكاري وتقديم التقرير إليهم في الخارج. أقصد كلاً من رجال الإعلام هنا في المستشفى واتصالاتي في النرويج. إيبا ويرغيلاند كانت منسّقة لا تعوّض في النرويج لتوزيع الصور والمعلومات وتزويدنا بالإجابات.

ايبا طبيبة متخصصة في الطب المهني وواحدة من المستشارين في حركة التضامن النرويجي مع فلسطين. كانت إيبا المنسق للفريق الجراحي الذي عمل في بيروت الغربية عام 1982،وقامت بجهد كبير بالتعاون مع إيريك الذي كان في ذلك الوقت منسقا للفرق الطبية التي أرسلت من النرويج. إيبا لها شبكة كبيرة من الاتصالات في العالم العربي، وتملك خبرة لا بأس بها عن المشهد السياسي في المنطقة.

الاتصال المنتظم معها ومع الآخرين، والتقييم المستمر والملاحظات التي كانت تقدّمها لنا بعد كل ظهور لنا مع أجهزة الإعلام، كانت مهمة. كذلك ابنتاي الشجاعتان أيضا كانتا تمدّاني بملاحظاتهما المهمة على بعض المقابلات. دعمتاني من اللحظة الأولى للذهاب، وأرسلتا لي بحرا من الرسائل الدافئة والمشجعة، وفي الوقت نفسه كانتا منهمكتين بشدة في العمل التضامني مع غزة في النرويج. كان من الصعب جدا أن نقدّم لقاءات عدة، بلغات مختلفة وثقافات مختلفة،من غير فرصة لرؤية هذه المقابلات؛ لكي نقدم نقدا ذاتيا لأدائنا. لم يكن متاحا لنا أن نشاهد التلفزيون. بشكل عام كنا نرى القنوات العربية: الجزيرة والأقصى والعربية. كنا نرى بعض الومضات عندما كنّا نمر في بعض الأماكن القليلة التي يوجد فيها التلفزيون. لذلك كانت الردود، خاصة من إيبا ونينا، وزوجة إيريك، وبناتي مهمة ومفيدة. ساعدونا لتصحيح أنفسنا عندما كنا ننجرف في عواطفنا، ونتحدث بصوت عال أو ملح. استمروا بعملكم. أخبروا العالم ما ترونه وتعيشونه، وكونوا دقيقين، هذا هو المهم. تلك كانت بعض الردود من نينا وإيبا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كانت تلك الطائرات الإسرائيلية، بدون طيار، تحلق ليلا نهارا، نسمع أزيزها المرهق للأعصاب، وكان لا يتوقف أزيزها إلا بشيء أفظع وهو صوت الانفجارات المدوي. على مسافات متفاوتة من المستشفى. (درونا) اسم الطائرات بدون طيار وباللغة الإنجليزية، Unmanned aerial vehicle (UAV).

هذه الآلة الشيطانية كانت تستعمل فوق فلسطين المحتلة. يستعملونها للمراقبة ولجمع المعلومات ولتسديد الضربات.

يساعد المرح على التحمل اثناء الازمات والكوارث. من اليسار: طالب الطب محمد ابو زنونا، الدكتور عبد الغفار الزعانين والدكتور محمد الرن.

كما يمكن تزويدها أيضا بأسلحة وبصواريخ موجهة بالليزر من نوع هيلفاير وسبايك (صواريخ أطلق وانسَ) هذه الصواريخ مزوّدة برؤوس متفجرة تتبع الحرارة. منذ زمن وإسرائيل رائدة في تطوير هذا النوع من الطيران، وتصدر الكثير من هذا السلاح. ويستخدم الجيش الإسرائيلي هذه الطائرات، كما سبق وذكرت، للمراقبة ولجمع المعلومات وكأسلحة هجومية. الصناعة العسكرية الإسرائيلية كانت تطوّر دائما أصنافا جديدة من هذه الطائرات بدون طيار،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وكانت للتوّ قد سلّمت سلاح الجو الإسرائيلي نوعا جديدا اسمه (هيرون). النوع يسمى (شوفال) وهو منافس مباشر لطائرة (بريدايتر إي أ) أو (أل إم كيو 0-1) الأمريكية الصنع. (شوفال) تزن 2،1 طن، وتستطيع أن تبقى أربعين ساعة في الجو. وتستطيع العمل على علو قدره 30000 قدم، ويمكن أن تبرمج لتقلع وتهبط أوتوماتيكيا بعد إتمام العملية. مع مرور السنوات أصبح عندي ألفة مع هذه الطائرات بدون طيار التي تحوم دائما فوق غزة. المواطنون في غزة تعوّدوا عليها. لكنهم يغضبون عندما تسبب التشويش على قنوات التلفزيون أو الجوال خصوصا عندما حدث ذلك أثناء مباريات كأس العالم. وهذا الشيء عشته في غزة بيوليو 2006. يتم التحكم بالطائرات عن بعد بواسطة مشغّل. والذي هو عادة "طيار الطائرة من غير طيار . من غرفة التحكم الآمن في عمق إسرائيل. من هناك كانوا يستطيعون السيطرة على هذه الطائرات وإرسالها إلى المناطق المحدّدة التي يريدونها. الكاميرات المنصوبة في الطائرات الأمريكية الصنع (بريدايتر) عالية الجودة، بحيث يستطيع المشغّل أن يعرف فيما إذا كان الشخص رجلا أو امرأة أمامه على الشاشة. يقول الخبراء العسكريون الأمريكيون،الذين يهتمون بمثل هذا النوع من آلات الموت الروبوتية: "من الممكن تماما للمشغّل معرفة ما إذا كان الناس على الأرض أطفالاً. أطفال يلعبون على سطح المنزل أو أطفال يلعبون الكرة أمام باحة المنزل.

توجد مسؤولية إنسانية على هذا الجندي الذي يبحث عن هدف. يسدّد ويطلق النار من سلاحه المميت تجاه المدنيين من النساء والأطفال، بينما هو يجلس محميا في بلده، بعيدا مئات الكيلومترات عن الهدف. هذا الجندي الذي يدير الطائرات بدون طيار من ملجئه البعيد سوف يذهب للبيت لتناول الغذاء بعد عمل اليوم، أو ليأخذ أطفاله إلى مباراة كرة القدم. رائحة القتلى لا تبقى فقط على أرض المعركة،حيث قتلوا، لكن تصل إلى مقبض جهاز التحكم وإلى يدي من يدير جهاز التحكم. المسافة بين الفعل والنتيجة والمسؤولية لا تقلّ إذا كان سلاح الجريمة ليس بيد القاتل. طيّارو الطائرات بدون طيار عادة هم طيارو سلاح الجو الإسرائيلي. ويؤدون عملهم القاتل من مقطورات مجهزة تجهيزا جيدا ومكيفة أو من ملاجئ آمنة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كنا نسمّي الغرفة الصغيرة إلى جانب مجمع النوم (مكتب غزة). كانت مركز الاتصال كان الدكتور مادس يقرا ويرد على البريد الالكتروني ويستمع الى الاخبار على المواقع الاخبارية في الانترنت ويحرر ويعالج الصور على ضوء مصباح الراس الطبي.

يرى مشغل الطائرة بدون طيار (بريدايتر) تفاصيل الميدان على شاشة كبيرة بالحائط، ويقتل الأعداء بكبسة زرّ على جهاز الكمبيوتر. "لا خسائر في جنودنا" هذه هي حجّتهم الرئيسية لبيع الطائرات بدون طيار. الموقع الإلكتروني التجاري لمنتدى الطائرات بدون طيار، (درونا فوروم)، يستعمل هذه الحجة كتفسير للنموّ المتزايد لصناعة وبيع الطائرات من دون طيار، وخاصة للجيش الأمريكي. ينطبق الشيء ذاته على إنتاج الطائرات دون طيار الإسرائيلية. يكتب الموقع نفسه في صفحاته الإلكترونية أن الأسباب الرئيسية للاهتمام بمثل هذا النوع من الطائرات هو التزايد السريع للعسكريين والسياسيين في الولايات المتحدة. كما أن المناخ السياسي وبشكل متزايد يضع عدم الخسارة للأشخاص كشرط مسبق لإدخال الجيش الأمريكي في القتال.

يختتمون حججهم بالخبرة المكتسبة من حرب الخليج، من الأفضل أن ندع المهام القذرة والخطرة والمملة للطائرات من غير طيار، على الرغم من أنّ

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الخسائر المادية لقواتهم انخفضت إلى الصفر، فإن تشغيل آلة القتل هذه لا يتم بدون تكاليف لمن يشغلها.

غالبا يحومون بالطائرة من غير طيار فوق الهدف بعد الهجوم لتقييم الأضرار. عندما يتابع المشغلون الهدف ليروا نتائج ما فعلوا، عندها تصبح الحرب شخصية بالنسبة لهم. هكذا يقول الكولونيل كريس تشامبليس، قائد الجناح 432 في قاعدة كريتش الجوية في ولاية نيفادا، بمقابلة: "لديك صورة جيدة للأفراد على الأرض، هذه الصور، يمكن أن تكون صورا فوتوغرافية أو صور فيديو حية. ومثل هذه الأشياء نحاول أن نصدّها، نعرف أن البعض لديهم مشاكل في بعض الحالات. هذا الضغط النفسي الذي يتعرض له مشغلو طائرات من غير طيار يشبه الضغط الذي يتعرض له الجنود على أرض المعركة؛ لذلك وضعت وزارة الدفاع الأمريكية رجل دين لدعم الطيارين نفسيا. يقول الكولونيل ألبرت ك أيمار، قائد جناح الاستطلاع 63 في القاعدة الجوية نفسها، و الحائز على بكالوريوس في علم النفس: عندما تكون في طائرة حربية أو طائرة قاذفة للقنابل بسرعة 800 أو 900 كلم في الساعة، وترمي قنبلة بوزن 250 كلغم وتحلق عاليا، لا ترى ماذا يحدث وراءك. لكن عندما تطلق صاروخا من الطائرة البريدايتر، ترى نتائج الإصابة حية، هناك أمامك، فتصبح المسألة شخصية بالنسبة لك."لذلك يبقى ذلك المشهد في فكرك لمدة أطول.

كيف يمكن للمرء أن يتصدى لتأثير الصور الحية التي تظهر الأطفال القتلى أو المدنين الأبرياء المقطعة أشلاؤهم. هل من المعقول أن من يؤدي تلك الهجمات المركزة على المدنيين، ويرى تلك الصور واضحة، يمر عليه الأمر من غير أن يترك جرحا عميقا في داخله؟ هل من المعقول أن الطيار يعرّف أهدافه بـ "الآخرين الذين يختلفون عنه، هل هم أقل قيمة منه؟

كانت الساعة الواحدة والنصف بعد ظهر يوم الاثنين. أنجز الكثير في مكتب غزة". قمنا نحن الاثنان بتسليم البريد، وقمنا بعدد من المقابلات. أفواج المرضى بدأت تزداد عندما دخلنا إلى استقبال الطوارئ.

- من فضلك دكتور مادس، إنهم يحتاجونك في غرفة الطوارئ. سحبني الممرض برفق من سترة ساعدي. لقد كان صباحا بارداً، وكنت متجمدا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بعدما كنت جالسا أعمل في هدوء. السترة الخارجية جيدة للاختباء فيها. بداخل غرفة الطوارئ، كانت فتاة صغيرة، مستلقية هناك، مصابة في الرأس، يسمع غرغرة في تنفّسها ورأسها ينزف. تلقيت تقريرا موجزا.

- شظية في الرأس، على ما يبدو. غير واعية، لكنها تتنفس. أصوات التنفس جيدة من كلا الجانبين. غير متأكد من نوع السلاح، ربما كان صاروخا. أجريت فحصا للمجاري الهوائية لأتأكد من تنفسها، وبعدها بدأت بفحصها من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، ومن الأمام والخلف. تعاني من جرح متوسط في الرأس، لكن كان من المزعج عدم التواصل معها. في حالات إصابات الرأس، مستوى الوعي مؤشر مهم على خطورة الوضع. فتح العينين، القدرة على الكلام، نمط الحركة يقاس على سلّم رقمي. حيث مجموع النقاط التي يحصل عليها هي التي تحدد مستوى الوعي عنده. مثل هذا القياس يجعل من السهل التمييز بين إصابات الرأس الطفيفة، والمتوسطة، والخطيرة. كلما قل مستوى الوعي، كلما أصبحت إصابات الرأس أخطر. كانت الطفلة تئن، لكن عندما أدخلنا القسطرة الوريدية وضمدنا الرأس رمشت عيناها وقامت بردة فعل.

سألتُ بقية أعضاء الفريق:

- لا نحتاج لوضعها تحت التخدير. إنها تتنفس جيدا، ويبدو أنها على وشك الاستيقاظ. هل أنتم موافقون؟

قال الدكتور الشاب رامي سهيل السوسي، جراح أعصاب بصوت هادئ:

- موافق.

- هيا بنا بسرعة لنأخذها إلى سي تي (تصوير المسح المقطعي المحوسب) لنرى حجم الإصابة.

سألت الدكتور رامي:

- هيا بنا نخرج من هنا. سآخذ الأجهزة التنفسية، يجب أن نأخذ معنا الأوكسجين.

سألت الدكتور رامي:

- هل نأخذها نحن الاثنان إلى فوق؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تصوير الأشعة انتهى سريعا، وأظهرت الصور كسراً في الجمجمة، لكن لم يكن هناك إصابات في الأنسجة أو في الدماغ نفسه، ولم يكن هناك أي نزيف بين الدماغ والجمجمة. مثل هذا النزيف يمكن أن يكبر في الجمجمة ويبدأ بالضغط على الدماغ مما يؤدي إلى عطب الدماغ وتوقف الدورة الدموية فيه، عندها يموت المريض. جراحة سريعة يمكن أن توقف مثل هذه الكارثة. لكن ذلك يتطلب خبرة عالية وأجهزة سي تي جيدة للتشخيص.

كان هناك العديد من إصابات الرأس عند الأطفال، ومعظمها كانت قاتلة. وهذا يفسّر أن ربع من ماتوا وكان يبلغ عددهم 1400 و5400 جريح، كانوا أطفالا. على الأرجح أن الأطفال لم يستوعبوا إشارات الخطر مثل البالغين. كما أن الأطفال أصغر حجماً من الكبار؛ ولذلك هم عرضة للأسلحة التي تعمل على مستويات منخفضة وترسل أسرابا كثيرة من الجزيئات كقنبلة الدايم. السبب الرئيسي للأعداد العالية من المصابين وقتلى الأطفال تحت سن 18، كان بشكل خاص الوضع الديموغرافي في غزة، حيث أن متوسط عمر السكان فيها هو 4-17 سنة، ويشكل الأطفال ما بين سن صفر-14سنة قرابة 45% من مجموع سكان غزة؛ وهذا يجعل من غزة سجنا للأطفال. وعندما تختار قوات الدفاع الإسرائيلية أن تقصف من الجو هذا السجن الذي يضم الأطفال، يكون طبيعياً أن يقتل أو يصاب عدد كبير من الأطفال. تؤكد الصور من مستشفى الشفاء والأرقام من وزارة الصحة ومنظمة الأمم المتحدة الشيء نفسه كل يوم. أطفال تقتل، وأطفال بإصابات خطيرة بأعداد كبيرة كل يوم. لكن إسرائيل لم تظهر أي إشارة بأنها ستوقف هذه الهجمات. على الرغم من القتل اليومي والتشويه الموثّق للأطفال الأبرياء. عينا الطائرات من غير طيار الثاقبة تظهر كل يوم للطيارين الإسرائيليين ماذا يقصفون. سواء أكانوا يجلسون في غرفة المراقبة والسيطرة، أم في طائرات الهيلكوبتر أباشي أو في قاذفات اف 16. أنتم تدينون لنا بشيء واحد فقط وهو: الحقيقة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

العديد من الاصابات الخطيرة عند الاطفال الجرحى كانت اصابات الراس. الطفلة الصغيرة كانت فاقدة الوعي، لكنها استعادت وعيها تدريجيا ونظرت من حولها. انها الفتاة التي في صورة الغلاف.

كانت الطفلة الصغيرة تستيقظ، وتنظر إليّ باستغراب، نظرة لطيفة ومن غير خوف، كما لو كنت واحداً من أقاربها. دثّرتها بلحاف حتى لا تشعر بالبرد. شعرتُ بالارتياح كموجة من الفرح؛ تلك الطفلة الجميلة الصغيرة ستستيقظ ولن تموت. سترى وستتكلم وتفهم ولن تبقى فاقدة الوعي. ربما أن ذلك القدر ليس مناسباً لها. من الممكن أن الموت كان أفضل لها!. حذفت هذه الفكرة من رأسي بسرعة. الحياة دائما أفضل، هكذا كانت وستكون دائما، وإلا لن تستمر الحياة.

- لا تحتاج إلى عملية جراحية. سنأخذها إلى قسم الأطفال، وتخضع للمراقبة. أصبحت الساعة الثانية، شعرت بنوع من الارتياح حيث إن طفلا لن يموت بسبب الإصابات هذا اليوم. في استقبال الطوارئ كان يأتي دائما مصابون جدد. في إحدى سيارات الإسعاف،البرتقالية اللون، كان هناك رجل طريح بدمه في الثلاثينيات من عمره، مستلق على ظهره بملابس داخلية فقط، مرشوش بالدم مع إصابة في رجله اليمنى التي كانت في وضع ملتو. كان يتنفس ولم يكن في وعيه. أدخلناه على الفور إلى غرفة الطوارئ، وبدأنا بعلاجه.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أولا بدأنا بفتح مجرى الهواء عنده وذلك بوضع الرأس إلى الخلف، والاستماع إلى التنفس، وضعت السماعات الطبية لأسمع جيدا تنفسه من كلتا رئتيه. إن لم تكن المجاري الهوائية مفتوحة، والتنفس غير مسموع في كلتا الرئتين، فهذا يعني أن شيئا ما يعيق التنفس في المجاري الهوائية عنده، أو وجود جروح في تجويف الصدر حيث يتجمع الهواء أو الدم أو كلاهما معا. في جميع الأحوال، يجب أن تفتح المجاري الهوائية وتحلّ مشكلة التنفس أولا. لأن هذه،التي نسميها كائنات جرثومية، تعتمد بشكل كلي على الأوكسجين. وضعت كمامة الأوكسجين، وفتحتها وأدرتها.

مستشفى الشفاء، بالمقارنة مع المستشفيات الأخرى في غزة، مجهز بماكينات تستطيع أن تستخرج الأكسجين من الهواء، التي تسمى بمولدات الأوكسجين. لذلك لم يكن المستشفى يعتمد على استيراد الأكسجين في قوارير من إسرائيل. والتي ستكون من الأشياء التي سيشملها الحصار الإسرائيلي على غزة.

كان ذلك ذا مغزى قوي: حصول الجرحى الفلسطينيين على الأكسجين الحيوي المصنع في المستشفى الفلسطيني، على الرغم من كل محاولات الخنق من إسرائيل، أظهر أهمية العمل على المدى الطويل. كان عند الرجل بتر في الساق اليمنى تحت الركبة، وحروق في الساق اليسرى. من خلال الفحص من رأسه إلى أخمص قدميه، لم نجد إصابات أخرى. الدم كان ينزف من الرِّجل المصابة. ويجب إيقاف النزيف في الحال، فضلاً عن تحرير المجاري الهوائية، والمحافظة على التنفس بشكل جيد. نحن نعتمد على الكريات الحمراء في الدم، لكي تنقل الأكسجين من الرئتين إلى الأوردة حيث يتحرر الأكسجين من الكريات الحمراء ويصبح متاحا للخلايا. كل نقطة دم تحتوي على مادة الهيموجلوبين الحيوية، والتي تكسب الدم الصبغة الحمراء وتحتوي على مادة الحديد. خسارة الدم تعني خسارة إمكانية نقل الأكسجين.

قلت:

- اضغط على الشريان في داخل الفخذ! واضغط بقبضتك عليها بقوة، هكذا نوقف النزيف مؤقتا، وفي حين نحضّر لإغلاق الجرح، يكون النزيف قد توقف.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أحضرنا الضماد وبدأنا في إدخاله بفتحة الجرح، لكي نشكل ضغطاً معاكساً عميقا داخل الجرح. هذه العملية مؤلمة جدا؛ لذلك أعطيته جرعة من الكيتامين في داخل عضلات الفخذ قبل أن نبدأ. كانت ساقه تقريبا شبه ممزقة في وسط الرجل. طلبت سكينا ومقصا، وشذبت بقية العضلات والأعصاب والأوعية الدموية، لإزالة الساق المعلقة. الرجل المقطوعة وضعت في صندوق من الورق المقوى. وفقا للشريعة الإسلامية، تدفن الأطراف المقطوعة ولا يتم إتلافها كما نفعل عندنا في الغرب.

هذا النوع من السيطرة على النزيف فعال وسهل، ويمنع خسارة الكثير من الدم. أفضل بكثير من طريقة الربط القديمة أو "تورنيكيه التي ما تزال تستعمل من قبل البعض للأسف."تورنيكيه تزيد من النزيف وإمكانية الموت. في مثل هذه الحالة التي بها إصابات باليدين أو الرجلين، يجب أن تستبدل بالطريقة الأسهل والفعالة، التي هي عملية حشو الجرح ولفه بالضمادات المرنة. جئنا بطريقة الخطوات الأربعة في علاج الطوارئ لمثل هذا النوع من النزيف، والتي تتضمن

فلاح عجوز ينتظر عملية بتر ليده اليسرى. كان يتسأل: لم افعل لهم شيئا ما؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أربع خطوات: الضغط على الشريان الذي ينزف، رفع الطرف الذي ينزف، وحشو الجرح، ووضع ضمادة مرنة طويلة. في العديد من المناطق التي توجد فيها إصابات الألغام بشكل مستمر مثل كمبوديا وكردستان، تستعمل هذه الطريقة بعد تدريب منسق.

الأبحاث، التي قمنا بها في مناطق الحرب والألغام، أظهرت أن هذه الطريقة البسيطة يمكن للجميع أن يتعلمها، يوقف كل النزيف الحاد ويزيد من إمكانيات النجاة عند المصاب مثل حالة هذا الرجل. تمّ حشو الجرح، لكن ذلك أخذ بعض الوقت، وسيطرنا على النزيف، وكان المريض يتنفس جيدا وبانتظام، هناك حيث يستلقي بثيابه الممزقة ورجله المقطوعة. ماذا كان يفعل حين أصيب؟ ما الذي أصابه؟ قنبلة الدايم؟ بعد ثماني دقائق من علاج هذا المصاب، دخلت حالة بتر أخرى إلى غرفة الطوارئ. طفل ربما في الثانية عشرة من عمره. الرّجل اليمنى كانت شبه معلقة عند الورك، وقدمه اليسرى أيضا كانت شبه مقطوعة. كان يتنفس بصعوبة، حصل على مساعدة في التنفس والأكسجين. حياته انتكست بسرعة، فقط بعد تسع دقائق من دخوله، كان علينا أن نستسلم، لأن قلبه توقف، ولا يمكن أن نفعل شيئاً لجراحه المميتة. كلّ من هؤلاء المصابين من المؤكد أنهم أصيبوا جراء انفجار شديد القوّة الذي تسببه القنابل المعروفة باسم الدايم. هذا النوع من السلاح هو الوحيد الذي يمكن أن يسبب مثل هذه الجراح. والذي سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل باستعماله في الهجوم على لبنان في عام 2006. شاهدت هذا النوع من الإصابات لأول مرة في مستشفى الشفاء في صيف 2006 عندما نفّذ الإسرائيليون عملية مطر الصيف" وشرحت ذلك في مجلة نقابة الأطباء. نقلنا الرجل صاحب الرجل اليمنى المقطوعة إلى قسم العمليات، كانت حالته مستقرة والنزيف كان تحت السيطرة؛ لذلك لم يكن من الضروري الإسراع في العملية الجراحية، يمكنه أن ينتظر حتى الصباح.

– لكن من يعرف ماذا سيجلب لنا الغد؟

كان قسم العمليات مليئا بالمصابين، وطابور من المرضى ينتظر في الصالة. وقعت عيناي على رجل مسن، نظر إلي بالنظرة نفسها المتسائلة لتلك الفتاة الصغيرة في وقت سابق ذلك اليوم: ماذا حدث؟ لماذا أنا؟ تحدثنا معاً وأخبرني

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بأنه مجرد مزارع وبأنه لم يمتلك قط سلاحا ولم يحدث قط أن شارك في نشاط سياسي.

لم يكن لدي جواب. كانت يده اليسرى معطوبة ولا بد من بترها. كان يجب إجراء العملية له في المدخل لعدم وجود مكان فارغ في غرف العمليات. بعد فترة أجريت له عملية البتر. من الآن فصاعدا، يجب على هذا الرجل المسنّ أن يجلب قوت عيشه بيد واحدة. في قطاع غزة يحتاج المرء لأربع أيادٍ حتى يستطيع أن يعيل عائلته. هكذا يقولون. أربع مرضى جميعهم مدنيون وجميعهم أبرياء. قدرهم محتوم، وربما هذا هو بالضبط نوع من المصير الذي يعطي معنى لتصريح الرئيس بيريز، عندما قال إن الهجوم على غزة، هو لتوجيه ضربة قاسية لشعب غزة، وهذا هو بالضبط الهدف الذي وصل له الحائز على جائزة نوبل للسلام.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فقط أطفال حماس

إيريك فوسا

استيقظت مرات عدّة أثناء الليل على قصف مكثف. سريري محاذٍ للجدار، تحت نافذة كانت دائما مفتوحة، على الرغم من برودة طقس يناير.

كان اليوم الثلاثاء السادس من يناير. السجادة البنية والبرتقالية اللون ترفرف كلما تساقطت القنابل في مكان قريب. كان لدي اتفاق مع قناة أخبار (تي في تو) حول مقابلة سأجريها الساعة السابعة مساء بتوقيت النرويج. كان الوقت تقريبا الساعة الثامنة في غزة التي يكون توقيتها متقدماً عن توقيت النرويج. كان مادس منهمكاً تماما أمام جهاز الكمبيوتر. يقرأ البريد الإلكتروني، ويحرر الصور، يرتدي مصباح الرأس حتى لا يزعجنا. كنت أسمع همهمات وشتائم حين كان يتصفح الأخبار، من الواضح أنها لم تكن أخبار جيدة عن غزة. في المقابل، كانت هناك الكثير من المظاهرات والاحتجاجات ضد القصف الإسرائيلي، هذا على الأقل كان شيئا إيجابيا. الآخرون نيام، يستيقظون كل يوم في الخامسة صباحاً للصلاة، ثم يذهبون مرة أخرى للنوم حتى التاسعة والنصف. اتصلت قناة (تي في تو) الإخبارية قبل الثامنة بدقائق، وسألت عن الجديد.

- بعد أربعة أيام من الغزو، كنا نسمع أن القوات الإسرائيلية تقترب. كان يبدو أن القصف مركزاً وممنهجاً على الأهداف المدنية. عدد الأطفال الذين يصابون يزداد، وهناك نقص حاد في المعدات الطبية الضرورية. وعلى وشك أن ينفد الوقود اللازم لمولدات الكهرباء، والتي أدت بالفعل إلى إغلاق اثنين من المستشفيات المتخصصة، مستشفى لأمراض العيون والآخر لطب الأطفال. مستشفى الشفاء لديه وقود تشغيل المولدات الكهربائية لمدة يومين فقط. بعد ذلك لن يكون هناك كهرباء. هكذا شرحت لهم.

علمت عن إغلاق اثنين من المستشفيات قبل يوم واحد، ويفترض أن السلطات الصحية قد أغلقتهما لتوفير الوقود وإعطاء الأولوية لمستشفى الشفاء. الآن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الأولوية لعلاج المرضى الذين أصيبوا في الحرب، بينما لم تعد الرعاية الصحية متوفرة في قطاع غزة للأطفال الذين يعانون من أمراض مزمنة أو مرضى العيون والأمراض غير القاتلة. الرعاية الصحية لمثل هؤلاء المرضى كانت منذ زمن ليست جيدة بسبب الحصار، ولكن في أسابيع الحرب، اختفى هذا العرض تماما. كانوا من بين ضحايا الحرب الخفيّة. بعد المقابلة، ذهبت إلى استقبال الطوارئ. في الخارج كانت الشمس مشرقة، والطائرات بدون طيار تحوم من فوقنا. الطقس ما يزال باردا. سمعت المروحيات العسكرية، لكن تبدو كما لو كانت بعيدة. في استقبال الطوارئ كانت هناك مجموعة من الممرضين والأطباء وطلبة الطب.

قلت: Good morning صباح الخير، هل كانت ليلتكم هادئة؟.

يرافق الاخ الكبير اخته الصغيرة الى المستشفى. نسمع طوال الوقت كنا صوت الطائرات من دون طيار ودوي الانفجارات.

ابتسم سامي لبد، أحد الممرضين: لا، دكتور إيريك. لم تكن ليلة هادئة.

رأيت الدموع في عينيه وشفتيه ترتعشان، بعدئذ نزلت قطرات الدموع على خده، وهو يقف هناك، محاولا أن يبتسم. أحد طلاب الطب بدأ بالبكاء أيضا. قبل أن نعرف ما الذي وقع. بدأنا كلنا في البكاء. كنا خمسة بالغين، طبيبين،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وممرضين، وطالب طب. وقـفـنا هـناك ذلك الصـبـاح نبكي. ليل نهـار كـان الفلسطينيون يأتون بإصابات خطيرة. أطفال وشباب ومسنون، نساء ورجال. منازلهم اختفت واحداً تلو الآخر، أماكن العمل دُمِّرت تماماً. وما زالوا مستمرين في القصف. كنا نشعر بحالة من اليأس. فهمت أن الموظفين في المستشفى وصلوا إلى درجة لم يعودوا معها يستطيعون التحمّل.

عاشوا لمدة عشرة أيام متواصلة في خوف دائم على أرواحهم وأرواح عائلاتهم ومنازلهم. كانت الحرب تقترب يوما بعد يوم. في كل يوم كان يعلو دوي الانفجارات. والمنازل تهتز أكثر فأكثر. وطائرات دون طيار ومروحيات حربية كانت تحوم دائما من فوقنا. خلال الليل قصفت الطائرات الإسرائيلية عددا من المنازل في قلب مدينة غزة. كانت تلك الهجمات التي أيقظتني. في الساعة السادسة كان قد أصيب مبنى سكني مؤلف من أربعة طوابق سكنية لعائلة الداية الكبيرة. جمع الجدّ جميع أبنائه وأحفاده. 30 من أفراد العائلة لقوا مصرعهم، وغالبيتهم من الأطفال. ومن كان على قيد الحياة جاء إلى المستشفى...

سمعنا العديد من الانفجارات، مازالوا يقصفون داخل أو خارج المدينة. بعد بضع دقائق جاءت سيارة إسعاف بامرأة بجروح طفيفة. انشغل الموظفون، ولم يكونوا في حاجة إلي. خرجت من استقبال الطوارئ، وفتحت الهاتف المحمول. كان مليئا بالرسائل القصيرة من وسائل إعلام نرويجية تطلب مقابلة. حاولت الاتصال، لكن كان الأمر مستحيلا.

على الدرج الخارجي، التقيت بالدكتور صبحي الذي أعارني مكتبه والذي يتفهم أهمية الصحافة الأجنبية وما تكتبه عما يحدث في قطاع غزة.

في مكتبه يمكنني أن أتلقى المكالمات الهاتفية.

قال الدكتور صبحي:

- يجب أن أذهب وأرى إن كانت هناك أسرّة شاغرة. المستشفى مليء والمصابون يأتون باستمرار. سنحاول اليوم إجلاء بعض المرضى إلى مصر.

بعد أن كانت إسرائيل قد سيطرت على الطريق بين مدينة غزة ورفح منذ يومين، كان على الصليب الأحمر الدولي ترتيب القوافل مع المرضى والطلب من

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إسرائيل التصريح للمرور. أصبحت الإجراءات معقدة حيث قدّم مستشفى الشفاء في غزة قائمة بأسماء وتشخيصات للجنة الصليب الأحمر الدولية.

ويجب عليهم كذلك الاتصال بمستشفى العريش في مصر. كل المرضى الذي سيتم إجلاؤهم من غزة سينقلون إلى هناك. ومن هناك يمكن إرسالهم إلى مستشفيات أوروبية أو عربية أو لمستشفيات أخرى في مصر. أرسلنا بعض المصابين إلى مستشفيات أخرى في مدينة غزة تمتاز إصابتهم بالبسيطة وذلك مراعاة لنقص الموارد في تلك المستشفيات.

استلقيت بظهري على كرسي الدكتور صبحي الجلدي الناعم. كان مكتبه كبيرا أكبر من مكتب مدير مستشفى ريكس هوسبيتال في أوسلو. والكرسي كان أفضل من الذي كنت معتادا عليه. أرسلت رسالة قصيرة إلى كل وسائل الإعلام النرويجية والأجنبية الذين حاولوا الاتصال بي خلال اليومين الماضيين. أعطيتهم رقم الدكتور صبحي. وبدؤوا الاتصال بي واحدا تلو الآخر.

اتصل يون أيفن هاتفيا وأخبرني أنه وممرض التخدير داغفين بيوركليد يقفون على حدود رفح.

– أعتقد أن داغفين سيعبر الحدود في غضون ساعة من الزمن.

حذرت أن الأمر يمكن أن يكون صعبا للوصول آمنا إلى مستشفى الشفاء.

كنا نعرف نحن الاثنين أن إسرائيل وضعت بعض العوائق عند تقاطع نيتساريم، على الطريق بين رفح ومدينة غزة.

اتفقت مع داغفين بأن يذهب إلى مستشفى غزة الأوروبي في خان يونس، إذا لم يجد سيارة إسعاف في طريقها إلى الشفاء. في الجهة الأخرى من الحدود، الخطة كانت أنه سينتظر إلى أن يصبح الطريق سالكاً. كنت أضع في حسباني أن داغفين سيتدبر أمره بكل الأحوال. عنده خبرة طويلة في الشرق الأوسط. سألته.

– ماذا عملتم بالنسبة لوضعي أنا ومادس؟ مكتبة الرمحي أحمد

كان لابد من السؤال، على الرغم من أني أنا ومادس نريد البقاء، كنا قد قررنا أننا لن نبقى وسط هذه الحرب لأكثر من أسبوع أو أسبوعين. على الرغم من تأثرنا بهذه الحرب. كل الجرحى والصراخ، وعدم النوم لم يعد باستطاعتنا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مساعدة زملائنا الفلسطينيين. ولم نعد نستطيع أن نقدم الدعم الكبير لهم.

- جراح العظام يوهانس براتبو والجراح البلجيكي نجيب رمزي سيصلون إلى القاهرة غدا بصحبة ميريتا تاكسدال. ميريتا ستأخذ مكاني كمنسقة هنا في العريش، بعد أيام عدة من وضعها في أجواء العمل. أخبر يون إيفند بأنهم يحاولون إدخال الجراحين خلال يوم الخميس. ميريتا تكسدال، ممرضة تخدير وعندها خبرة طويلة من العمل في مناطق الحرب، كل من مادس وأنا نعرفها منذ زمن طويل. كنا نشعر بأمان أنها هي بالتحديد ستتولى مسؤولية نورواك بمصر في حين نحن في غزة.

كان يون إيفند قد أنشأ سلسلة من الإجراءات للإجلاء من غزة. طالما لدينا رجال يعملون في غزة وطالما هناك حرب، يجب أن يكون لنا مكتب تنسيق في العريش، للاتصال دائما بالفريق الطبي وبالسفارة في القاهرة.

الساعة الحادية عشر والنصف، كنت قد انتهيت من كل الاتصالات المهمة والضرورية. وذهبت إلى مركز العناية الفائقة. كانت لي رغبة بأن أزور مريضاً، سبق وأن رأيته اليوم السابق. شاب صغير بإصابات كبيرة في صدره. أثناء فحصي له لأقرار كان سيحتاج إلى عملية، دخل الدكتور صبحي مع أربعة أوروبيين، يرتدون سترات الصليب الأحمر.

قال الدكتور صبحي:

- أقدم لك فريق جراحي الصليب الأحمر الدولي.

رفعت نظري عن المريض وشاهدت رجلين وامرأتين. يتألف الفريق من طبيب جراح هولندي، وطبيب تخدير إيطالي، وممرض عمليات فلندي وممرض العناية المركزة دانماركي..

- سعيد برؤيتكم. سمعنا أنكم في طريقكم إلينا.

قال الجراح الهولندي:

- كنا ننتظر في القدس لمدة أسبوع للحصول على تصريح دخول عبر معبر إيريز وأخيراً، أدخلونا اليوم.

فرحت لرؤيتهم. الحاجة كانت هنا جد ملحة. كلما زاد عدد الأوروبيين كلما

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اقتربت نهاية هذه الحرب المجنونة. هكذا كنت أفكر. بالمزيد من الشهود الدوليين، سيضع إسرائيل في مشكلة. لأنهم سيشاهدون قتل المدنيين الفلسطينيين.

بعد دقائق، فتح الباب من جديد. هذه المرة مجموعة كبيرة. ركض مصور إلى الأمام والتقط صورا. رأيت وكيل وزارة الصحة الدكتور حسن خلف، في المقدمة، متبوعا بمدير المستشفيات في الوزارة الدكتور محمد الكاشف. علمت بأن هناك زيارة مهمة. تقدّم رجل وعرّف بنفسه باسم جون جينج. مدير عمليات وكالة الغوث في غزة.

سأل جينج بلطف:

- كيف الوضع في رأيك؟
- الوضع ميؤوس منه، إسرائيل تهاجم المدنيين والمستشفى مليء بالجرحى. مازلت أشعر أن الحصار هو المشكلة الكبرى. الناس تتضور جوعا في غزة الآن. نحن بحاجة إلى الأدوات الطبية المهمة. والمجتمع الدولي يجب أن يتحرك. أنا لا أفهم كيف يمكن للمرء أن يستمر في وضع كهذا؟

أجاب جينج ويظهر واضحا عليه الغضب واليأس:

- أعلم ذلك.

من المهم أن تفتح المعابر ويتوقف القصف. خلال مقابلة في وقت لاحق من ذلك اليوم، صرح جينج "لا توجد الآن أية منطقة آمنة في قطاع غزة، الكل مرعوب ومصدوم. أكثر من مليون فلسطيني من دون كهرباء، و700000 من غير ماء للشرب. أقوى ما قاله جون جينج، مناشدته للسلطات الإسرائيلية: يجب عليكم ألا تناموا، ولا تأكلوا ولا تشربوا قبل أن توقفوا قتل الأبرياء المدنيين في غزة.

ذهبت مرة أخرى إلى مكتب الدكتور صبحي، لأجري بعض الاتصالات الهاتفية. كان في نقاش حاد مع الدكتور ناصر.

- يجب أن نزيد من عدد الأسرة، أصرّ الدكتور صبحي. قسم الأمراض الداخلية، يجب عليهم أن يستقبلوا بعض مرضى العمليات الجراحية.

قال الدكتور:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

– كلام منطقي، لكنه سيخلق لنا مشكلة لوجستية.

مبنى الأمراض الداخلية، يبعد خمسين مترا عن قسم الجراحة، ويجب نقل الجرحى إلى هناك. الجراحون لديهم أعمالاً أكثر من طاقتهم، سيضطرون للمشي مسافة ليصلوا إلى مرضاهم. لكن ليس لديهم أي خيار آخر. قدرة استيعاب الأسرة استغل" إلى الحد الأقصى. وهناك مشكلة أكبر وهي أن كل أجهزة التنفس الطبيعي كانت قيد الاستعمال. وإذا أدخلنا مرضى جدد لا يستطيعون التنفس بعد العملية، سوف يموتون.

– نحن نحاول إرسال المرضى المحتاجين للتنفس الصناعي، إلى مصر، ولكن هناك حدّ لعدد المرضى اللذين يمكن إرسالهم. كما أن عملية النقل محفوفة بالخطر. والعديد من المرضى، في حالة سيئة لا يتحملون النقل. سمعنا أصواتاً عديدة لسيارات الإسعاف والسيارات الخاصة. الدوّار أمام مركز الطوارئ كان مليئا بالسيارات. ذهبت إلى الاستقبال وسألت، ماذا حصل؟

قصفت الدبابات الإسرائيلية مدرسة الأمم المتحدة في مخيم جباليا للاجئين. غرفة الاستقبال كانت مليئة بالأطفال على الحمّالات، في حين أن أمهاتهم وأفراد أسرهم يصرخون طلبا لمعاينة ذويهم. في الوقت نفسه مازالت سيارات الإسعاف تحمل المزيد من الأطفال الجرحى. كانوا ينقلون بعناية من الحمالات ويطرحونهم على الأرض. شاهدت مادس منهمكا مع المصابين في غرفة الطوارئ.

سمعت امرأة تقول:

تعالَ إلى هنا يا دكتور، وأشارت إلى طفل عمره ست سنوات ملقى على الأرض بجرح خلف أذنه. من الواضح أنه كان قد حصل على صورة الأشعة، حيث إنني رأيت صورة الأشعة على حمالته. أمسكت الصورة ووضعتها على النور، أظهرت شظية معدنية داخل دماغ الطفل. كان نبضه جيدا ويتنفس وحده. لكنه فاقد الوعي. والدته واقفة مسمّرة على الأرض وهي تنظر إليه، لم تكن تبكي. أحد المتطوعين جاء ونقله في المصعد إلى غرفة العمليات. بقيت الأم إلى جانبه ممسكة بيده.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نظرت من حولي. كان المرضى منتشرين على الأرض، وحول مقاعد مركز استقبال الطوارئ. كلتا غرفتي الطوارئ كانتا مليئتين. المصابون يملؤون الممر طولا وعرضا، بين مركز الاستقبال والمصعد. ذهب طبيب وبدأ بمعاينتهم واحدا تلو الآخر، وهم واقفون على الحائط. طفلة في الثامنة من عمرها بسترة وردية وسروال الجينز، عولجت من جرح في الرأس. كانت والدتها تقف بجانبها تقوم بتهدئتها، في حين ينظف الدكتور الجرح ومن ثم يضمده. لم يكن بالإمكان الحصول على كرسي، كي تجلس عليه حين كانت تعالج. أتى طبيبان وبعض المتطوعين مهرولين يجرون حمالة وهم في طريقهم إلى المصعد في آخر الممر. الطفلة وأمها عصرتا باتجاه الحائط، والطبيب الذي ينظف جرحها اضطر أن يعصر نفسه باتجاه الحائط، ليفسح الطريق. لم تطلق الفتاة أي صوت. كانت تحدق بعينيها الكبيرتين. ترى بماذا كانت تفكر؟

بعد قصف مدرسة الامم المتحدة تدفق الجرحى الاطفال الى مستشفى الشفاء بسيارات الاسعاف والسيارات الخاصة.

من المحتمل أنها كانت مذعورة. كانت تعرف أنها نجت من ذلك الهجوم، لكنها ستصاب مرة أخرى. لا يوجد مكان آمن في قطاع غزة. تعرف أنها يمكن أن تفقد

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

حياتها، أو والديها في أي وقت. لجأت الأسرة هاربة إلى مدرسة الأمم المتحدة، وكانت تلعب مع أطفال آخرين في ساحة المدرسة عندما هطلت عليهم قذائف الدبابات. أي نوع من الخوف والأضرار النفسية يولّده هذا القصف لفتاة في الثامنة من عمرها.

ارتفع المصعد المليء بالمصابين بيسر وثبات إلى قسم العمليات. كنت أدرك أنه يمكن الاستفادة مني أكثر في غرفة العمليات من غرفة استقبال الطوارئ. لم يكن هناك جدوى للصعود معهم بالمصعد، لذلك صعدت على الدرج الذي كان مليئاً بذوي المصابين، يجلسون على كل الأدراج من الطابق الأول إلى الطابق الثالث. أفسحوا لي الطريق عندما رأوني مهرولاً.

مركز استقبال الطوارىء كان مليئا بالجرحى. في الصورة احد الاطباء يعالج فتاة في الممر بينما تستلقي الفتاة على الجدار بدل السرير.

كانت العمليات الجراحية تجرى على قدم وساق في كل غرف العمليات. الممر مليئ بالحمّالات، والدكتور أحمد يطوف بين الحمالات ليختار من له الأولوية من

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بين المصابين. لقد سبق وأن جهزوا زاوية من الممر للعمليات. هناك يمكن أن يجروا عمليات لأربع أشخاص في وقت واحد. شرعت بمساعدتهم، وبدأت بإجراء عملية لشاب يعاني من جروح في ساقيه. وإصابة في الوريد في الجهة الأخرى، لكنه لا يحتاج إلى عملية. استمر جراح العظام في إدخال الشرائح المعدنية الصغيرة في كل من زوايا الكسر، ومن ثم ثبتها بكماشة معدنية على شكل متواز مع الرجل وبعيدا عشر سنتميترات عن الجلد.

بدأ استعمال هذه الطريقة في الثمانينيات. إنها طريقة مثلى لمعالجة الكسور جراء إصابات الرصاص أو الشظايا. لأن معدات الكسور دائما ملوثة، وتشكل خطر الالتهابات في الكسر. عندها لن يشفى الكسر. يظهر أن مستشفى الشفاء كان لديه مخزون كبير من هذه المعدات، حيث كان يعالج أكثر من عشر حالات يوميا.

تعم الفوضى الطابق الثاني أمام المصعد. أتى مادس ومعه مريضان، كانا شابان ويعانيان من إصابات بالغة وحالتهما غير مستقرة.

سألني مادس إن كنت أستطيع الاعتناء بأحد المصابين. وأخبرني بأنه سيذهب بالمصاب الآخر إلى غرفة العمليات. واستمر مهرولا يجر النقالة. شرعت بفحص الشاب الذي أمامي. كان مصابا بشظيتين في رجله اليمنى، وجرح عميق في أعلى فخده. شظية دخلت وخرجت من الجهة اليمنى للرجل. أظهرت صورة الأشعة بأن قسماً كبيراً من عظم الرجل مختف، لكنه لم يكن ينزف. تحسست النبض في رجليه، كان محسوسا، لذلك كنت متأكداً بأن ليست له إصابات في الشرايين الكبيرة في الرجل.

على الجانب الأيمن من البطن، وأسفل القفص الصدري، كان هناك جرح صغير. أدخلت أصبعي داخل الجرح، فدخل أصبعي إلى جوف البطن. كان الجرح مباشرة فوق الكبد. تأكدت بأن لديه إصابة في الكبد. يجب الإسراع في إجراء العملية لهذا الشاب. أتى أحد الأطباء المساعدين. قلت له:

- يجب إجراء عملية جراحية في الحال. إنه ينزف في المعدة.

قال:

- أوافقك الرأي. هل يمكن أن نجريها معاً؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أخذناه إلى إحدى غرف العمليات. هناك غرفة تستعمل خاصة لعمليات القلب. دخل طبيبا العظم وشرعا في معاينة الرجل. قلت لهما مقاطعا:

- يمكنكما أن تفعلا ذلك لاحقا. إنه لا ينزف من رجليه، لكن من معدته. سنعالج الكسر لاحقا.

بدأنا بغسل المعدة بينما كان طبيب التخدير يقوم بإعطائه المخدر. فتحت البطن، رأينا مباشرة جرحا كبيرا في الكبد، ينزف قليلا.

وضعت الكمادة حول الكبد وضغطت لكي أوقف النزيف. كان الطبيب المساعد قد وضع غرزتين حول الجرح. ووضعنا على سطح الجرح مادة طبية لتوقف النزيف وجفّ تماماً. رأينا أن الشظية قد اخترقت الكبد ودخلت في الإثنى عشر، حيث وجدنا الجرح هناك بطول ثلاث سنتميترات. كان يسقط دما أسود عبر الجرح وإلى داخل الأمعاء. وبالتأكيد كان يأتي ذلك الدم من وريد كبير. أزحت الاثنى عشر ورأيت جرحا صغيرا في الوريد الأجوف الذي يمرّر الدم من الأجزاء السفلية من الجسم إلى القلب. وحشونا العديد من الضمّادات حول الوريد وأوقفنا النزيف مؤقتا.

قلت:

- حسنا، لنصلح الثقوب في الأمعاء، وندع خياطة الخدش، في الوريد الرئيسي في الجسم، إلى الأخير. طالما هذه الضمادات موجودة في مكانها، لن ينزف الجرح. عندما انتهى الطبيب المساعد من خياطة الثقوب في الأمعاء، دخل الدكتور عبد الغفار الزعانين رئيس قسم جراحة الصدر، بصحبة واحد من كبار الأطباء الشباب في الجراحة العامة الدكتور محمود آل الرون، ليشاهدا ماذا نفعل. الدكتور محمود آل الرون بدأ بغسل يديه واستعدّ ليشاركنا. قلت له:

- يمكنك أن تخيط الوريد الأجوف.

لم يسبق أن فعلها من قبل. فكرت أنها ستكون فرصته الوحيدة كي يتعلم ذلك. حرّرت الأمعاء الغليظة من جدار البطن، بحيث يمكنه أن يرى كل الوريد الأجوف. أزلت الضمادات وضغطت على الوريد بيد واحدة حوالي ثلاث

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سنتميترات باتجاه (سلسلة الظهر) للمريض في كل من جانبي الجرح بحيث لا ينزف الجرح، وقلت له:

- الآن يمكنك أن تخيط.

في غضون بضع دقائق كان الطبيب الشاب قد أغلق الجرح. سيطرنا الآن على النزيف في البطن، وأعلمنا أطباء العظام بأن يبدؤوا علاج الكسور في الرجل في حين كان الجراحان الآخران يغلقان جرح البطن. كان لدي موعد مع التلفزيون والراديو الدانماركي في الساعة السادسة والنصف، فاضطررت للإسراع في النزول إلى الأسفل. في طريقي سألت الدكتور صبحي:

- ماذا حدث في المدرسة؟

هذا الشاب الفلسطيني كان مصابا بشظايا في يديه ورجليه وراسه. الاصابة الاكثر خطراً في بطنه، استمرت عمليته الجراحية لساعات.

أخبرني بأن الطائرات المقاتلة الإسرائيلية كانت قد ألقت ببعض المناشير فوق مخيم جباليا قبل يوم، تقول المناشير بأنهم سيقصفون كل البيوت هناك. كثير من

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الناس ذهبوا إلى مدرسة الفاخوري، ليتخذوها ملجأ، لأنها تحمل وبوضوح إشارة الأمم المتحدة. الساعة الثانية عشر، أطلقت الدبابات الإسرائيلية النار على المدرسة، وأصابت الأطفال الذين كان يلعبون في باحتها..

خرجت من المستشفى وأجريت مقابلة مع التلفزيون الدانماركي. فقط بعد ذلك تذكرت داغفين بيوركليد. يا إلهي لقد نسيت داغفين. عبر الحدود ذلك الصباح، وليست لدي أي فكرة كيف جرت معه الأمور. عندما وصلت وأنا ألهث إلى مبنى الإدارة، وجدت مدير المستشفى، الدكتور محمد الكاشف.

قال الدكتور محمد مهدئا:

- وصل داغفين منذ فترة طويلة. تحدث إليه مادس: لم يستطع أحد العثور عليك.

انقضى اليوم بأكمله وبالكاد تبادلت كلمتين مع مادس في غرفة العمليات. شعرت بارتياح لا يصدق حين علمت أن داغفين قد وصل. خارج المستشفى وقفت سيارة بث عبر الأقمار الصناعية تابعة لوكالة أبناء راماتان الفلسطينية. رماتان المحطة الوحيدة التي كان لديها اتصال مع الأقمار الاصطناعية في غزة. وكانت توصل الأخبار إلى القنوات الإخبارية حول العالم. لوحوا إلي وقالوا: ستجري المقابلة مع تلفزيون القناة الثانية النرويجية، (تي في تو).

بعد المقابلة، أقبلت علي شابة صحافية من قناة الجزيرة. كانت قد أجرت معي مقابلة في اليوم السابق. أرادت أن ترافقني في المستشفى. كان بصحبتها شاب يحمل كاميرا وآخر يحمل الميكروفون. نصبوا الكاميرا، وكانت تجري معي المقابلة حين ذهبنا أولا إلى مركز استقبال الطوارئ، الذي ما يزال يستقبل المصابين، لكن لم يعد يأتي مصابون من المدرسة. كنت أفحص بعض المرضى في حين كانوا يصورون، بعدها قمنا بزيارة غرف الطوارئ وقسم العناية المركزة. قبل أن نستقل المصعد إلى غرفة العمليات مع مريض. أخبرتها عن زملائنا الفلسطينيين الماهرين وكيف استمروا في إجراء العمليات للمصابين خارج غرف العمليات.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

العمليات الجراحية الطويلة تترك الكثير من النفايات، من دون نظام تنظيف فعال يتوقف العمل في المستشفى.

قلت، لكن المستشفى منهك، ونحن بحاجة إلى المزيد من المعدات. فجأة علمت كم أنني متعبٌ. نظرت إلى أسفل بطني فرأيت القميص والسروال تملؤها بالدماء. هكذا كنت أبدو في كل مقابلاتي مع قناة الجزيرة والتلفزيون النرويجي والدانماركي. في النرويج، نغير ملابسنا الخضراء في كل مرة نخرج من غرفة العمليات. هنا أنا مضطر إلى الذهاب باللباس نفسه طوال اليوم، ولا أستطيع أن أخرج وأدخل من غرفة العمليات. عدت إلى غرفتنا. هناك كان يجلس داغفن ومادس. كنت سعيدا لرؤيته، تعانقنا. سبق وأن أرسل مادس رسالة بالبريد الالكتروني إلى جون إيفند وأبلغه بأن داغفن قد وصل في أمان.

قال مادس:

- تفضل كُل شيئا. أكلوا الدجاج والأرز، واحتفظوا بطبق لك.

لم أتناول الفطور ولا الغذاء. في تلك الفوضى، نسيت أني كنت جائعا. في العاشرة، كنت مضطرا أن أذهب للقاء مع (التي في تو) النرويجية، لنشرة أخبار التاسعة. كان اللقاء خارج استقبال الطوارئ. بعدها عدت إلى الغرفة. بالكاد

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لاحظت أن سريرا إضافيا وضع في غرفتنا. هكذا أصبح لداغفين مكان في غرفتنا. رن الهاتف، كانت صحافية من مجلة (دير شبيجل) الألمانية، طلبت تقريرا عن الوضع.

إن الوضع رهيب. كنا نجري عمليات جراحية طوال اليوم. قصفت إسرائيل مدرسة الفاخورة في مخيم جباليا في منتصف النهار في حين كان كل الأطفال خارجا يلعبون. الآن عليك أن تعلني للعالم أن هذا يجب أن يتوقف. إنهم يقتلون الأطفال الصغار! انتابني اليأس.

قالت:

- نعم، منذ قليل كان الهجوم على المدرسة التي أريد أن أسألك عنها.
- الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون، أدان الهجوم، ولقد قابلت للتو متحدثاً باسم القوات الإسرائيلية.

قلت:

- لقد تلقينا العديد من الأطفال الذين أصيبوا في الهجوم هذا الصباح.
- لا أفهم كيف يقصفون مدرسة مليئة بالأطفال.

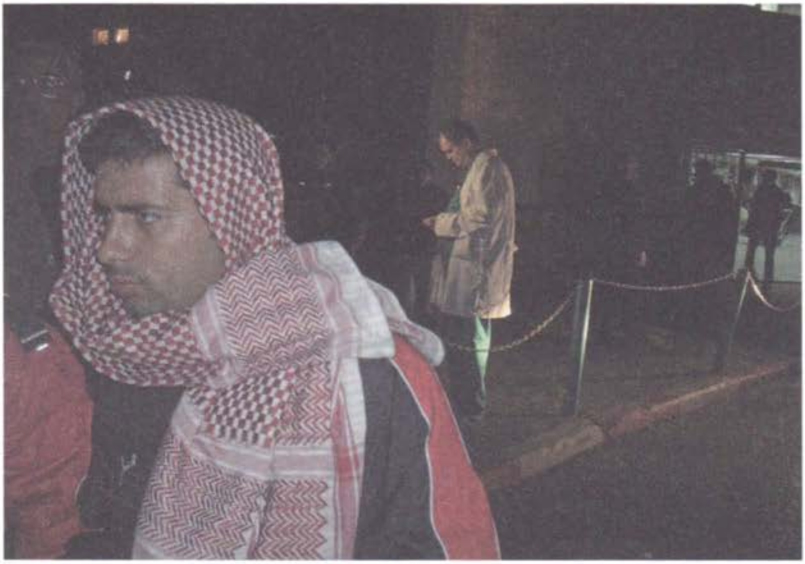

اريك يجري مقابلة عبر الاقمار الصناعية لوكالة راماتان الاعلامية الفلسطينية خارج مركز استقبال الطوارىء، ويظهر احد رجال الاسعاف يتابع اخبار القصف الاسرائيلي.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قالت الصحافية:

- قال الناطق الرسمي للجيش الإسرائيلي، أن بعض الصواريخ أطلَقت من مكان يقع على مقربة من المدرسة قبل ثلاثة أيام.
- جميع الأماكن التي تطلق منها الصواريخ، تفقد حصانتها وفقا لما ذكره الضابط الإسرائيلي.
- يمكن أن يكون القول صحيحا، لكن على أغلب الظن الذين أطلقوا الصواريخ، قد اختفوا منذ ثلاثة أيام. ولم يكن الإسرائيليون مضطرين أن يقصفوا مكانا مليئا بالأطفال.

قالت الصحافية:

- نعم، ولكن الناطق الرسمي باسم جيش الدفاع الإسرائيلي، قال إن الأطفال معظمهم كانوا أطفال حماس.
- هل لديك أي تعليق على هذا الموضوع؟
- ماذا؟ "أطفال حماس ماذا تقصدين؟

انتابني حزن هائل. ما هذه النظرة الإنسانية؟

فجأة تذكرت كل الأطفال الذي عالجتهم هذا الأسبوع الأخير. أطفال مُزقت أشلاؤهم بصواريخ موجهة. أطفال قتلوا برصاص على مسافات قريبة. والطفل الصغير المصاب بشظية في رأسه. الفتاة التي كانت ملتصقة على الجدران في حين كان طبيب ينظف الجرح في رأسها. أطلقت الدبابات الإسرائيلية النار على ملعب لمدرسة حين كانت مليئة ب"أطفال حماس" الذين كانوا يلعبون حول المدرسة ولفترة قصيرة نسوا أن هناك حربا. أذهلني أولئك الذين ضغطوا على الزناد، وأولئك الذين يجلسون بأمان بداخل دباباتهم ويطلقون النار، لم يعودوا يُعدّون الفلسطينيين جنسا بشريا.

جميع الفلسطينيين إرهابيون في أعينهم، وأطفالهم يعرّفونهم بأطفال حماس. أطفال من الجيّد التخلص منهم. لم أعد أتذكر ما تحدثنا عنه خلال الفترة المتبقية من المقابلة. بالنسبة لي أصبح الآن من الواضح أن هذه الحرب لم تعد قضية الحقوق الفلسطينية والاحتلال، وإنما هي كرامة الإنسان. أظهر التاريخ، أنه عندما يريد شعب أن يؤذي شعبا، يجردهم من إنسانيتهم. عندما استعمر

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ممرض التخدير داغفن بيركلد خرق الحصار ودخل المستشفى من يناير، ووجد لنفسه مكان للعمل في مركز استقبال الطوارىء.

الأوروبيون أمريكا، أظهروا أن الهنود الحمر حيوانات بدائية يقفون في وجه الحضارة. وفي الدعاية النازية، 1930، عرف اليهود كحيوانات ضارة مؤذية، يجب التخلص منها.

تذكرت الفيلم عن مضيف الفندق في رواندا الذي أنقذ العديد من التوتسي، خلال المجازر في بداية 1990. ميليشيات الهوتو كانت تلقب التوتسيين بالصراصير. في غزة، كان العنوان "إرهابي أو أطفال حماس

نزع الصفة الإنسانية، هو شرط مسبق لمهاجمة الأهداف المدنية بهذا الحجم الذي فعلته إسرائيل خلال هجومها على غزة. فكرت في مسؤولية أوروبا. ألم تكن أوروبا قد وافقت على وضع ختم الإرهاب على مليون ونصف نسمة في غزة؟

لأن الفلسطينيين قد صوتوا لصالح حماس في الانتخابات، أصبحوا جميعاً إرهابيين، ليس فقط في نظر إسرائيل، ولكن أيضا في نظر أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية. عبر وقف كل التحويلات المباشرة للسلطة الفلسطينية في

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عام 2006، نفّذت أوروبا والولايات المتحدة عقابا جماعيا على الفلسطينيين في قطاع غزة. كان أهم شيء بالنسبة للغرب هو سحق حركة حماس، بدلا من الحفاظ على حياة الأطفال الفلسطينيين ونشأتهم.أين كانت الاعتراضات والاحتجاجات الأوروبية عندما بدأت إسرائيل الحصار في يناير 2008؟ قدمت الأمم المتحدة تقارير منتظمة عن عواقب الحصار، والعالم كله يعرف ما حدث. العديد من الأشخاص قاموا بردة فعل بشكل فردي، ولكن ليس قادة الولايات المتحدة الأمريكية والأوروبيين. رئيس الولايات المتحدة السابق جيمي كارتر، ذكر في خطابه في الجامعة الأمريكية في القاهرة في 17 أبريل 2008، أن الفلسطينيين في غزة يتضورون جوعا. ويحصلون على كميات ضئيلة من السعرات الحرارية، أقل بكثير من أفقر المناطق في إفريقيا.

إنه عمل شنيع، هذا الذي فعلوه لمعاقبة الشعب في غزة. إنها جريمة وأجد من الغرابة أن يستمر

القادة الإسرائيليون فهموا أن الغرب يدعمهم حين بدؤوا بهجومهم الكبير على المدنيين في 27 ديسمبر 2008. والختم بالإرهاب الجماعي كانوا قد ألصقوه مسبقا على الشعب في غزة. الخط بين من هم مصنفون إرهابيون ومن هم مدنيّون كان ممحيا. القصف الممنهج للأهداف المدنية ومراكز الشرطة وقتل القادة السياسيين وتدمير كل المرافق الاقتصادية من مصانع إلى قوارب الصيد، أظهر أن الجميع كان مستهدفا في غزة.

وقتل الأطفال أظهر أن الضباط والجنود الإسرائيليين لا يراعون المسألة الإنسانية مع الفلسطينيين.

القصة عن "أطفال حماس تصوّر كم هو ميؤوس من الحرب عندما تكون أداة لمكافحة الإرهاب والعنف. إذا أردت معاقبة الإرهابيين ليكون لها تأثير، يجب أن تكون نتيجة تحقيق ومحاكمة، حيث الإدانة تكون ثابتة. قصف ملعب مدرسة مليء بأطفال يلعبون، ليست حربا ضد الإرهاب. كان الهجوم على غزة كارثة إنسانية على الفلسطينيين. لكنها كانت كارثة على القيم والأخلاق في إسرائيل. هذا ما فهمته في ثلاثاء ذلك اليوم. استلقيت وحدي في الغرفة، كل من مادس وداغفين كان مستمرا في عمله في المستشفى طوال الليل. أحسست بجسدي يتخدر، لقد عايشت الشر الذي لا يرحم عن قرب.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ظلام في منتصف النهار

مادس جلبرت

كان من الصعب أن أنام يوم الثلاثاء 6 يناير كانون الثاني. كنت منهكا، حزينا ومليئا بقلق عميق. أصبحت الهجمات أكثر عنفا، ويزداد عدد الخسائر يوما بعد يوم. متى سينتهي هذا؟ ذكريات صيف بيروت الغربية في عام 1982 كانت تتنابني باستمرار: الشعور بالاختناق أنك محاصر، والاعتداءات الإسرائيلية غير المنضبطة وكل أشلاء تلك الأجساد البشرية الممزقة. الآن أصبح الوضع أسوأ. هذه المرة فرص الهروب تساوي صفرا بالنسبة للفلسطينيين. لا يملكون أماكن آمنة. كل المجتمع المدني لا يعرف الأمن والأمان.

بالمناسبة شمال غزة واحدة من أكثر مناطق العالم المكتظة بالسكان. 6859 نسمة في الكيلومتر مربع. أكثر كثافة من كل من هونج كونغ 6326 نسمة، وسنغافورة 6814. هل من المعقول أن نفكر على سبيل المثال أن سنغافورة محاصرة أو مطوقة، وجوعت لمدة عامين وبعد ذلك تقصف من البر والبحر والجو لمدة ثلاثة أسابيع من غير أن يتحرك العالم؟ لجأت إلى مكتبي حيث جهاز حاسوبي على المكتب الصغير. كنت دائما أتواصل عبر البريد الالكتروني. الجوال ميت تماما الآن. حدث ذلك بعد أن أرسلت رسالة قصيرة عن قصف سوق الخضار التي تبدو أنها انتشرت كما النار في الهشيم.

معروف عن المخابرات الإسرائيلية، استعمالها لأحدث التقنيات في العالم. لم تكلف المخابرات الإسرائيلية، الموساد والشين بيت، أصحاب الشعار المدافعين غير المرئيين" مراقبة كل أنواع الاتصالات الخارجة والداخلة من وإلى غزة على جميع المستويات. وكالات الاستخبارات الإسرائيلية تخيف. تعتبر لئيمة ووحشية للغاية في سلوكها الضمان أمن ليس فقط دولة إسرائيل ولكن المشروع الصهيوني برمته وتحديدا الهجرة اليهودية إلى "أرض الميعاد"- دولة إسرائيل.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لم نكن مصدر قلق بالنسبة لهم، ولكن بشكل واضح كان كافيا أن يقطعوا خط جوالي، وأن يقطعوا المقابلة التلفونية بين أيريك واستوديو السي إن إن بأطلانطا، عندما كان يريد أن يجري مقابلة تلفزيونية مع "لاري كينغ لايف"، وبدؤوا بحملة عالمية لتشويش سمعتنا وأوقفوا شبكة الانترنيت مرات عدة من مكتب غزة. تلقينا العديد من الرسائل القوية. من زملائنا في النرويج، أرسلوا بعض الخواطر والأحاسيس والدعم المعنوي، والتعليقات الشخصية. رئيس نقابة الأطباء دعمنا بشكل كبير، حيث جمع الصحافيين من داخل وخارج النرويج ليجروا مقابلات معنا. أناس كثيرون لا أعرفهم أرسلوا إليّ رسائل تعبر عن استيائهم ورغبتهم في المساعدة. كل مرة كنت أقرأ فيها مثل هذه الرسائل التي تفتح لي مصدر الدفء والحنان الذي كان محبوساً داخلي، تنهمر دموعي. كانت رسائل تؤثر بشكل جيد في روحي. الشعور نفسه الذي أحسست به عندما قرأت أن هناك العديد من المظاهرات والاحتجاجات والاجتماعات في الشارع.

يبدو أن كانت هناك نشاطات هائلة في الوطن. كتبت تقريرا إلى مجموعة صغيرة من الصحافيين النرويجيين الذين أسميتهم "الجبهة الشمالية" والتقرير على الشكل التالي: بدأ هجوم عنيف حوالي الساعة 12، مجموع القتلى في آخر 24 ساعة 160 قتيلا، وصل العدد إلى 400 شهيد و 1800 جريح نسبة إلى وزارة الصحة في غزة. 150 جريحاً و35 قتيلاً للشفاء. مجزرة مدرسة الفاخوري 43 قتيلاً، و100 جريح. نهار جديد من الجحيم على مستشفى غزة. لكن أسوأ بالنسبة للضحايا. كان أسوأ يوم بالنسبة للأطفال والنساء حتى الآن. مستشفى الشفاء على وشك الانهيار. حالات من الفوضى، عمليتان في كل غرفة، في الممرات وفي كل مكان.

عمليات إنقاذ عظيمة: أُنقذَت حياة طفل في العاشرة من عمره بعد أن أُجريت له عملية بعد إصابته مباشرة في الكبد. وعملية أخرى لساق طفل آخر كانت شرايين ساقه ممزّقة، لم يكن باستطاعتنا إنقاذها، إصابات شنيعة لا يمكن أن تخطر على البال، إنها بالتأكيد نتيجة سلاح الدايم، مستحيل أن يكون شيئا غير ذلك.

النقاط الإيجابية: استطاع داغفين من نورواك اليوم أن يكسر الحصار ويأتي إلى غزة بدعم من الخارجية النرويجية التي فتحت مكتبا لها في مدينة العريش

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المصرية. أتى الليلة في موكب لسيارات الإسعاف. دعم مهم وعظيم للفريق. داغفين ممرض تخدير، عمل لنورواك طويلا خصوصا في لبنان، ويعرف فلسطين وغزة معرفة جيدة. ودخل كذلك فريق من الصليب الأحمر الدولي مؤلف من طبيبين وممرضين، وكان مرحبا بهم كثيرا. كان يظهر أن إسرائيل استنتجت أنها لم يعد باستطاعتها إغلاق العالم علينا. سوف نرى.

قيل لنا إن الجيش الإسرائيلي انسحب ببطء مرة أخرى على الجبهة الشرقية، ووقف إطلاق النار قريب بعد يوم أو يومين. الجميع خائف من أن تقوم إسرائيل بما اعتادت عليه: وهو تصعيد الهجمات في الأيام الأخيرة. لا أجرؤ على التفكير فيما يمكن أن يحصل..

مع تحيات إيريك ومادس.

مستشفى الشفاء، مدينة غزة،

فلسطين المحتلة.

ذهب البريد الالكتروني الآخر إلى الدكتورة بيرنيلا نيليهن، طبيبة بلدية يارن، والتي استجابت بشكل جيد على مقالة كنت قد نشرتها في منتدى الأطباء "إيير في اليوم السابق: شكرا بيرنيلا. الأوضاع هادئة الآن. تقريبا مثل همس الليل في سكونه. فجأة ومن غير القصف المتواصل. تجمعت كل قوى الخير لتشكل درعا فوق الفلسطينيين الخائفين والمرتجفين والحزينين في غزة ولكل الجرحى مقطعي الأطراف الذين استيقظوا من تخديرهم بعد عملية جراحية عسيرة. ألا يستحقون ليلة هادئة من دون آلات التدمير الجهنمية؟ كيف يمكننا أن نجعل أحداث القصص هنا قريبة للمنطق؟ لا أعلم. ربما المهم أن نقول صراحة وبكل وضوح كيف نريد أن نعامل الآخرين من غير النظر إلى الدين أو السياسة أو العرق والجنس، غني أو فقير. يجب أن نرفع كل ذلك عن الشعارات السياسية. محبو السلطة بعيدون جدا عن حرارة جلد هذا الطفل الذي يستيقظ من غير رجل أو تساؤلات فلاح فلسطيني عجوز في السبعينيات من عمره، امتلأ وجهه بالشظايا إن كنّا سنقطع باب رزقه.

لا يمكن أن تستمر الحياة هكذا. عليهم أن يعلموا بماذا نفكر. يمكنك أن تقولي لهم ذلك. الجميع يمكنه أن يقول رأيه فيما يجري. والعديدون في العالم يقولون ما يعوا الآن. المهم كل يجب أن يكتشف بطريقته صوته والذي سيتلقى

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

صـوته. الكل عليـه أن يرسل بـالرسـالة إلى مكان مـا. لكي نوقف هـذا الظلام. نم الآن أيهـا الطفل ونم أيهـا الجندي، نحـن أصـدقـاء وأصـحـاب، هذه الأغنيـة التي تغنيـهـا مـونيكا زيتـر لوند بصـوتهـا الشـجي. ليس من السـهل أن تفكري بكل هذا الليلة، لكن علينا أن نستمر.

تحياتي، مادس.

كنت دائما أعتقد أن تجـربة بيروت الغربية في صيف 1982 كانت أسوأ تجـربة عشتها. في ذلك الوقت كنت طبيب تخدير شاب وعضواً في لجنة فلسطين لفريق جـراحي حالات الطوارئ، الذي كان يعمل فـي مستشفى ميداني تحت الأرض في مدرسـة الحوت، بقرب الشـارع الرئيسي لبيـروت الغـربيـة، شـارع الحمـراء. خـلال أحد عشر أسبوعاً من صيف لا يطاق من 6 يونيو إلى 21 أغسطس. قاد آنذاك وزير الدفاع أرييل شـارون، قوات الغزو الإسـرائيلية إلى بيروت الغربيـة، وحاصـروا المدينة وأغلقوا جميع الطرق الرئيسية والمؤدية إليها.

من الجهة البحـرية حاصـرت القطع البحـرية الإسـرائيلية البـحـر، بعد أن كانت المدينة محـاصـرة، سيطرت القوات المجتاحة على مصـادر الطاقة والمياه، وبدأت

ماكينة تعديل ومعالجة الدم في قسم العناية الفائقة كان يتم ضبطها وتعديلها يدوياً.
الحصار الاسرائيلي ادى الى نقص حاد في المعدات والادوات الطبية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بالفعل بإيقاف كل الإمدادات من الطاقة والمواد الغذائية والأدوية والمساعدات على أمل أن يموت سكان المدينة جوعا ويقصفون حتى يستسلموا. أو يقوموا بثورة ضد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية والقوات اللبنانية المسيطرة. تلك الفترة هاجمت القوات العسكرية الإسرائيلية بعنف.

قصفوا المدينة المحاصرة يوما بعد يوم، وتسببت في دمار هائل وخسارة كبيرة في المدنيين. أيضا في عام 1982، كان كل شيء هدفاً مشروعاً لآلة الحرب الإسرائيلية. لم يأخذوا بعين الاعتبار حق المدنيين بالحماية. كانت الأوضاع فظيعة جدا بالنسبة إلى اللبنانيين، وحوالي 175000 لاجئ فلسطيني الذين يسكنون في المخيمات الفلسطينية في بيروت الغربية الذين كانوا بحاجة عاجلة للمساعدات من الأمم المتحدة بعد الهجمات الإسرائيلية. الآن في غزة، يناير 2009 وكأنني أعيش ذلك الكابوس المرعب مرة أخرى.

قلت لمجموعة من الزملاء الفلسطينين حين كنا نشرب القهوة، إن الوضع هنا أسوأ من الذي حصل في بيروت 1982. قالوا:

- هل هذا صحيح، كيف.... اشرح لنا ذلك.
- أولا هنا في غزة هناك أماكن قليلة يمكن للمرء أن يلجأ للاحتماء بها. المسافة صغيرة وكثيفة السكان. السكان هنا بمجملهم صغار السن. رأينا العديد من إصابات الأطفال هنا، أكثر من بيروت. كذلك السلاح الإسرائيلي تطور كثيرا خلال الخمس وعشرين سنة الماضية. الآن يعرفون بالضبط أين وماذا يقصفون. لا أجد أي عذر لماذا يقصفون مدنيين كُثر.
- أنت محق، د. مادس. لكن كيف سنخبر العالم بذلك؟

في بيروت كانت الصحافة العالمية موجودة في المكان. لكن، ليس هنا. كذلك في بيروت الخسائر المدنية كانت كبيرة، أكثر من 17000 شخص قتلوا، من بينهم 10000 إلى 12000 مدني لبناني وفلسطيني. 368 عسكرياً إسرائيلياً قتلوا، في حين يعتقد أن 1400 جندي فلسطيني سقطوا. بالإضافة إلى حوالي 2000 أو 3000 فلسطيني ذبحوا من طرف قوات الكتائب اللبنانية في مخيمات صبرا وشاتيلا بين 16 و18 أيلول. كان يجري الذبح على مرأى من القادة الإسرائيليين. لم يتدخلوا ليوقفوا ذلك. على العكس، من الأماكن العالية كانوا يستطيعون

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مشاهدة كل ما يجري في المخيمات وأن يتلقوا الأوامر من ضباط الكتائب اللبنانية بقتل الفلسطينيين. كان الضباط الإسرائيليون يطلقون القنابل المضيئة كل دقيقة طوال الليل، في حين كانت تغتصب النساء وتقتل بالسكين.

عائلات بأكملها قتلت، والجرافات تحضّر لمقابر جماعية. عزل آرييل شارون من منصبه كوزير للدفاع بعد اجتياح لبنان. لكن ليس بسبب الحصار والحرب والقصف للأهداف المدنية في بيروت، ولكن بسبب الدور الذي لعبه وعلاقته بمجازر صبرا وشاتيلا. التي في حد ذاتها كافية أن تسقط أكبر حكومة.

نتيجة للهجوم الإسرائيلي والحصار المفروض على بيروت الغربية، اضطرت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية إلى سمغادرة لبنان عن طريق البحر مع ياسر عرفات في المقدمة، وانسحبت القوات الإسرائيلية من بيروت، لكنها مازالت تحتل لبنان، الجنوب وشرق بيروت. في21 أغسطس، دخل 350 جندياً فرنسياً إلى بيروت، تبعها 800 جندي من المارينز الأمريكي، ومعاً سوف يراقبون انسحاب منظمة التحرير كجزء من الهدنة التي وقعت بين سوريا وإسرائيل ومنظمة التحرير. حصار وقصف بيروت قوبل بإدانات عالمية، كذلك من الولايات المتحدة الأمريكية التي هددت بفرض العقوبات.

السبب وراء التهديد بفرض عقوبات هو أن إسرائيل استخدمت الأسلحة الأمريكية لأغراض عسكرية هجومية، وأن أمريكا قد أمدتها بذلك السلاح فقط "لأغراض دفاعية". لم يتم أيقاع أية عقوبات على إسرائيل. لم تضعف منظمة التحرير، باستثناء انخفاض عابر من الهجمات الصاروخية من جنوب لبنان على إسرائيل. كان الهجوم العسكري الإسرائيلي فاشلا من وجهة نظر إسرائيل. استمر شارون في الحكومة كوزير من غير حقيبة، وبعدها أصبح رئيس الوزراء في 2001. في نوفمبر 2005 ترك آرييل شارون حزب الليكود وأسس حزب كاديما. أصيب بجلطة دماغية في يناير 2006 وفي 14 ابريل من العام نفسه أقيل عن رئاسة الوزراء. لغاية صيف 2009 لا يزال شارون في غيبوبة بمستشفى شيبا "ميديكل سنتر .

في أواخر عام 2008، أظهر استطلاع للرأي بأن أكثر من ثلثي الإسرائيليين سوف ينتخبون إرييل شارون في حال استيقظ من غيبوبته. كنت أفكر باستمرار

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بتجارب 1982 حين كنت أعمل في مستشفى الشفاء. تغير فقط القليل منذ 27 سنة. هل من المعقول أن التكتيكات الوحشية نفسها تتكرر؟ هذا الحصار من غير رحمة وتجويع شعب بأكمله، والقصف المكثف للمناطق السكانية، من غير منحهم فرصة للهرب.

وكأنه ليس هناك من أحد يمتلك ذاكرة، ليقول، لقد عشنا هذه المأساة من قبل. الآن يجب أن تتوقف إسرائيل قبل أن تتكرر تلك الفظائع ذاتها. في كل يوم يمر من شهر يناير، تظهر الحقائق جلية في غزة. العدد الأكبر من القتلى والجرحى من المدنيين، أغلبهم من الأطفال والشباب. الأرقام التي كانت تعلن من قبل وزارة الصحة في غزة كل يوم الساعة الرابعة، أظهرت بوضوح مؤشرات مخيفة تتطابق كلّيا مع الانطباعات التي كنا نشاهدها في مستشفى الشفاء. العدد الكبير من القتلى من المصابين كانوا أناسا عاديين من كل الأعمار. يوما بعد يوم بدأ يزداد عدد الأطفال القتلى. وبدأ يرتفع بشكل ملحوظ عدد القتلى من النساء.

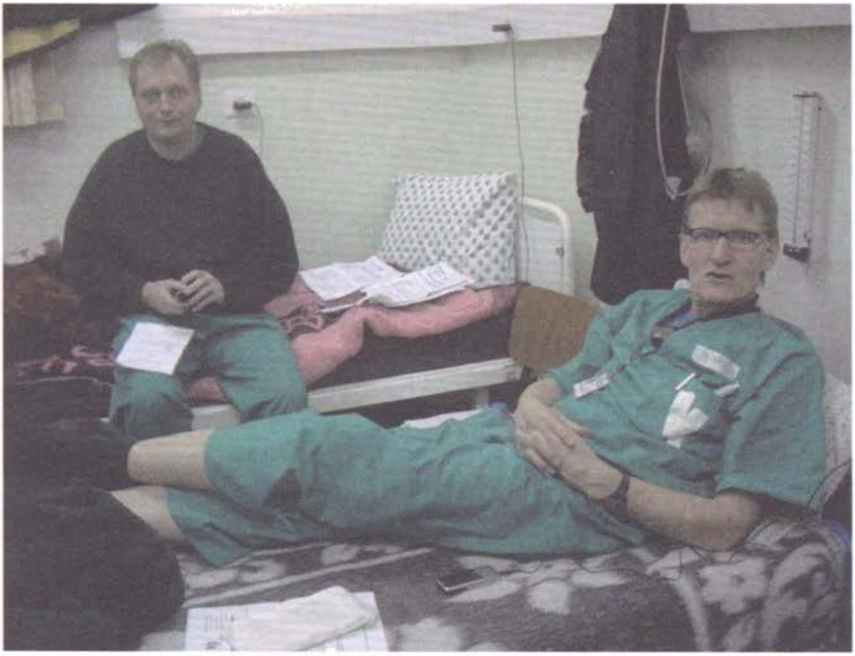

هذا مسكننا الخاص المتقشف نوعا ما، لكنه اعطانا بعض الهدوء الضروري.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

خلال فترة تواجدنا في المستشفى، لم نر إلا عدداً قليلا لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة من الجرحى غير المدنيين. رأينا فقط قتيلين، تبدو عليهما مظاهر المليشيا أو رجال المقاومة. لكن الباقي كانوا كلهم مدنيين. عليّ أن أركز جيدا كي لا أفقد السيطرة عندما تأتيك عائلات بأكملها، مفزوعين إلى المستشفى، بصحبة جدهم الجريح أو أحد أطفالهم. كنت أقول لنفسي دائما: "ركّز"، عندما كانت تتقلب عليّ أحاسيسي وأشعر بحرقة في حنجرتي ورغبة في البكاء. كانت التقنية سهلة. وهي ركّز على إجراءات الإنقاذ، الفحص الطبي المنهج لكل فرد من المصابين وبعد ذلك استخلص:

من يحتاج إلى الإنعاش؟ ومن يدبر أمره بالقليل من المساعدة؟ من منهم بحاجة إلى الأولوية؟ العاملون في مجال الصحة يتدرّبون على التركيز في واجباتهم. التركيز على الإدراك الحسي يساعدنا على دفع كل الانطباعات المقلقة والعواطف التي يمكن أن تقهرنا وتتغلب علينا وتضعف قدرة التركيز عندنا وتؤدي إلى انخفاض جودة العمل الذي نقوم به.

بالطبع سوف نتفاعل مع عواطفنا، لكن يجب أن يكون ذلك بعد إتمام العمل، أو في فترات الاستراحة بين نوبات العمل. الرفض وكبح العواطف لفترات طويلة التي تعد ردّات فعل طبيبعية في مثل هذه الظروف العصيبة، تؤدي إلى إجهاد مزمن ومدمر، وتجعلك مشلولا عن أداء العمل، وهذا يجعل المرء مريضا على المدى الطويل. من أهم الأدوات لمعالجة القدرة على تحمّل الانطباعات الحسية والعواطف الجيّاشة بطريقة سهلة، هي الانفتاح والتحدّث عن هذه الوقائع بين الزملاء الذين شاركوا في ذلك الحدث. هذا بحدّ ذاته كافٍ.

كنت أشعر دائما بزمالة حميمة مع الذين من حولي. أولا وقبل كل شيء مع إيريك. لكن كذلك مع زملائي الفلسطينيين. كان هناك الكثير من الاحتكاك الجسدي. الفلسطينيون لا يخافون من أن يعانق أو يلمس أحدهم الآخر. كل الاجتماعات تبدأ بمصافحة اليد وغالبا ما يكون هناك بشكل من الأشكال الاحتكاك الجسدي أثناء المحادثة. كثيرا ما حدث أن أحدا من الزملاء الفلسطينيين يضع يده على كتفي، أو يمسك يدي لفترة طويلة أو يقف بجانبي على مسافة قريبة جدا. كان هذا النوع من التقارب الحار يساهم في تهدئة ردود الفعل والإجهاد عندنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كنت أنا وإيريك حريصين على أن ننسحب إلى غرفتنا المتواضعة والمؤلفة من سريرين. كنا نتكلم عن أحداث النهار من غير أي شكل ثابت. كنا نتقاسم ما عشناه بطريقة بسيطة. اليأس الذي شعرنا به نحن الاثنان بسبب العدد الكبير من الإصابات والآلام التي سببتها تلك الجراح الرهيبة التي عالجناها معاً مع زملائنا الفلسطينيين. كنا نسمع لبعضنا البعض، وكان هناك نوع من التوازن في ما كنا نرويه لبعضنا، وهذا بحد ذاته خلق توازنا حيث كنا نروي ونخرج من دواخلنا هذا الغضب والإحباط والضياع. نبكي ونضحك. نضحك على أنفسنا، لأنه تطور عندنا على حد سواء السخرية الذاتية، وكنا نضحك على ما جلبته حلقات أحداث اليوم، أحيانا ننفجر ضحكا هيستيريا على الجانب الكوميدي الذي كان بداخلنا وخاصة حين نكون نرتدي البيجاما الزرقاء "بيجامات حماس كنا نحتاج لهذه الشحنة الهيستيرية من الضحك، لكي نستطيع العيش. النكتة جزء مهم للسيطرة في الأوضاع الصعبة والمتطلبة، وهذا الشيء معروف عند كل الذين يعملون في الطب ورجال الإسعاف والإنقاذ.

المزاح الذي كما نمزحه في الليل جزء من ثقافة معظم من يعمل في مثل هذه الأجواء. قد يكون مثيرا للاشمئزاز عند البعض، لكنه أسلوب غير مؤذ للتنفيس عن الآلام التي نمر بها. رأيت تلك الفتاة الصغيرة عندما كانت تُجرّ بالعربة عبر صالة المستشفى باتجاه المصعد، في طريقها إلى غرفة العمليات..

كانت الطفلة مستلقية على ظهرها والجزء الأعلى من جسمها مكشوف. وباقي جسمها مغطى بغطاء صغير. عيناها المتسائلة تبحث طول الوقت عن وجوه تعرفها. لكن لم يكن هناك أحد تعرفه. أحضِرت لوحدها بسيارة الإسعاف من منزل العائلة، مكان ما في شمال غزة. لا أحد رافق سمر الصغيرة. لأن القصف الإسرائيلي كان كثيفا والخطر في الهجوم على سيارات الإسعاف كان كبيرا. لم يكن واضحا ما حصل. لكن يظهر أن منزل العائلة كان قد قصف في صباح اليوم نفسه. كانت الأم أيضا مصابة. كان عمر سمر أربع سنوات.

استقبلت الطفلة الصغيرة أولا في غرفة الطوارئ، حيث وضع لها الأنبوب البلاستيكي في الجانب الأيمن من صدرها كي يخرج الهواء المتجمع في الصدر من جراء الإصابة بالشظية. تسرّب الهواء في تجويف الصدر بين طبقتي غشاء الجنب" الأغشية المصلية حول الرئتين، يمكن أن يسبب ثقوباً في سطح الرئة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

انها سمر ابنة الاربع سنوات كانت لوحدها عندما جاؤا بها الى المستشفى. كانت مستيقظة ولم تكن تبكي. العمود الفقري كان مكشوفاً. كنا نعتقد انها اصابة شظية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

حينها عند كل تنفس يمكن أن يسبب ضغطا يعصر الرئة، مما يجعل التنفس صعبا على نحو متزايد. بعد وقت يصبح الضغط مرتفعا في كل تجويف الصدر ويتجاوز الضغط داخل الشريان الكبيرة التي تنقل الدم إلى القلب. عندما يحدث ذلك لا يعود القلب يتلقى المزيد من الدم، والدورة الدموية تتوقف، ويترتب عليها نتائج وخيمة. على الرغم من أن القلب يستمر في النبض لفترة من الزمن. هذا الوضع يسمى ضغط الهواء المتجمع على الرئة، وهذه الحالة مخيفة وقاتلة، نتيجة الإصابة بالصدر، حتى الذي ينكسر ضلعه يتعرض لهذه الحالة إضافة إلى أن الإصابة بالرصاص أو الشظايا التي تصيب منطقة الصدر أو الضربة القويّة في الصدر تسبب هذه الحالة نفسها. وتجمّع الهواء في قفص الصدر يزيد من الحالة سوءا إذا كان هناك جرح في منطقة الصدر نتيجة إصابة. هذا الأنبوب البلاستيكي يخفف الضغط ويخرج الدّم المتجمع بحيث تستطيع الرئة أن تتوسع بحرية. في كثير من الأحيان يكون هذا العلاج وحده كافياً لإيقاف النزيف. إذا كان المريض يعاني من صعوبة في التنفس وفي الوقت نفسه يعاني من إصابة في القفص الصدري أو جرح صغير من جراء الشظايا أو الرصاص أو حتى الطعن، نشك مباشرة أن المريض عنده هذه الحالة. ونستمع بشكل جيد إلى طريقة تنفسه بالسماعة الطبية. سإذا كان التنفس غير منتظم من الجهتين، هذا يعزز أن المريض يعاني من هذه الحالة.

إدخال أنبوب الثوراكس بسرعة هو منقذ للحياة في مثل هذه الحالات. باليد الخبيرة يعمل هذا الإجراء في خلال دقائق ولا يتطلب أكثر من ثقب صغير بين الضلوع مع فتحة في تجويف ما بين الغشاء الداخلي والخارجي من الصدر حيث يتراكم الهواء والدم. من خلال هذه الفتحة يمكن إدخال أنبوب بلاستيكي بسماكة الإصبع الصغير وثقب جانبي في أسفل الأنبوب الذي يوصّل صمّام وجهاز الامتصاص، بحيث يمتص الدم والهواء من جدار الرئة. العديد من جرحى الحرب الذين أتوا إلى مستشفى الشفاء، وضع لهم أنبوب الثوراكس في جهة أو من كلتا الجهتين، وهكذا نفعل عندما نشتبه أن هناك تسرباً للهواء أو نزيفاً في تجويف الصدر..

– كان مؤكدا أن الصغيرة سمر كانت تعاني من أصابة في ظهرها. جرح كبير ومفتوح في منتصف ظهرها يصل إلى العمود الفقري. الجلد والأنسجة تمزقت، ويمكننا رؤية أجزاء من العمود الفقري. لم تكن تستطع تحريك

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

رجليها، ويبدو أن ليس لديها أحساس في منطقة الخصر. هذا يؤشر بالطبع إلى إصابة في العمود الفقري.

كانت هناك حاجة ملحة للقيام بعملية جراحة الأعصاب. كانت سمر مستيقظة طوال الوقت ولم تبك. فقط تنظر حولها بنظرات متعجبة متسائلة، وكأنها تسألنا: ماذا حدث؟ أين أمي؟

عندما رأيتها للمرة الأولى خارج المصعد في طريقها إلى غرفة العمليات، تلقيت عرضا موجزا عن حالتها، والممرض الذي كان يرافقها، أدارها برفق على الجانب حتى أرى الجرح الذي في ظهرها. تسرب ارتجاف بداخلي. هل هذا معقول؟ فتاة في الرابعة من عمرها مصابة بجرح عميق من جراء الحرب. ما هذا النوع من الإصابة تساءلت؟ نعتقد أنها إصابة شظية. منزلهم قد قُصف.

- لنسرع إلى غرفة العمليات. كي لا تبرد عظامها.

نظرت سمر إلي متأملة بتلك العيون البنية الكبيرة قبل أن تركز عينيها إلى نقطة ما في السقف. كانت تبدو وكأنها تبحث عن شيء بعيد. ربما أمها. كانت في أيدٍ آمينة. لكنها تفتقد إلى عائلتها. أكثر ما تحتاجه هو أمها وأبوها. حاولت أن أتخيلها وهي جريحة، وحيدة من غير عائلتها، ذلك يؤلم كثيرا. الذين كانوا يساعدون سمر، جروا حمّالتها إلى المصعد في طريقهم إلى غرفة العمليات، بينما أسرعت إلى مركز العناية الفائقة لأرى بعض مرضاي من ساعات الصباح.

من أهم التحديات في تشغيل فرع العناية الفائقة هو المراقبة اليومية المهمة من الماكينات المتخصصة. الطب المركز يمثل ربما أهم الإجراءات الأكثر تقدما والأخطر في عملنا في مجال الطب الحديث. أي عمل لإنعاش الحياة يتطلب أجهزة شديدة الدقة وتقنيين ذوي خبرة عالية، بالإضافة إلى الأطباء المختصين والموظفين المؤهلين. وهذا يرجع لنوع المرض أو الإصابة أو حجم الخطورة، عندها نستبدل الوظائف الحيوية للمريض بآلات يمكنها أن تقوم بوظيفة الرئة أو الكلى أو أجزاء من وظائف القلب إلى حين أن يستعيد الجسم تدريجيا القدرة على الشفاء ويستعيد القدرة الكافية من القوة والطاقة.

الأدوات الأكثر استعمالا هي آلات التنفس الحديثة أو الرسبيراتور. إضافة إلى جميع المكونات التقنية يجب أن تكون متناسبة وخاضعة لمراقبة جودتها.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

والأجزاء القابلة للتلف يجب أن تغير بطريقة منتظمة. كان هذا في غزة شبه مستحيل بسبب الحصار الإسرائيلي الذي يشمل المعدات والأدوات الطبية وقطع الغيار لبعض المعدات التي ترسل للمستشفيات الفلسطينية.

مثال آخر هناك العديد من آلات التحليل الضرورية في العناية المركزة. أهم آلة هي آلة فحص الدم التي تستعمل لتحليل دم المريض في العناية المركزة والتي تؤخذ من وريده. في فحوص الدم تقاس درجة الحموضة في الدم والأوكسجين والنسبة المئوية للدم وضغط الدم والأوكسوجين والكيلوكسيد. هذه التحليلات ضرورية كي يدير الريسبيراتور عملية إرسال السوائل والأوكسجين والملح والدم للمريض.

الآن، يفتقر مستشفى الشفاء للكواشف الكيميائية الضرورية التي كانت تؤدي عملية المعايرة الأتوماتيكية اليومية. المهندسان التقنيّان كانا مضطرّين للقيام بهذه المعايرة يوميا بشكل يدوي، يجلسان أمام آلة تعديل الدم ويقومان بالعمل الروتيني المتطلب للوقت. أشار لي أحدهم إلى الصندوق الخالي، توضع المواد الكيماوية المعادلة، وضرب كلتا يديه- يائساً- وقال إن الإسرائيليين يجعلون كل شيء صعباً علينا. لماذا لا يمكننا أن نشغل المستشفيات بشكل طبيعي. إنه عمل إنساني هذا الذي نقوم به. لا ننتج قنابل هنا!

الظلام في منتصف النهار. كنت أفكر في عنوان كتاب آرثر كوستلر، بينما كنت في طريقي لأرى طفلين صغيرين، أحدهما مصاب في رأسه والآخر في وجهه. كانا مستلقيين ليس ببعيد عن آلات تحليل الدم، ستصبح التي قريبا جاهزة للاستعمال. ما تزال سمر في غرفة العمليات.

كلا الطفلين أصيبا في رأسيهما وكانا تحت التنفس الطبيعي. الأول مصاب بشظية أو رصاصة اخترقت رأسه وقد أتلفت الدماغ. لن يعيش. الآخر يعاني من إصابة كبيرة في الوجه، لكنه كان مستيقظا ويتكلم عندما أتى إلى المستشفى. عظم وجهه مهشم، لكن جزءاً من جمجمته كان قد امتص الكثير من ضغط الانفجار. لم يكن الدماغ مصابا إصابة خطيرة. ويظهر ذلك في قدرته على الكلام. سُحقت عيناه الإثنتان، ويجب أن تقتلعا تحت العملية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

جموع من الاقارب والاصدقاء ينتظرون قلقين خارج قسم العناية الفائقة.

الطفل المصاب في دماغه لا يحتاج إلى تخدير، لأنه لا يحس بشيء الآن. لكن الآخر كان في غيبوبة اصطناعية مع تخدير في الوريد لتخفيف الآلام وللسماح لجهاز التنفس الاصطناعي بالعمل من غير مقاومة تنفس الطفل. كان الضماد الكبير يغطي عينيه. على أي حال إنه لا يستطيع أن يرى شيئا, لقد أصبح أعمى. لن سأصرخ من هذا اليأس والغضب على هذا القدر الرهيب الذي نعيشه ونراه بأعيننا. هل ستسمعنا السماء؟ هل سيسمعنا العالم؟ يعلمون أن هذا الشيء يحدث. الأرقام تصل كل يوم إلى الغرب، إلى وكالات الإعلام، إلى أجهزة المخابرات وإلى وزارات الخارجية للأمم الأكثر قوة في العالم، والتي لم تحاول أن تروض ماكينة الحرب الإسرائيلية الشرسة.

جرّ شاب صغير آخر بإصابة كبيرة في رأسه من أمامي إلى العناية المركزة.

صاح ممرض العناية المركزة متأففا:

- لم يعد لدينا المزيد من أجهزة التنفس الصناعي. سوف نعطيه التنفس بطريقة يدوية لفترة إلى أن يتوفر جهاز.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الساعة الحادية عشرة وثلاث وخمسون دقيقة، قريبا ستنتهي سمر من العملية. لم يكن الإسرائيليون بحاجة إلى سبع دقائق متبقية من اليوم الثامن والأسوأ حتى الآن.

هل ستزداد الأمور سوءا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بدون رحمة

مادس جلبرت

لم يكن من السهل أن أنام. كنت منزعجا. الأيام في مستشفى الشفاء تنزلق على بعضها كسجادة طويلة من الوجوه، والنظرات، وأجساد الناس المحطمة وانطباع الناس السريالي. في الفناء الخلفي، كان هدير الطائرات بدون طيّار مستمراً، هذه الحشرات المجهولة الهوية، "المفترسة"، المخيفة والمقرفة أو البريديتر. صوت انفجار القنابل أصبح أقرب من أي وقت مضى ونيران المدفعية أصبحت أيضا أقوى. وأحيانا كنا نسمع قرع صوت جرارة الدبابات الإسرائيلية. شعرت بتثاقل واستنفاد لقواي، متى سيتوقف هذا؟ هل سيقصفون الشفاء؟ هل سنُقتل نحن أيضا؟ تفاقم الاضطراب بسبب كميات كبيرة من القهوة واستهلاك طازج من السجائر. عادة لا أدخن، ولكن في غزة أصبحت عادة سيئة. بمجرد ما أن أعبر الحدود إلى قطاع غزة يحس المرء بالرغبة القوية في التدخين.

"الكلّ" يدخن في غزة، على الأقل الغالبية العظمى من الرجال الفلسطينيين. وكذلك العديد من الأصدقاء من بينهم رجال الإسعاف، وبعض الزملاء مثل خليل أبو فول، نافذ كريم، وعصام أبو عجوة، إخوتي الغزاويون منذ سنين عدة، يدخنون بكثافة. الأطباء الشباب الثلاثة، الذين ولدوا وتربوا في غزة، أعرفهم منذ بداية مراحلهم التعليمية وأيام الصبا. تزوّجوا الآن وأضيف لأسمائهم العربية كلمة" أبو ، "أبو تعني الأب والرجال يضيفون كلمة "أبو لأسمائهم عندما يصبحون آباء.

غالبا يتخذون اسم الولد البكر على اسم الأب، عندما يصبح لديهم طفل ويسمونه محمد، يصبح اسم الأب أبو محمد. إلى جانب الدراسة الجامعية المجهدة، تزوجوا وأنجبوا أطفالا جميلين. أعرفهم جيدا وأعرف عائلاتهم الكبيرة معرفة جيدة. هؤلاء الأطباء الثلاثة ماهرون على الرغم من صغر سنهم، قد جمعوا خبرة جيدة في الطب والعمل مع الإصابات الكثيرة وفي الأوقات العصيبة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

غزة المكان الصحيح لتعلم جراحة إصابات الحرب وطب الكوارث. كنا نمزح مع بعضنا عندما نعمل معاً. وكان هذا على مرّ سنين طويلة. في المستشفى الميداني بمنطقة المعارك في القدس وفي مستشفى الشفاء، خلال الانتفاضتين. نافذ طبيب تخدير والطبيبان الآخران جرّاحان. كان خليل مسؤول الهلال الأحمر الفلسطيني لخدمات الطوارئ والإسعاف.

لدي عصام خبرة واسعة في الجراحة العامة، ويحلم نافذ في يوم ما أن يكمل تعليمه في مجال التخدير في جامعة أجنبية. كل مرة أكون فيها بمهمة في غزة نلتقي، مع أن البرنامج بعض الأوقات يكون ضيقا. يستغلون بعض الوقت ليدعونني إلى بيوتهم وعائلاتهم ويتحفونني بالكرم الفلسطيني، والوجبات الفاخرة، ومحادثات طويلة مع الآباء، والأشقاء، وأقارب الزوجين. كنت دائما أحمل معي الهدايا الصغيرة و الحلوى وبعض الألعاب للأطفال، كردّ للاستقبال ولحاجتهم لتلك الأشياء بسبب الحصار. بالنسبة للأطفال، فأنا عمو مادس أو العم مادس، الذي أتى من بلد غريبة بعيدة فيها الكثير من الثلوج والجبال العالية، بلد ينعم فيه الجميع بالحرية والسلام. بلد حرّ حيث الأطفال يلعبون في أماكن آمنة وبها ألعاب بُنيت بعناية ودقة، ويذهبون إلى حضانات ذات مستوى جيد، ويسافرون في رحلات في أي وقت يشاؤون، مع أسرهم، بجوازات سفرهم النرويجية الحمراء، التي تضمن لهم حرية المرور إلى عدد غير محدود من دول العالم ليس كغزة.

أطفال خليل، وعصام ونافذ متأثرون بشدة للخطر المتواصل بقربهم من سلطة الاحتلال الإسرائيلية. عانوا خلال فترات حياتهم القصيرة الهجوم من الجو والبحر، وليال من الرعب، من صوت الطائرات الإسرائيلية الحربية ال ف 16 عندما تخترق جدار الصوت فوق منازلهم. الشيء الذي يفعلونه دائما كي يحرموا الجميع من النوم. الحصار والحالة المزمنة من الاحتلال والهجوم العسكري جعل العديد من الأطفال مرضى بالإجهاد ويحملون في أنفسهم انطباعات قوية. هناك علاقة وثيقة بين عدد المرات التي يتعرض فيها المرء للتوترات النفسية ودرجة مدتها الطويلة والإجهاد المزمن، والأطفال في غزة متأثرون بشدة.

تسعة من كل عشرة أطفال في قطاع غزة قد شهد وسمع أو كان قريبا من هجوم أو موت أو تشويه. ثلاثة من كل أربعة أطفال بين السادسة والحادية عشر،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يعانون من أعراض الإجهاد المزمن من درجة خفيفة إلى متوسطة، في حين أن أربعة من عشرة يعانون من عوارض خطيرة. الخوف والقلق منتشر في غزة، خاصة بين الأطفال. نسبة الرضا عن الحياة بين أطفال المدارس في فلسطين المحتلة هي أدنى نسبة بين خمسة وثلاثين بلداً تم إحصاؤها. قد يتساءل المرء هل كلّ الأطفال الذين يعيشون في ظل ظروف صعبة في غزّة يعانون من المشاكل الصحية نفسها من جرّاء الإجهاد النفسي الطويل بسبب الأعمال الحربية وحالة عدم الأمان التي تتبعها.

لكن الأطفال، لديهم أيضا قوة عالية لمواجهة الإجهاد الآتي من الخارج وأحداث الحياة المؤلمة. قوّة المقاومة، تفترض أن يكون لدى الأطفال رعاية اجتماعية وإستراتيجية خاصة للتكيف.

هذه القدرة على استيعاب وتحمل الإجهاد المفرط من غير أن تصل إلى نقطة الانهيار غالبا ما تسمى بالمرونة. هذا المصطلح مأخوذ من المعادن ويدل على أن المعدن له القدرة على استيعاب الطاقة عندما يتعرض لتوتر متزايد تدريجي، تصبح لدى الحديد مرونة معينة بحيث يستعيد شكله الأصلي عندما تزول تلك الضغوطات. المرونة تمثل الحدّ الأقصى من الطاقة التي يمكن أن يستوعبها بطريقة مرنة في حالة الضغط. أنسجة الجسم الغضروفية هي مثال مفيد لمادة بيوميكانيكية أو أنسجة لديها أيضا خصائص من هذا النوع.

أحاسيسنا ومشاعرنا لا تحكمها قوانين المعادن، ولكن هذا المفهوم مازال مفيدا لأن لدينا قدرة كبيرة على استيعاب وإدراك حتى الإجهاد غير المألوف من غير أن يفقد شكله الإنساني الأصلي أيّ شيء آخر سيكون غير ملائم، لأن الحياة العادية فيها أن المرء يمكنه أن يعيش خسارة مؤلمة وأن يتعرّض لضغوط خارجية. إذا خضعنا لهذه القوانين فإن جنس البشر قد ينقرض. تحمّل الإجهاد واستيعاب كميات كبيرة من التوتر، هو شرط أساسي للبقاء على قيد الحياة.

الحرب هي غاية في التوتر. السيطرة الشخصية، مع التحكم في العواطف و دعم من شبكات الرعاية الاجتماعية من الفرضيات الضرورية كي نتغلب على الإجهاد اليومي والضغط الشديد في حالات الحرب. بالنسبة للأطفال من المهم أن نتحدث إليهم وندعهم يخبرون ماذا حدث ونستمع إليهم جيدا، إما شفويا، أو

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ام وطفلها في احدى الغرف. وجود احد اعضاء عائلة الأطفال المصابين او الاصدقاء يساعد الطفل نفسيّا وجسديّا على الشفاء.

من خلال الرسوم أو الألعاب. كذلك الحلم بالنسبة للطفل، علاج تلقائي ومفيد له. "المحادثة الجيدة"، احترام مشاعر الفرد، والدعم من الشبكات الاجتماعية هي أدوات لمساعدة المرء في التحكم بعواطفه سواء الأطفال أو البالغين على حد سواء. بالنسبة للأطفال، من المهم أن يكونوا محاطين بكبار السن والبالغين كمثال أعلى يساعدهم على أن يتعايشوا مع أحداث الحرب والكوارث. الدفء والأجواء العائلية والرعاية مع شيء من الوقت للاستماع إلى الأطفال وتلبية احتياجاتهم بأن نكون قريبين منهم ومعالجة الأمور شيء مهمّ.

عندما تكون البنية الاجتماعية مدمّرة والكبار لم يعودوا قادرين على حماية أطفالهم – ناهيك عن أنه ليس هناك وجود ذلك الفائض لتلبية الاحتياجات من أجل التقارب وأن تظهر أنك تستمع إليهم عندها يتعرض الأطفال لأمراض نفسية وردود فعل متزامنة، هذا إن بقوا على قيد الحياة. في 2005 ما بين 80 و 90 بالمئة من البالغين الفلسطينيين في الأراضي المحتلة يخشون يوميا على عائلاتهم وعلى سلامتهم . ستة من عشرة يخافون على منازلهم في حين أن تسعة من أصل عشرة عندهم خوف على مستقبلهم ومستقبل عائلاتهم بدرجة متوسطة. حتى

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قبل الاعتداء الإسرائيلي الأخير على غزة، كانت قدرة تحمل العائلات الفلسطينية والشبكات الاجتماعية في غزة قد وصلت إلى نقطة الانهيار.

التدمير الإسرائيلي الممنهج للمناطق السكنية المدنية، والمدارس، ومباني الأمم المتحدة في قطاع غزة إلى جانب أعداد كبيرة من القتلى والجرحى من المدنيين،أدى إلى إضعاف الشبكات الاجتماعية وإضعاف قدرات العائلات على الصّمود. والضغط الشديد على الأطفال الفلسطينيين خلال الأعمال الحربية، سوف يؤدي إلى عواقب صحية وخيمة أكبر. كما أن استمرار الحصار على غزة من إسرائيل والولايات المتحدة حتى بعد الهجمات أضعف بشكل واضح قدرة التحمل عند العائلات التي عندها أطفال.

أهم مفهوم لتعزيز المقاومة النفسية عند الأطفال بعد الصدمات العنيفة أو الخسارة هو تعزيز الأسر وفي الوقت نفسه بناء بنية تحتية مدنية مثل المدارس ومراكز رعاية الأطفال، والإمدادات الغذائية والأمن من أجل الحماية. وبدلا من ذلك أصبحت الآن الصدمة قوية وتعزيز القدرة أضعفها الحصار المستمر على جميع المجتمع المدني الفلسطيني في غزة. "مكتب مراقبة الممتلكات الأجنبية"

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المعروف اختصارا ب (أوفاك) هي هيئة إشرافية أمريكية تشرف على تطبيق قانون "الباتيريوتيك أكت و على الصعيد الدولي أيضا.

من الناحية العملية تعيق (أوفاك) جميع المنظمات الإنسانية الوطنية والدولية عن التعاون مع الأكاديميين في إطار التعليم والخدمات الصحية الفلسطينية وإعادة بناء البنية التحتية المدنية في قطاع غزة، ما دامت تحكمها حكومة حماس، التي تعتبرها الولايات المتحدة منظمة إرهابية.

جمانة التي تبلغ تسعة أشهر من العمر، التي كنا مضطرين لبتر جزء من يدها، ترقد في سرير كبير في الطابق الثالث من مستشفى الشفاء. المرأة باللباس الأسود التي كانت تقف بجانب السرير لم تنته من الحديث عن المجازر في حي الزيتون وقدر عائلة السموني المشؤوم. والذي أثارها أكثر هو أن الجرحى بقوا محاصرين ولم يتلقوا المساعدة من أولئك الذين يمثلون المجتمع الدولي في قطاع غزة. كان هناك العديد من الناس في المنزل، بعضهم جرحى وبعضهم لاقى حتفه.

لم يترك الإسرائيليون الصليب الأحمر ولا عمّال الإغاثة أن يدخلوا إلى المكان. بعد أربعة أيام، سمحوا لبعض رجال المساعدة بالدخول. وهكذا تم إنقاذ بعض الأطفال. أربعة أطفال كانوا حول أقاربهم وأمهاتهم القتلى. أخبرت المرأة أن هناك عائلة أخرى، دُفنت حية تحت جرافات ودبابات العدو. أولا تدمّر الدبابات المنزل وبعدها تقوم الجرافات العسكرية بتغطية الأموات بالرّدم. كان ما يزال العديد من المباني بداخلها قتلى، أخبرتني عن طريق الممرضة التي كانت تقوم بالترجمة من العربية. كانت غاضبة. بكل وضوح، أحسست بأسئلتها المليئة بالاتهام التي صفعتني بها، أحسست بالذنب ينتابني.

في واقع الأمر أعلم أن ذلك ليس ذنبي، لكن في الوقت نفسه شعرت بشدة كم أنا أبيض وأوروبي هناك حيث كنت واقفا. سخطها العادل كان موجهاً إلي. مقتطفات من مقولة للكاتب السويدي يان ميردال، خطرت على شكل ومضات في وعيي: "أوروبا عالقة في مستنقع مثير للشفقة، غير قادرة على أن ترى وتقوم بمسؤولياتها الجماعية من دون شكّ، نحن مشاركون في الذنب. ستون سنة من الاحتلال الدموي وغير العادل وعشر سنوات من الإذلال والازدراء والقمع، وتزايد العنف العنصري تجاه الفلسطينيين في الضفة الغربية وفي الشتات خاصة في

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لبنان وهذا الحصار المتعب المفروض على غزة دون نهاية. شاهدت الكثير من ذلك. سافرت وتعلمت خلال ثلاثين سنة. هل ما قلته لكم واضح؟ واحد من أعند أصدقاء إسرائيل من حزب العمال، اسمه هوكن لي، الآن أصبح عمره 103 سنوات، قال إنّ الدعم لإسرائيل كان على حساب حق وحرية الفلسطينيين وحقّهم في حياة كريمة. الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية وفي طليعتها حزب العمّال، كانوا من الناشطين والداعمين لإسرائيل، إلى جانب الولايات المتحدة التي دعمت مشروع الاحتلال الإسرائيلي. سكرتير حزب العمل، كان من أصدقاء إسرائيل المتحمسين ويزور الزعماء الإسرائيليين باستمرار، ليظهر لهم دعمه.

"أنا وغيري من أصدقاء إسرائيل نسينا لفترات طويلة جدا أن الفلسطينيين أيضا هم أناس ، اعترفَ، ولكن ليس قبل خريف عام 2008 "أنا أعرف ما نوع الجواب الذي تريدون. إذا ماذا بشأن الفلسطينيين؟ سوف أعترف لكم أنه لسنين عدة لم يكونوا أبدا في فكرنا. تعاطفنا كان غير مقسوم، تعاطفنا كان بالكامل مع الذين سوف يبنون عالما جديدا وأفضل مع الشعب الذي تعذّب أكثر. هذا ما كتبه هوكن لي من قدامى حزب العمّال. "أن تأتي متأخرا، خير من ألا تأتي أبدا"، هذا ما فكرت به عندما رأيت هذه المقالة في الجريدة، قبل أن أذهب إلى غزة، لأدرّس طلاب الطب في جامعة الأزهر.

لكن في الواقع، هل صحيح، أن تأتي متأخرا خير من أن لا تأتي أبدا ؟ لماذا لم تفعل النرويج شيئا بسرعة وبقوة عندما بدء بناء المشاريع الصهيونية، ما يسمى "العالم الأفضل والجديد ، ذهبت إلى "أرض إسرائيل ، "إسرائيل الكبرى التي يعني تهجير المزيد من الفلسطينيين. لم يكونوا أبدا في فكرنا". هذا شيء مقيت أن تقوم به السلطات النرويجية لعشرات السنين" نسوا" الفلسطينيين. المرأة باللباس الأسود نظرت إلي عيني وسألتني مباشرة وهي ترتعد في هدوء:

- لماذا؟ كيف يمكن أن يحدث هذا وليس هناك من أحد أن يوقفهم، يوقف الجنود الذين يقتلوننا ويقتلون أطفالنا؟ مرة أخرى أحسست كثيرا بالذنب. فما يأس بداخلي. ربتُّ على رأس جمانة وابتسمت معتذرا وخرجت من الغرفة باعتذار تافه آي أم سوري أنا متأسف.

كنت أعرف أن قصة جمانة كانت فقط البداية. خلال الأيام القادمة سوف ألتقي بالمزيد من عائلة السموني. ومن بينهم ابنة التسع سنوات أمل عطية

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

السموني وأخيها فرج الذي يبلغ من العمر 22 سنة. في صباح الخامس من يناير بعد لقاء جمانة، أرسلت التقرير اليومي للمجموعة الصحفية النروجية الثابتة والتي كانت تراقب الهجمات على غزة من إسرائيل والتي أصبحنا نسميها "تلال العار في الشمال مباشرة على حدود غزة. هنا كانت الصحافة الغربية كلها مجتمعة، حيث كان الإسرائيليون يخدعهم بالادعاءات. كان الناطق العسكري باسم الجيش الإسرائيلي، يستعمل كثيرا كلمة "الاحتياجات الأمنية" كذريعة للرقابة. لقد بذلت قصارى جهدي لتزويد الصحفيين النرويجيين الذين كانوا عالقين في إسرائيل بآخر الأخبار مما كنا نعيشه في مستشفى الشفاء. كانت تقاريري الموجزة ترسل إلى ثلاثة صحفيين ثابتين. لينا فرانسون من "الداغ بلاد و يون ماغنوس من "الفي جي وفريدريك غراسفيك، من "التي في تو مع نسخة لصحفيي "الإن آر كو نينا أينم و نيلس ميهرين من أن أر كو ترومس وفينمارك وإيبا ويرجيلاند و منسق نورواك يون إيفين يانسن، وجميعهم كانوا من الثابتين على اللائحة؛ وجميع الاتصالات من وسائل الإعلام التي ترغب بالصور وبعض المواد. كل من الاتصالات الهاتفية والبريد الالكتروني لم تكن تعمل بشكل مستمر، لذلك كنت أرسل المواد الخام والصور إلى مصادر عدة من مكتب غزة الذي سميناه مزحا بمكتب عملنا. بعد ذلك أصبح الكثيرون يريدون الأخبار منا.

في صباح اليوم التالي لمجزرة عائلة السموني كتبت ما يلي في البريد الإلكتروني المشترك: منازل جديدة قصفت، في المكان نفسه الذي قتل فيه أكثر من أحد عشر شخصا من عائلة السموني، فقط الصغيرة جمانة، ابنة التسعة أشهر بقيت على قيد الحياة. هذه مجزرة مشابهة لمجزرة ماي لاي. لدي عدد كبير من المصادر، ولكن لا أستطيع الذهاب إلى المنزل الذي أجبرت العائلة على البقاء فيه وقصف بالدبابات الإسرائيلية.

مستشفى الشفاء في حالة مزرية، يفتقر إلى كل شيء: عربات لنقل المرضى، تنفس صناعي، وأجهزة المراقبة. نضع المرضى الخارجين من غرفة العمليات الذين بحاجة إلى العناية الفائقة على الأسرّة العادية. يجب علينا فصل الأطفال المصابين عن أهاليهم لأنه لم يعد هناك مكان للأهالي (بصريخ يمزق القلب). كنا بالأمس نفتقر للضمادات اللينة التي تستعمل للتحكم في النزيف بعد عملية البتر. اضطررت أن أقوم ببتر خفيف كي أسيطر على النزيف. أنقذ الطاقم

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الطبي الفلسطيني العديد من الأرواح ليلة البارحة من دون شك واستطعنا أن نرجع أناسا كانوا ينزفون ومن غير ضغط أو نبض إلى غرف العمليات وقمنا بعمليات بتر منقذة للحياة. هناك بعض من النقاط المضيئة، الكثير في محيطنا ومن زملائنا، دفء الناس في هذا الجحيم، لكن بالنسبة لي كان شيئا مظلما. أحسست بأنني شاهدت الكثير خلال الأيام الماضية، خصوصا ليلة البارحة. أشياء لم أر مثلها من قبل. أسلحة جديدة استعملت ونتائج مهولة.

في وقت متأخر من الليل غطسنا في أحلام نوم مضطرب. . متعبون جداً لدرجة أننا لم نسمع أي شيء من القصف، ولكن الهجمات على مدينة غزة كانت في تصاعد. عدد الجرحى والمصابين الذي نرسله مبنياً على إحصاءات يومية من السلطات الطبية هنا في مستشفى الشفاء. تقوم وزارة الصحة بأقصى جهدها، لكن من المستحيل أن تحصل على أرقام دقيقة. معظم الرجال الذين يأتون هم من المدنيين. كيف أعلم ذلك؟ لأن المرات القليلة التي أتى فيها المقاتلون تأتي مخابرات حماس وتتعرف عليهم. البارحة مئة في المئة كانوا مدنيين. وحتى الآن لم نر صحافياً غربياً واحداً هنا. لكن كان هناك العديد من الصحافيين الفلسطينيين والعرب المقتدرين.

إنني قلق اليوم. الهجمات تزداد ضراوة كل يوم والمزيد من المباني السكنية تدمّر. ارتفاع رهيب في عدد القتلى والجرحى الأطفال. وهذه المجازر الوحشية التي نسمع عنها تقوم بها قوات المشاة الإسرائيلية. في اليوم نفسه نشرت كل من صحيفة اكسبريسن السويدية وأفتن بوستن النرويجية قصة الصغيرة جمانة التي أرسلتها إليهم وقصة المجزرة الواضحة التي حلّت بعائلتها.

لم يحدث الكثير. واصلت القوات الإسرائيلية هجمات قوية بدون انقطاع. لم أكن قد نسيت جمانة، لكن حدث الكثير في اليومين الماضيين. صعدت الدرج وسط طقس شديد البرودة إلى الطابق الرابع للذهاب في زيارة ليلية للأطفال في قسم الأطفال. هناك التقيت بالدكتور حامد أبو عبيد، جراح الأعصاب الماهر والنشيط، وهو الذي أجرى عملية لسمر في العمود الفقري والحبل الشوكي. دعاني أن أرافقه إلى غرفة لثلاثة مرضى.

قال بصوت منخفض:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فرج سموني 22 سنة يسهر على اخته الصغيرة امل عطية السموني 9 سنوات، التي انتشلها من تحت الركام بعد ان قضت ايام تحت ركام منزل العائلة.

- دكتور مادس، يجب أن تنظر إلى هذه المريضة.

- جاءت للتو.قصتها أيضا لا تصدق.

أمل عطية السموني، فتاة في التاسعة من عمرها، ملفوفة ببطانيات عدّة. على ما يبدو كانت نائمة. وضعت لها سوائل ضمن الوريد، كما أن لديها لصاق في الجانب الأيمن من رأسها، ما عدا ذلك لم تكن هناك أصابات مرئية. شاب فلسطيني يرتدي سترة من الجلد البني مع (قبة من الفرو مرفوعة خلف الرأس) وكوفية حمراء نسميه بالنرويج "الشال الفلسطيني معلقة حول عنقه، كان لا يبدو عليه أنه مصاب، لولا تلك الضمادة الكبيرة التي كانت في الجانب الأيمن من عنقه. قدّم نفسه باسم فرج السموني 22 سنة، وأخ أمل. كان وجهه جامدا غير مبال، ونظر إلي بنظرة سوداوية وعدوانية تقريبا.

قال الدكتورحامد بصوت منخفض:

- انتشلت شقيقته من تحت حطام بيتهم المدمّر، بقيت هناك لمدّة أربعة أيام دون ماء أو طعام..

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قال مادس:

- هل هذا ممكن حقا؟ ماذا حدث؟

- هي وشقيقها من عائلة السموني، العائلة التي تقطن في حي الزيتون التي قد سمعت عنها. أخذت فرج من يده وقدمت نفسي، الدكتور حامد كان يترجم.

سألته:

- ماذا حصل لأختك؟

نظر إلي أول الأمر طويلا، ثم ألقى نظرة تساؤل نحو زميلي الذي أومأ له مشجعا.

- كانت مستلقية أربعة أيام تحت المبنى المنهار الذي قصفه الإسرائيليون على من فيه من أفراد عائلتي.

كان صوته منخفضا مخلوطا بهمس مكثف ومرتجف.

- قتل تسعة وعشرون شخصا من عائلتنا، من ضمنهم والدنا. لا نعرف عدد الذين هم تحت الأنقاض. لم يتلق المصابون المساعدة لأن إسرائيل منعت الهلال الأحمر والصليب الأحمر من الوصول. كان في المنزل أكثر من مئة شخص مجتمعين عندما قصفوا المنزل.

- لكن أيضا تلقينا الصغيرة جمانة السموني، هل هي أيضا من عائلتك؟

- نعم، وهناك الكثيرون. ليس لدينا اطلاع شامل. هل رأيت أحدا من عائلتي؟

أخبرته باختصار عن جمانة والجدة. كان يعلم بالأمر. هو أيضا أصيب لكنه استمر في البحث عن باقي عائلته. أخرج أخته اليوم بنفسه من تحت الركام وأحضرها إلى المستشفى..

كانت منهكة تماما من العطش والجوع والبرد.

سألني:

- هل ستعيش؟

رفعت الغطاء وفحصت بسرعة جسد تلك الفتاة الرشيق. كانت على ما يبدو من غير إصابات خطيرة في الجسم، لكن منهكة وباردة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- سألت الدكتور حامد:

- هل لديها إصابات أخرى.

- لا، لم نعثر على إصابات أخرى، لكنها منهكة كما ترى.

- يجب أن نفحص ما إذا كانت قد تعرضت إلى سحق في العضلات التي يمكن أن تسبب الفشل الكلوي. دعنا نأخذ الهيموجلوبين من عينات الدم والبول. هل البول لونه طبيعي؟

- حسب معرفتي لونه طبيعي، لكن نأخذ تحاليل الدم التي اقترحت. أعتقد أنها ستنجو. نحن شعب قوي.

بلا شك شعب قوي. أربعة أيام مدفونين أحياء. مثل القصص التي تدور في جميع أنحاء العالم بعد وقوع الزلازل. غزة ليست كارثة طبيعية، ولكن كارثة مئة في المئة من زلزال. زلزال مخطط له بعناية ونفذ ليشكل كارثة ذات أبعاد وحشية بكل المقاييس التي لا يمكن تصورها. قصة أمل عطية لا يسمح لها بأن تخرج عن نطاق غزة المظلمة. إسرائيل سوف تعمل دون إزعاج من الرأي العام العالمي.

بعد العودة إلى النرويج، وجدت المزيد من الصور والمقابلات التي أجريت مع فرج السموني. في بعض الصور كان يشارك في التنقيب عن أقربائه الذين قتلوا تحت الأنقاض. في مقابلة تلفزيونية خارج مستشفى الشفاء، في اليوم نفسه الذي وقعت فيه المجزرة ، يقول وهو يبكي عن قتل أبيه وعمه وآخرين من أفراد الأسرة. كان حول رأسه وعنقه ضمادة، لكن على الرغم من ذلك ظلّ مستمرا في البحث عن عائلته، إلى أن أخرج أخته من تحت الأنقاض بعد أربعة أيام. طوال الوقت كانت المنظمات الدولية التي تتولى المسؤولية عن السكان المدنيين الفلسطينيين، تبلِّغ عن الوحشية وعن الجرحى الذين يحتاجون إلى مساعدة، وعن القتلى -أو ربما الأحياء الذين يزالون - مدفونين تحت الأنقاض. حاولوا عبثا أن يجدوا طريقهم إلى مكان الحادث لكنهم كانوا دائما يواجهون برصاص الجيش الإسرائيلي.

ربما لم يكن 29 قتيلاً، ربما كان 32 قتيلاً؟ بغض النظر عن عدد القتلى والجرحى، العمل العسكري ضد عائلة السموني بشكل واضح يدل على انتهاك قوانين الحرب والقانون الدولي. رأيت تشابها بمجزرة ماي لاي خلال حرب

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الفيتنام، التي كلفت حياة 347 من المدنيين الفيتاميين، وخاصة المسنين والنساء والأطفال، والعديد منهم تعرّض للتعذيب والاغتصاب. ونحن نعيش الآن مثل هذه الفظائع في غزة؟ مذبحة ماي لاي قد ارتكبت في 16 مارس 1968 على يد الجنود الأميركيين من كتيبة تشارلي اللواء الحادي عشر. ماي لاي أصبحت رمزاً للهجوم الأمريكي في الفيتنام. الملازم وليام كالي أدين باعتباره مسؤولاً عن المجزرة وحكم بالسجن مدى الحياة، لكن الرئيس أمر بإطلاق سراحه بعد يومين.

مكث كالي فقط ثلاث سنوات ونصف تحت الإقامة الجبرية في الجيش قبل أن يطلق سراحه. كل الوقت كان يُلقي باللائمة على رؤسائه. الجنود الآخرون في الفرقة قد أطلقوا منذ زمن طويل عندما أصبحت القضية عامة. وفقط كالي الذي حكم من بين 26 من المتهمين. في أعقاب الخاتمة القانونية المشار إليها ب معيار مادينا"، وذلك نسبة إلى"ارنيست مادينا" الذي كان قائدا لكتيبة تشارلي. وهذا النموذج يوضح مدى مسؤولية الضباط الكبار عن عمل الضباط الصغار في الأعمال الحربية عندما يعلمونهم بذلك. عندما يبلّغ المسؤول الكبير بأن الضباط الذين هم تحت إمرته يقومون بأعمال ضدّ الإنسانية أو جرائم حرب، يكون مسؤولا عن عملهم إذا لم يقم بأي شيء لإيقافهم. جرائم الحرب لا تقتصر فقط على القتل أو سوء معاملة أو ترحيل السكان المدنيين في منطقة محتلة. أحد الضباط الأمريكيين قال بعدها إن كل كتيبة أو كل مجموعة في الفيتنام كان لديها "ماي لاي خاصة بها. هل إسرائيل لديها "ماي لاي خاصة بها؟

لكن البعض في إسرائيل قام بردّة فعل على الأحداث التي وقعت في حي الزيتون. منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية (بيتسليم) تكلمت مع ميساء أم الطفلة الصغيرة جمانة، التي يبلغ عمرها 19 سنة، بعد 5 يناير/ كانون الثاني أصبحت أرملة شابة بطريقة وحشية جدا. المحادثة تكررت كاملة بنصها في الموقع الالكتروني للمنظمة الإسرائيلية لحقوق الإنسان. تقول ميساء لـ (بيتسليم) إن الكابوس بدأ في التاسعة صباح يوم الأحد الرابع من يناير، عندما جاء الإسرائيليون إلى المنزل الذي يملكه حماها، رشيد السموني، في حي الزيتون في جنوب مدينة غزة. يقع المنزل بقرب مباني شركة الإسمنت.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

"كنا أربعة عشرة فرداً في المنزل، الجميع من عائلة السموني: أنا، وزوجي توفيق الذي يبلغ 21 سنة، طفلتنا جمانة، تسعة أشهر، حماي رشيد 41 سنة، حماتي رباب، 38 سنة، وإخوة زوجي، موسى 19 سنة، وليد 17 سنة، حلمي 14 سنة، زينب 12 سنة، محمد 11 سنة، شعبان 9 سنوت، عيسى 7 سنوات، إسلام 12 سنة، وإسراء سنتين. أتى الجنود سيراً على الأقدام وطرقوا الباب. فتحنا الباب، هددونا بالسلاح، وأجبرونا على الخروج من المنزل.

كانوا يرتدون سترات واقية ويحملون أسلحة رشاشة. وجوههم كانت ملونة بالأسود. غادرنا المنزل. خرج وليد جاريا من باب آخر في المنزل، لكن الجنود ألقوا القبض عليه. قادنا الجنود 20 مترا تقريبا حيث منزل شقيق حماي، طلال حلمي السموني الذي يبلغ 50 سنة، كان هناك حوالي 20 شخصا مجمّعين، أصبحنا 35. تركنا الجنود. يبدو أنهم كانوا يريدون أن يفتشوا منزل حماي. بعد ساعة عادوا وأمرونا بالذهاب معهم إلى منزل وائل السموني.

مساحة المخزن المبني من الإسمنت المسلح 200 متر مربع، ويبعد عشرين مترا من منزل طلال. أول الأمر أخذونا إلى البيت ومن ثم إلى مخزن منزل وائل السموني الساعة الحادية عشر. كان هناك حوالي 35 شخصاً مجموعين من قبل. أصبحنا حوالي سبعة وتسعون شخص وبقينا إلى صباح اليوم التالي من غير ماء وطعام.

وفي حوالي السادسة صباح يوم الاثنين 5 يناير كانون الثاني كانت المنطقة هادئة. واحد من الرجال في الأسرة، عدنان السموني الذي يبلغ عشرين عاما، قرر أن يحضر عمه وعائلته حتى يكونوا سويا مع الآخرين. حما ميساء، يقف عند الباب مع ابن شقيقه صلاح طلال السموني (30 عاماً) وابن عمه محمد ابراهيم السموني (27 عاماً)، كانوا يحاولون الحصول على بعض الطعام للعائلة. في اللحظة التي غادروا فيها المنزل، أصيبوا بصاروخ أو قنبلة. لاقى محمد مصرعه على الفور، في حين أصيب الآخرون بشظايا. حين خرج زوج ميساء لمساعدتهم، أطلقت قنبلة أو صاروخ تجاه سقف المستودع التي كانت العائلة محاصرة داخله. من هذا الانفجار القوي، يمكننا القول إن ذلك كان صاروخا من طيارة حربية.

عندما سقط الصاروخ على المنزل، ارتمت ميساء على الأرض مع الابنة الصغيرة. المكان أصبح مليئا بالغبار والدخان. سمعت الصراخ والبكاء. عندما

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

همد الغبار وتلاشى الدخان، استطاعت أن تلمح 20 إلى 30 قتيلاً من حولها ونحو 50 جريحاً. تقول ميساء إن القتلى الذين كانوا ملقون حولها، من بينهم زوجها، الذي كان مصابا في ظهره وحماها مصاب في رأسه (كل دماغه كان على الأرض)، الحماة رباب، وأخو الحماة طلال وزوجته رحمة محمد السموني (45)، زوجة ابن طلال مها محمد السموني (19) عاماً وابنها محمد حلمي السموني الذي يبلغ عمره خمسة أشهر. كل دماغه كان خارجا من مكانه. كذلك رزقة محمد السموني (50) عاماً، حنان خميس السموني (30) عاماً وحمدي ماهر السموني (22) عاماً كانوا هناك، كلهم لاقوا مصرعهم. رغم أن ميساء وصهرها موسى أصيبا فقط بجروح طفيفة، هو في الكتف وهي في اليد اليسرى. ابنتها الصغيرة جمانة يدها اليسرى أيضا مصابة، كل من الإبهام والأصبع الثاني والثالث بُترت. لفت منديلا علّ النزيف يتوقّف. الجرحى مستلقون على الأرض، يصرخون طلبا للمساعدة، لا يستطيعون الحركة. الأطفال الصغار يبكون مع جدة زوجها شفاء السموني التي تبلغ من العمر (70) سنة.

احدى قريبات جمانة تعتني بها بعد العملية. تسألنا لماذا لا يستطيع احد ان يوقف الاسرائليين عن قتل اطفالنا؟.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ربع ساعة بعد هذا الهجوم الثاني، قرر الصهر وميساء أن يذهبا إلى منزل العم أسعد السموني الذي يبعد عشرين متراً. ركضا باتجاه البوابة وبدءا يطرقان الباب ولكن لا أحد يجيب. قفز الصهر من فوق السور وفتح الباب حتى نتمكّن من الدخول. أصبحنا الآن شخصين بالغين وثلاثة أطفال صغار: الابنة جمانة، وإسلام أخت موسى الصغيرة التي تبلغ من العمر خمس سنوات، وإسراء بنت السنتين. في منزل العم، كان يوجد 40 إلى 50 جندياً إسرائيلياً، والعديد من أقاربها، ربما 30، كانوا مجمّعين في غرفة واحدة.

بين سبعة وعشرة رجال كانوا كلهم معصوبي العينين. أحد الجنود الإسرائيليين قدم إلينا وقدّم لنا الإسعافات الأولية. وضع ضمادات على أيدينا وقاس نبضنا قبل أن يقيّد موسى من الخلف ويضع عصابة على عينيه. قال الجنود بأنهم سيطلقون سراحنا، لكنهم سيحتفظون بموسى وخاله عماد في حال أتى مقاتلو حماس.

أدركت بأنهم سيستخدمونهم كدروع بشرية. أمرونا بالخروج من المنزل، ومشينا تقريبا نصف كيلومتر قبل أن نجد سيارة إسعاف وهي التي نقلت ابنتي إلى مستشفى الشفاء. الآخرون من عائلتي ما زالوا تائهين في الشوارع. في وقت لاحق قدم بعضهم إلى المستشفى. على حدّ علمي الجرحى والقتلى الذين تركناهم تحت الأنقاض، مازالوا هناك. لم أجد أي واحد منهم في المستشفى. بهذا اختتمت ميساء مقابلتها مع بيتسيليم.

كلفت مجزرة حي الزيتون على الأقل حياة 29 فرداً من عائلة السموني. من ضمن الذين سفكت دماؤهم أحد عشر طفلاً، وثمان نساء.

الشهداء الأطفال هم:

- عزة صلاح السموني، 3 سنوات.
- وليد رشاد السموني، 17 سنة.
- إسحاق إبراهيم السموني، 14 سنة.
- إسماعيل إبراهيم السموني، 16 سنة.
- رزقة وائل السموني، 8 سنوات.
- فارس وائل السموني، 12 سنة.
- هدى نائل السموني، 17 سنة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- أحمد عطية السموني، 7 سنوات.
- معتصم محمد السموني، 6 شهور.
- محمد حلمي السموني، 6 شهور.
- نصار ابراهيم السموني، 4 سنوات.

الشهداء من النساء:

- رحمة محمد السموني، 50 سنة.
- صفاء حلمي السموني، 25 سنة.
- مها محمد السموني، 22 سنة.
- رباب عزات السموني، 32 سنة.
- ليلى نبيه السموني، 40 سنة.
- رزقة محمة السموني، 50 سنة.
- حنان خميس السموني 36 سنة.

الشهداء من الرجال:

- طلال حلمي السموني، 55 سنة.
- عطية حلمي السموني، 25 سنة.
- رشاد حلمي السموني، 42 سنة.
- توفيق رشاد السموني، 23 سنة.
- محمد ابراهيم السموني، 26 سنة.
- إياد عزات السموني، 28 سنة.
- نضال أحمد السموني، 36 سنة.
- حمدي ماهر السموني، 23 سنة.
- حمدي محمود السموني، 80 سنة.

كان الوقت بعد منتصف الليل. لم تكن لأحد أجواء هادئة ذلك المساء. غادرنا الغرفة مع أمل عطية والشقيق فرج لمواصلة زيارتنا الطبية الليلية في فرع الأطفال وغرفة أخرى للأطفال المصابين بإصابات الحرب. في الغرفة 545 توجد ثلاثة أسرة للبالغين. كانت الأسرة مفصولة بستائر زرقاء، تم رفعها وعلقت

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

على قضبان الستارة حتى يتمكن المرضى الثلاثة الصغار والنساء اللواتي يجلسن معهم أن يروا بعضهم البعض.

وضع ممرضان ضمادة لطفل عمره ست سنوات كان مستلقيا على السرير الذي بجانب النافذة، عز الدين سرزهر. كانت تجلس امرأتان على كل جانب من سريره. أما على السرير الذي في الوسط، رأيت سمر عبد ربه التي يبلغ عمرها أربع سنوات. تعاني الطفلة من إصابة عرضية وأجريت لها عملية في الظهر، وقد خرجت لتوها من غرفة العمليات. عند الباب كان يستلقي طفل آخر في سن أربع سنوات، حمادي مملوك، تعرض لانفجار في منزله، مصاب بجروح في ذراعيه. كانت والدته تجلسه معها على طرف السرير، يتشاركان الغطاء.. كل الأطفال كانوا مستيقظين. فقط سمر، التي كانت وحدها.

كانت تملأ الغرفة محادثة خافتة بين ثلاث نساء كن يجلسن مع أطفالهن، وصوت سمر الرتيب ومن دون انقطاع" ماما، ماما، ماما .... تنظر مباشرة إلى السقف في حين تردد وتردد بصراخ منخفض منادية أمها. صوتها اخترق العظام والنخاع. ذهبت إليها، لمست خدها محاولا تهدئتها. النساء من السرير الآخر قلن لها بصوت نصف عال:

ابنة الاربع سنوات سمر التي كانت تهمس طوال الوقت ماما، ماما، ماما

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- "فقط اهدئي، ستأتي الماما حالا.

كان قد وضع أنبوب من البلاستيك في أنف سمر خلال العملية. هذا الأنبوب بمجسّ من شأنه أن يشفط من المعدة ومن الأجزاء العليا من الاثني عشر الهواء والسوائل، بحيث لا يشعر المرء بالغثيان ويتقيأ، وينزل محتوى المعدة الحمضي إلى الرئتين. وهذا مخيف بحيث يؤدي إلى الوفاة، مثل هذه المضاعفات تحصل بعد العمليات الجراحية بشكل عام. لكن في حالة سمر وإصابتها العرضية، إمكانية حدوث الشلل في الأمعاء وإعاقة مرور محتويات الأمعاء يزداد بشكل حاد. مثل هذا المجس عبر الأنف شيء مزعج. لكن سمر كانت هادئة بشكل يثير الإعجاب. لأن الشيء الوحيد الذي كان يأخذ تفكيرها هو أمها.

- ماما، ماما، ماما.

شعرت بالدموع ستتفجر. ماذا علينا أن نفعل؟ طفلة مصابة، بين الغرباء. وهي تمر لأول مرة في تجربة مروعة، ثم إجلاء درامي دون الأم والأب، أو غيرهما من الأشخاص القريبين إليها في سيارة إسعاف كانت تسير بسرعة كبيرة لأن قوات

عزالدين اصيب بشظايا اجريت له عمليات في صدره وبطنه.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

العدو الذين آذوها، كانوا أيضا على استعداد لإطلاق النار على سيارة الإسعاف.

وها هي الآن ترقد هنا حتى ذلك الوقت من غير أقرباء وأحباء تعرفهم.

النساء الأخريات فهمن وضوح مخاوفي. قلن:

- نحن نهتم بها ونهدئها بقدر ما نستطيع.

تابعنا جولتنا إلى السرير الذي بقرب النافذة. عز الدين الذي يبلغ ست سنوات من العمر، أصيب بجروح في اليوم السابق عندما قصف منزلهم بسبع قنابل. أصيب الصبي بشظايا في البطن والصدر وأجريت له عملية جراحية فور وصوله إلى مستشفى الشفاء.

كان عنده أنبوب صلب يدخل من أنفه إلى المعدة، بالإضافة إلى أنبوب الصدر وضمادة كبيرة تغطّي منطقة البطن. ترك الجراحون الجرح مفتوحا كي يوقفوا النزيف الذي يمكن أن يهدّد حياته. كان الصبي يتنفس بهدوء، ولكن بطريقة سطحية بسبب الآلام من جروح العملية. كان يرتدي قميصا عسكريا بنّيا عليه شعارات عسكرية ملونة مكتوب عليها "أولد نيفي . ذلك الأنبوب الذي يدخل إلى المعدة كان ملصقا بشكل زائد، بلصاق أبيض من القماش. سوف يتعذب كثيرا إذا حاول أن يخرجه.

حدّق عز الدين في وجهي بنظرة ثابتة، عيناه البنيتان كانتا جميلتين، لكن منتفختين وفيهما تعبير بالصدمة. ماذا حصل؟ ماذا أفعل هنا؟ ومن أنت؟ تساءلت العينان في صمت. نظرت إليه طويلا، لكن النظرات التي تبادلناها بالكاد أعطته جوابا شافيا. لم يكن عز الدين وحده. كانت الأم تجلس بجانب النافذة، والجدّة تجلس في الجانب الأيسر من السرير بينه وبين سمر. كانت الجدة غاضبة. كنت أفحص في هدوء الأحفاد، فقاطعت ذلك الهدوء حين كنت أفحص حفيدها بصوت أقرب إلى الصراخ في حين كانت تلوح بيديها:

- ماذا فعلنا لنستحق هذا؟ ماذا سيحدث لنا؟ جوعنا الحصار لسنين، وليس لدينا طعام لأطفالنا. ليس لدينا طعام لأنفسنا، لكي تكون لدينا طاقة لتحمل الحياة الصعبة في غزة. لماذا نحن الفقراء من الناس العاديين نعاني من الجوع ثم نقصف. هل يمكن أن تجيبني؟ لماذا؟ لماذا آذوا طفلنا وكل الأطفال الآخرين؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

انه لشيء فظيع. لا احد يحمينا ولا احد يستطيع ان يوقف الاسرائيليين، تساءلت جدة عز الدين غاضبة.

ارتفع صوتها إلى مستوى عال وصراخ صاخب. حمادي، الذي كان يرقد على سريره بالقرب من الباب مع أمه في السرير، استيقظ وبدأ في البكاء، ولكن الأم كانت تؤيد الجدّة بقوة وقالت

- انه لأمر فظيع. نحن لا نعرف ماذا نفعل. لا أحد يحمينا، لا أحد يوقف الإسرائيليين.

نظرت الجدة إلي وسمّرتني بعينيها واختتمت:

- لم أكن قط ناشطة سياسية، لكنني كنت دائما أؤيد حركة فتح. من الآن فصاعدا فقط حماس، حماس، حماس، إلى آخر يوم في حياتي.

وحدهم من دافع عنا نحن الفقراء في غزة . لم يكن هناك الكثير مما يمكن إضافته. ذهبنا إلى حمادي، الذي كُسرت ذراعه اليمنى كسور عدّة وجُبِّرت. الشقيقة التي تبلغ من العمر أحد عشر عاما أصيبت بجروح في الهجوم نفسه على منزلهم. كانت ترقد في قسم العناية المركزة بسبب إصابة خطيرة في رأسها. أصيبت الأم بجروح طفيفة في الظهر. كان أخوها أيضا مصاباً.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

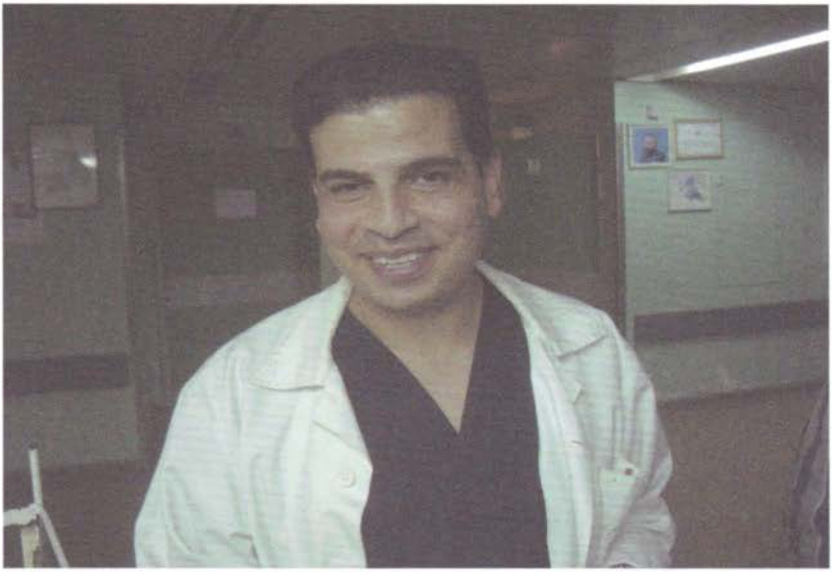

الدكتور حميد خارج غرفة رقم 545 يقول: لا يوجد عندنا حقوق للانسان.

- ماذا سنفعل، إلى أين سينتهي هذا؟ سألتني بينما كنت أدرس صورة أشعة ابنتها، كمحاولة للتهرب من الإجابة.

أجبتها:

- لا اعرف. ما أعرفه أن هناك الكثيرين يدعمونكم، ملايين كثيرة في العالم. في بلدي النرويج مظاهرة كبيرة لدعمكم، مع أنكم لم تسمعوا عنها الكثير هنا في غزة، الكثيرون يحاولون وقف إسرائيل.

كان يبدو اطمئنانا لا يسمن ولا يغني من جوع. جميع النساء كانت تتطلع إلي بنظرات متسامحة. على أي حال كانت تبدو كذلك. ذهبت نحو سمر للمرة الأخيرة، لمست شعرها برفق ووضعت قبلة حذرة على جبينها.

- قلت، أعدك بأنني سأعود إليك.

- ترجم الدكتور حامد ما قلت مرتين. نظرت إلي سمر طويلا بتلك العينين البنيتين.

- ماما، ماما، ماما، هذا كل ما قالت.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

خـرجت إلى الممـر، كنـت مـرعوبـا، محـبطـا ومكتـئـبـا . ثلاثة أطفـال مـصـابون بجـروح، ثلاثة آخـرون، بـالإضـافـة إلى أطفـال السـمـونـي وكل الأطفـال الآخـرين، والأطفال القتلى، والمصابون إصابات طفيفة ومن هم فـزغون والذين يعانون من الأرق، الجميع على أسـرة باردة ورطبة من سلس البول، كل الأطفال الجـائعون، كل الأطفال اليتامى.

– لكن يا دكتور حامد، كيف يمكن أن يحدث هذا، بربك أخبرني، سألت زميلي متوسلا .

نظر إلي طويلا، كانت ترتسم على وجهه قلة النوم وعدد كبير من العمليات، لكنه ما يزال يحتفظ بذلك التعبير الغريب اللطيف والنظرة الدافئة الواضحة.

– تعرف يا مادس، ليست لدينا حقوق الإنسان. هذا ما في الأمر.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الحرب الجبانة

مادس جلبرت

كانت الساعة الخامسة صباحا يوم الجمعة 9 يناير، وكان من المستحيل النوم. شعرت أن الوقت والعالم يتقلصان أكثر فأكثر من حولنا. ربما دخلت القوات البرية الإسرائيلية إلى قلب مدينة غزة اليوم. هنا إلى الشفاء، ربما؟ أو ربما ستكون محاولة أخرى لقافلة سيارات الإسعاف؟ ربما رحيلنا سيكون اليوم، مع قافلة سيارات إسعاف فلسطينية إلى رفح، نهضت.

ذلك "المكتب" الصغير كان يملؤه تجويد هادئ من تلاوة القرآن الكريم من غرفة زملائنا المجاورة. كان ذلك في منتصف صلاة الفجر، أحسست للمرة الثانية كم هي مهدئة تلاوة الصلاة.

في ذلك الوقت المبكر من الصباح كتبت المقالة "داخل مستشفى الشفاء للمجلة الطبية البريطانية ذو لانسث. أرسلت لرئيس تحرير المجلة ريتشارد هورتون قبل بضعة أيام رسالة إذا كان مهتما بتقرير من غزة. جاء الجواب على الفور. "فقط اكتبوا!

سنأخذ التقرير . المشكلة ليست عدم وجود المادة، ولكن الوقت للكتابة ليس كافيا. قررت أن أرسل المخطوطة من غزة بصرف النظر عن مدى ما وصلت إليه من إنجازي للتقرير.

بمرافقة الترتيل في الصلاة وأصوات القنابل بدأت الكتابة تنزلق. كنت أفتقر إلى بعض الحقائق والأرقام. وكان إريك سيجلب ما يستطيع من المعلومات عن إمكانيات المستشفى، ويحاول أن يحصل على بيانات العمليات الجراحية من بداية الحرب وذلك بأن يراجع دفتر بيانات العمليات.كتبت بطريقة مكثفة ومركزة في داخلي رهبة، لأن مجلة ذولانسيث إحدى المجلات الكبرى التي تنتقد وتقيّم المواد التي تستقبلها. كان، بطبيعة الحال، مستحيلا بالنسبة لنا أن ننتج شيئا علميا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

خلال فترة مكوثنا في غزة. وذلك لسببين: التوثيق متأثر كثيرا بالحرب والفوضى، ولأنه أيضا لم يكن لدينا الوقت ولا القدرة الكافية لنقوم بعمل علمي يتطلب الكثير من الإجراءات.

لكن كان يمكن بكل تأكيد إعطاء شهادة عينية مباشرة من المصدر الأصلي لنبلغ للعالم ولقراء ذولانست ما عشناه وشاهدناه في مستشفى الشفاء من خلال تقرير خاص كما سمته المجلّة. عند المجلة ثلاثون ألف مشترك، لكن عندهم أكثر من مليون مستعمل لموقعهم على الإنترنيت. إذن هذا المقال سيصل إلى الأوساط الطبية الدولية وأيضا إلى إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. الأخبار والرسائل البريدية تمّ فحصها. أهم حدث من العالم الخارجي كانت تلك التقارير عن المظاهرات التي تعم كل النرويج. قرار مجلس الأمن بشأن غزة. إذا نظرنا للأمر بعيون ساذجة، كان يظهر جليا بأن مجلس الأمن أتى بقرار قوي، وبما أنني متفائل لا يقهر، جاءني إلهام من الأخبار وكتبت رسالة بريدية إلى "نورفلانكن" (الجبهة الشمالية وهم الصحافيون النرويجيون في إسرائيل).

مستشفى الشفاء، غزة

الساعة: 05:30

يا إلهي! الآن أحسست بأننا نستطيع أن نتنفس من جديد! سمعنا للتو الأنباء التي تفيد بأن مجلس الأمن، بالإجماع تقريبا، أصدر قرارا واضحا بشأن وقف إطلاق النار، والولايات المتحدة لم تستخدم حق النقض"الفيتو"! وبعد يوم من المظاهرات الضخمة في النرويج! الأمور تكاد لا تصدق، ولم نصدق ذلك حتى رأيناها بأم أعيننا.

سقطت بعض القذائف في وقت متأخر من الليل، أحسسنا وكأنها خارج النافذة، لكن الأوضاع هدأت. الآن فقط الدبابير هي ما يحلق في السماء. هل ستحترم إسرائيل القرار؟ من المستحيل أن نستمر على هذا الوضع.

ربما كان الهجوم العنيف على قافلة تابعة للأنوروا، والطلقات التحذيرية باتجاه القافلة، التي تتكون من 16 سيارة إسعاف تحمل ضحايا بإصابات الحرب الخطيرة، كانت القشة التي قصمت ظهر البعير. شاهد العالم ما تقوم به القوات الإسرائيلية، والعالم ضغط على قادته ليقولوا كفى. لقد فات الأوان بالنسبة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

للضحايا والممزقة أشلاؤهم، وأولئك الذين لا يعرفون أنهم سيواجهون المصير نفسه. آه! عليهم أن يناموا ساعة أو ساعتين حتى ألآن، كلّ المنهكين واليائسين والجائعين من سكان قطاع غزة. على كل الأطفال في غزة أن يناموا نوما عميقا ودافئا، وهو ما أصبح مستحيلا من غير صوت انفجار القنابل وصراخ الرعب. نحبس أنفاسنا خوفا - مرة أخرى....

الاطباء والمرضون والمتطوعون الفلسطينيون جاهزون لتقديم اقصى ما يستطيعون على مدار اليوم.

سمحت لأفكاري مرة أخرى أن تذهب إلى زملائنا الفلسطينيين وقدرتهم على التحمل التي لا تكاد تُصدّق. ما الذي يقودهم؟ من أين أتوا بتلك القوة و الشجاعة؟ في كلّ يوم جديد بالشفاء نرى قوة إرادة الأطباء، والممرضين، والمتطوعين ورجال الإسعاف الذي تركوا في أنفسنا انطباعا عميقا. بطبيعة الحال كل واحد التقينا به ترك انطباعا عندنا، وتلك الإصابات البشعة التي لا يمكن وصفها هزّت دواخلنا. ولكن، على الرغم من كل تلك الانطباعات المؤلمة، كانت تجربةُ عظمةِ الإنسان محفورة بوضوح في الذاكرة، كل من المثابرة والحيوية، والصداقة، والتعاون بين مئات من العاملين في مجال الصحة الذين يسكنون مستشفى الشفاء بالليل والنهار يوما بعد يوم. في الوارد هذا الصباح كانت هناك أيضا رسائل بريد الكترونية داعمة من رئيسة نقابة الأطباء، تورين يامبو. تخبر

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بأنها كانت بالأمس في المظاهرة الضخمة في أوسلو. نقابة الأطباء حثّت الأعضاء على المشاركة في المظاهرات الكبرى في جميع أنحاء البلاد مطالبين بالوقف الفوري لإطلاق النار.

أجبتها بوصف وضعية زملائنا الفلسطينيين، في رسالة الكترونية في الساعة السادسة والنصف: موظفو الصحة بمستشفى الشفاء استنفذوا تماما الآن. اليوم اجتزنا أربعة عشر يوما بشكل متواصل، حيث ينامون من ساعة إلى ثلاث ساعات كحدّ أقصى في اليوم. شحوب رمادي في وجوهنا، جياع، لدينا نقص في الطعام، وصراع أبدي على المكان، المعدّات، الأيادي، الضوء، الدفء، الوقت، والعناية لمئات الجرحى الذين يتوافدون، ومئات من ذوي الجرحى اليائسين والذين يملؤون كل زاوية في المستشفى. إنه مستشفى ميداني حقيقي الآن، والكل عنده الهواجس نفسها: هل الجريح القادم أو القتيل القادم واحد من أقربائي؟

أمس - خلال فترة وقف إطلاق النار - قصف الإسرائيليون منزل أحد الزملاء، يعمل في الجناح الطبي، حين كان في المنزل لرعاية الأسرة ولينام قليلا، تحت ذلك القصف (تلك السويعات الثلاثة التي هم في أمس الحاجة إليها" وليرى عائلته ويقضي بعض حاجات المنزل) قتلت زوجته الحامل، الأوكرانية الأصل مع طفلين من أطفالهم. بقي زميلنا على قيد الحياة مصابا، وواحد أو اثنين من الأطفال (لست متأكدا مئة في المئة من عدد الأطفال القتلى أو الجرحى، سوف أتحقق اليوم).

إنه لشيء تاريخي، أن يستمروا في مواصلة الجهود المكثفة لإعطاء شعبهم المساعدات الطبية الضرورية، غزة 2009 سيكتب عنها حتما في كتب بقلم من دم. في قسم الطب. إن رجال سيارة الإسعاف، المرضين، الأطباء، المتطوعين (العديد من طلاب كلية الطب)، العاملين في المستشفى، أولئك الذين يحافظون على المولّد الكهربائي الضروري (الذي يتوقف دائما)، تقنيي المختبر، نعم جميعهم أبطال بلا منازع. لم أر قط في حياتي مثل هذا الكم من الشجاعة وعظمة الإنسان. لكنهم لم يعودوا يتحملون أكثر الآن. وصلنا جميعا إلى نقطة الانهيار.

مادس، مستشفى الشفاء،

غزة، فلسطين المحتلة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سوف تظل الأيام العشرة الأخيرة في غزة محفورة في الذاكرة إلى الأبد. ليس فقط بسبب أهوال القتلى والجرحى، وكل تلك العائلات الفلسطينية، وليس فقط تلك اللحظات من رؤية عظمة الإنسان أمام العاملين في مجال الصحة، ليس فقط ما شهدناه من صمود وشجاعة الشجعان، ولكن أيضا تجاربنا مع الخطر والخوف.

إحدى هذه التجارب كانت عندما أطلقت علينا القوات الإسرائيلية النار بأسلحة ثقيلة، وأجبروا القافلة المؤلفة من 16 سيارة إسعاف على التوقف والعودة إلى مستشفى الشفاء. صوت نيران الرشاشات الإسرائيلية بجانب مستوطنة نيتساريم يوم الخميس 8 يناير مايزال في أذني. المشكلة أن كل التحركات وعملية الإجلاء من غزة كانت دائما قصة الأمان. انعدام الأمن لجميع أنواع المساعدات كانت مشكلة كبيرة بالنسبة للفلسطينيين، وخاصة رجال الإسعاف التابعين للأمم المتحدة، الأونروا والصليب الأحمر الدولي.

لا يمكن لأحد أن يتنبأ ما ستقوم به القوات الإسرائيلية. قصفوا قوافل المساعدات الإنسانية، ومبانيَ للأمم المتحدة، ومخازن المواد الغذائية والطبية التابعة للأمم المتحدة، وسيارات الإسعاف ودور العبادة. قوافل المساعدات الإنسانية، سواء التي كانت تنقل المواد الغذائية أو الجرحى، تأثرت كثيرا في يوم الجمعة ذاك، لأن الأمم المتحدة واللجنة الدولية للصليب الأحمر (اللجنة الدولية) قد أوقفوا جميع تحركاتهم في غزة. ذلك كان رد فعل حاد بشكل غير عادي على تلك الهجمات الإسرائيلية الوحشية على قافلة سيارات الإسعاف قبل اليوم الذي كنا فيه في قافلة سيارات الإسعاف، وعلى تلك الهجمات القاتلة وعلى الأمم المتحدة التي تحمل المساعدات الغذائية وفرق الطوارئ الذين يحملون المساعدات إلى المدنيين المحتاجين، في نفس اليوم.

القوات الإسرائيلية أطلقت النار على شاحنات الأونروا بعلامتها الملحوظة جيداً التي كانت تحاول جلب الطعام والمواد الضرورية من المعابر الحدودية على معبري إيريز وكارني، صباح الثامن من يناير/ كانون الثاني. اثنان من سائقي الأمم المتحدة لقيا مصرعهما. كل من رئيس الأونروا، جون غينغ، ورئيس الشؤون الإنسانية بالأمم المتحدة جون هولمز، اتهم الدبابات الإسرائيلية لإطلاقها طلقات قاتلة تجاه المرسلين من قبل الأمم المتحدة. كانت القافلة قد نسقت بشكل روتيني

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

دمرت محطتان لسيارات الإسعاف و 29 سيارة وقتل16 عاملاً وجرح اكثر من 30 في المجال الطبي اغلبهم من رجال الاسعاف على يد القوات الإسرائيلية، ودمّر او تضرّر اكثر من 40 مستوصفاً ومركزاً طبياً نتيجة الهجمات الإسرائيلية.

مع منسق القوات الإسرائيلية. هذا معناه أن كل الإحداثيات عن الأماكن التي ستمر بها القافلة، وعدد السيارات، ووضع الإشارات على السيارات، وخط سير القافلة كانت قد أعطيت عبر الأمم المتحدة، وحصلت على الموافقة من السلطات العسكرية الإسرائيلية. مع ذلك أطلقت عليها النار وأدى ذلك إلى تلك الفاجعة. يوم الخميس، الثامن من يناير، كان صاخبا جدا، وكان الوقت جد ضيق قبل الرحيل. قسم العناية الفائقة كان مفعما بالحركة والنشاط. كانوا رجال الإسعاف يعملون بشكل مكثف مع ممرضي العناية الفائقة والأطباء ليضمنوا سلامة المعدّات والوثائق والصور السينية والأدوية الضرورية لرحلة ثلاث إلى أربع ساعات داخل سيارات الإسعاف. ذوو المصابين ينتظرون في قلق خارجا. عندما خرجنا بنقالات الإسعاف، تجمع ذوو العائلات حول السيارات ليودعوا ذويهم.

- دكتور، دكتور - هل ستكون الأمور على ما يرام؟ هل سيبقى على قيد الحياة؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الكثيرون يبكون. ربما كانت تلك المرة الأخيرة التي سيرون فيها عزيزا عليهم. كانت الطائرات بدون طيار تراقبنا من أعالي السماء. سمعنا دوي انفجار قنبلة.

سألت:

- أليس هناك وقف لإطلاق النار الآن؟

- قال أسامة،ممرض العناية المركزة:

- دكتور مادس أنت تعرف وقف إطلاق النار على الطريقة الإسرائيلية. يستمرون "في القصف قليلا" وذلك يسمونه ببساطة - هدنة - وليس وقف إطلاق النار.

وجدت المريض الذي سأتولى مسؤولية مرافقته. طواقم المسعفين من أربع أو خمس سيارات إسعاف، يعملون معاً مع الممرضين والأطباء لجعل المرضى جاهزين للنقل. جميع المرضى كانوا تحت التنفس الاصطناعي، وجميعهم من جرحى الحرب.

كان لدى جميع الجرحى تحت التنفس الاصطناعي، أنبوب بلاستيك يؤمن مجرى تنفس، موضوع في القصبة الهوائية مع مجرى الهواء والتنفس الاصطناعي يمكننا حماية رئتي المريض من التقيؤ الحارق الحامض والخطير الذي يمكن أن يتسرب من المريء إلى المجاري الهوائية. كما أن هذه العملية تساعد جهاز التنفس على العمل بشكل طبيعي.

في الواقع، جهاز التنفس الاصطناعي عبارة عن أنبوب نفخ متطور ينفخ الهواء إلى داخل الرئتين، حتى يتسنى للرئتين أن تتوسع و"تتنفس من غير أن يكون المريض بحاجة إلى استخدام وظيفة التنفس. يمكنه أيضا دعم تنفس المريض التلقائي من خلال تزويد الضغط المفرط تحت عملية الاستنشاق والضغط المضاد تحت عملية الزفير. يتكون خليط غاز جهاز التنفس الاصطناعي من الأكسجين النقي مع هواء يعتمد على عمل الرئتين عند المريض. أجهزة التنفس الاصطناعي هذه الأيام جد متطورة، تدار بالحاسوب وفيها العديد من المميزات، و تعدّل هواء الزفير والشهيق بعناية. كان مستشفى الشفاء يملك بعضا من الآلات الحديثة، لكن بسبب الحصار كانت معظم أجهزة التنفس الاصطناعي قديمة وبالية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المريض الذي كنت مسؤولا عنه، شاب في العشرينيات، خضع لعملية جراحية في أيام سابقة بسبب إصابة في منطقة البطن. كان يتنفس على جهاز التنفس الاصطناعي بـ"تخدير مكثف" لأنه مصاب أيضا بجرح في تجويف الصدر وقد عولج بأنبوب الصدر (أنبوب توراكس) رغم تزويده باستمرار بكميات كبيرة من الأدوية المنومة والمسكنّة، كان يبدو ضعيفاًعندما كنت أتحدث إليه وأفحص جراحه.

ساعدت بتبديل أغطية السرائر وتثبيت الأنابيب والخراطيم الضرورية التي يستعمل الكثير منها لمرضى العناية الفائقة، والتي يجب أن تكون مع المريض أثناء عملية النقل. عندما تنصت إلى صدره سمعتُ صوت غرغرة، فاقترحت أن نسحب المخاط من صدره. هذا الإجراء يستوجب إدخال قسطرة بلاستيكية معقمة ورفيعة، موصولة على جهاز "التفريغ" (فاكيوم) تدخل في القصبة الهوائية وتمتص المخاط من الرئتين ومن المجرى الهوائي، وتمتص أيضا الدم والسوائل الأخرى التي تعيق مرور الهواء وتسبب التهابات خطيرة.

أجاب ذلك الممرض الخدوم:

- لا توجد مشكلة.

أخرجنا كميات كبيرة من المخاط، خليط من دم مخثر أسود، فتحسن صوت التنفس عنده.

صرخ أحد رجال الإسعاف على عجل:

- أسرعوا! علينا أن نذهب الآن. الآخرون ينتظروننا. لقد سبقتنا القافلة. لنذهب مادام لنا تصريح من الإسرائيليين. لدينا ساعة واحدة فقط!

رفعنا المريض على حمالة سيارات الإسعاف ووضعنا أجهزة المراقبة و جهاز التنفس الاصطناعي النقال على طول ساقيه وثبتناه جيدا. راجعت بعناية وصلات الخراطيم. "الشيطان يكمن في التفاصيل ، هناك خطر في نقل مرضى العناية المركزة الذين هم تحت التنفس الاصطناعي وفي غيبوبة اصطناعية. من خلال خبرتي الطويلة كطبيب في هيليكوبتر وطيارة الإسعاف في شمال النرويج، أعلم كم هو خطير مثل ذلك النوع من عمليات النقل - في زمن السلم - مع مريض واحد وعلى أكثر الاحتمالات مع مريضين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إنهم يعتمدون كليا على أننا نفهم ونسيطر على الأعضاء الحيوية داخلهم. وفجأة يكتشفون أن عطلا ما طرأ على إحدى الآلات التي تبقي المريض على قيد الحياة. عادة يكون المرضى أو المصابون في حالة جد سيئة ويأخذون العديد من الأدوية الخطيرة. خطأ صغير غير مقصود، أحد الخراطيم يخرج من مكانه بشكل غير متوقع، تحرك بغير حذر يمكن أن يكون سبب انتزاع أحد الأسلاك التي تكون مربوطة على البطارية أو على أنبوب الأوكسجين الذي يصبح فجأة خاويا، بسرعة قد تكلف حياة المريض.

الآن نحن في حالة الحرب، وسيكون معنا ستة عشر مصاباً من المصابين في حالة سيئة في طريقنا جنوبا إلى رفح، ومن ثم إلى مصر، والذي لم يكن طريقا سريعاً ولا حتى آمنا، والقوات الإسرائيلية العسكرية على طول الطريق. جررنا بسرعة الحمالة عبر المدخل الرئيسي خارجا إلى سيارة الإسعاف التي كانت تنتظرنا كان قائد القافلة متوترا.

صرخ الدكتور وليد:

- أسرعوا! نحن متأخرون جدا.

الدكتور وليد هو أحد الزملاء الفلسطينيين الكبار في السن. كان يرتدي سترة حمراء عاكسة للضوء، مع جهازين من اللاسلكي في يديه، وكان يتكلم على الدوام. قال لي:

- دكتور مادس، أنت ستجلس معي في هذه السيارة التي أجلس فيها. إنها السيارة الأولى في القافلة.

كان معي طالب تمريض وأبو المصاب. مجموعة كبيرة من الأقارب كانت تنظر إلينا بوجوه قلقة حين كنّا ندخل المريض إلى سيارة الإسعاف. سألني رجل شاب:

- دكتور، هل تظن أنه سيكون بخير؟

أجبته مهدئا:

- بالطبع، لا تقلق عليه. حتما سيكون بخير.

سألت سائق سيارة الإسعاف:

- هل لديك معدات احتياطية في حالة حدوث مشاكل؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أجاب بإيجاز:

- طبعا.

انطلقت السيارة ببطء خارج البوابة ووجدنا مكاننا في المقام الأول من صف القافلة، بضع مئات من الأمتار عن المستشفى، بينما كنا ننتظر القافلة أن تبدأ بالمسير، لاحظت أن جهاز التنفس يعمل بجهد. في الوقت نفسه أظهر مؤشر الجهاز بأنّ كمية الأوكسجين في دمه بدأت بالانخفاض.

في الحالات الطبيعية يجب أن تكون كريات الدم الحمراء أكثر من خمسة وتسعين بالمئة مشبعة بالأوكسجين. لكن الأوكسجين الآن انخفض إلى ثمانين بالمئة. لون الجلد بدأ يشحب. وضعت السماعة الطبية على صدره، لم أسمع أي صوت للتنفس ولا أي حركة في القفص الصدري.

- لا بد لي من الامتصاص. بسرعة! قلتها بحزم. وأريد الحقيبة.

"الحقيبة" هي مثلما ذكرت سابقا، إنها بالون بلاستيكي يتوسع، نستعمله لنفخ الهواء في المريض عندما لا نستعمل جهاز التنفس الاصطناعي. جهاز الامتصاص الذي كان في سيارة الإسعاف ضعيف. لم يولّد ضغطا كافيا لتنظيف المجاري الهوائية. لم أستطع أن أنزل الأنبوب البلاستيكي الموصول على آلة الشفط كفاية إلى الأسفل. يبدو أن النظام مسدود.

- بسرعة، أريد الحقيبة حالا.

ناولني الحقيبة التي كانت ملفوفة في كيس بلاستيكي. يجب أن أفتحها قبل أن أوصلها إلى الأنبوب الموصول بالمجاري الهوائية للمريض. عصرتها بقوة لإدخال بعض الهواء إلى المريض.

- يا إلهي إنها تسرب الهواء. قلتها بصوت شبه مرتفع لنفسي. تمزقت إلى قطع. لم يتم الكشف عليها.

سألته:

- هل عنك واحدة أخرى؟ بسرعة. هذه التي معي معطلة.

أجاب رجل الإسعاف:

- لا، إنها الوحيدة التي أملك.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في حين كـان زمـلائي يتـبـادلون الرسـائل بالعـربيـة في كل مـن الجـهـازين اللاسلكيين التي كانت بحوزتنا.

ارتفع ضغطي وضغط المريض. نظرت إلى شاشة المراقبة. إشباع الكريات الحمراء بالأوكسجين كان قد نزل إلى السبعين بالمئة، وارتفع الضغط إلى مئة وثمانين ضربة في الدقيقة. تلك كانت من أحرج الأوضاع التي يمكن أن نصل إليها نحن كعاملين في مجال التخدير.

الانسداد الفجائي في المجاري الهوائية، خاصة تحت التخدير العام وفي العلاج المكثف، لأننا كمحترفين، اخترنا هذه الطريقة للعلاج. أخذنا المسؤولية وأخذنا على عاتقنا مسؤولية حياة المريض.

حياة المريض بين أيدينا، أو تحت رحمة هذه الآلات التي من المفروض أن نسيطر عليها. لكن الآن ليست لدي السيطرة، ولم أهيئ جيدا الخطة "البديلة"، كما أنني لم أتحقق شخصيا من قطع الغيار الضرورية بأنها موجودة وتعمل بشكل جيد. يمكنني بالطبع إلقاء اللوم على السرعة وأنني لا أريد خلق مناخ سئ بمضاعفة التحقيق مع زملائي الفلسطينيين. لقد قالوا بأن لديهم الحقيبة وكل معدات الاستعدادات اللازمة في سيارة الإسعاف، لكنني لم أتحقق من المعدات بنفسي، والآن أصبح الوضع حرجا.

حاولت أن أنفخ مباشرة في الأنبوب البلاستيكي. كان الوعاء مسدودا بالدم الجامد والمخاط على ما أظن. ولا بد من استبداله، لا بد لي أن أسحب فورا الأنبوب المسدود وأضع واحدا جديدا!

- منظار الحنجرة

الآن صرخت. عاد رجل الإسعاف. فتح الباب ونظر إلي بنظرة متسائلة. أدرك من صوتي أن الوضع حرج.

صرخت:

- الأنبوب مسدود،لا استطيع إدخال الهواء إلى رئتيه. لابد لي من أنبوب جديد ومنظار الحنجرة.

- لا توجد أية مشكلة، هاهو لديك.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سلمني صندوقا أسود مع أقفال نحاسية صغيرة. فتحته وأخرجت منظار الحنجرة ووضعته في الشفرة الطويلة الملعقية الشكل.

منظار الحنجرة عبارة عن أداة خاصة نستعملها لرفع لسان المريض، في حين يمكننا أن نرى الجزء الخلفي من الحلق للعثور على فتحة الصوت ولتوضيح المشاهدة.

في نهاية الشفرة المقوسة توجد لمبة ضوء صغيرة تلقي ضوءا ساطعا في الحلق بحيث نستطيع وضع أنبوب التنفس الاصطناعي بشكل صحيح بين الحبال الصوتية ومنه إلى القصبة الهوائية. إن وضعه في غير محله بالمريء، سوف يختنق المريض. بطارية اللمبة توجد مخفية في المقبض بهذا المصباح الخاص. كانت يدي ترتعش حين كنت أثبت الشفرة في الفتحة التي توضع فيها البطارية وقوّمت الزاوية. الآن هناك اتصال. الآن ستضيء.

صرخت:

– لا يوجد ضوء! تفحّصت إن كانت اللمبة مشدودة بشكل جيد وأن البطارية في المكان المناسب، لكن لا يزال الضوء غير موجود.

سألته متوسلا:

– هل لديك بطاريات احتياطية؟

أجابني معتذرا:

– متأسف دكتور.

اقتربت الكارثة. بضعة دقائق سوف يختنق المريض. تجمد الدم في عروقي. لحسن الحظ، لم تنطلق القافلة بعد.

ما زلنا نقف على شكل طابور طويل مؤلف من 16 سيارة إسعاف. الآن لا توجد إلا فرصة واحدة فقط. على سيارة الإسعاف أن ترجع إلى المستشفى، حتى يتسنى لنا تغيير أنبوب التنفس في غرفة الإنعاش.

– عد إلى المستشفى الآن. أسرع بقدر ما تستطيع! إنه يختنق! أمسكت السائق بشدة على كتفه، ونظرت إليه بقوة وتكلمت معه بصوت مرتجف. أدرك الوضع واستدار بسيارة الإسعاف. بدأت بالنفخ مرة أخرى بكل ما أملك

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

من قوة مباشرة في الأنبوب البلاستيكي. صوت صفارة سيارة الإسعاف تدوي وبصرخات رهيبة عدنا إلى مستشفى الشفاء. كل ثانية الآن مهمة. عرفت أنني أدخلت شيئا من الهواء وذلك بإعادة تعديل مكان الأنبوب البلاستيكي. كلانا، أنا والمريض، أصبح ضغطنا أكثر من مئتين. إشباع الكريات الحمراء بالأوكسجين مازال ينخفض، ولكن ببطء.

رفعت صوتي عاليا، لم يكن من الضروري فعل ذلك. استدار السائق بسرعة جنونية من البوابة إلى مركز استقبال الطوارئ. نظرت إلى والد المريض بنظرة مشجّعة. وعندما كنا نخرج المريض من سيارة الإسعاف، بدأ يتقيأ بعنف

لحسن الحظ أن الأنبوب كان في مكانه. والآن، يمكننا أن نتدبّر أمرنا.

هيا. يلاّ، حبيبي!

هرولنا إلى قسم العناية المركزة.

دعوت الممرضين وطلبت منهم تغيير الأنبوب البلاستيكي على الفور.

في غرفة العناية الفائقة التي تعمل بشكل جيد، قمنا بالعمل في أقل من دقيقة. الآن نسيطر على وضعه الصحي. الأنبوب الذي استبدلناه كان مليئا بالدم المتخثر والمخاط. فقط فتحة صغيرة بسماكة عود الثقاب كانت مرئية ولم تكن كافية لمرور الهواء.

إنها المرة الأولى التي أغرق فيها في عرقي منذ جئنا إلى غزة. ارتكبت خطأ كاد أن يكلفنا حياة المريض. كان يجب عليّ أن أتخذ الحرص وأفحص، ثم أفحص مرة ثانية وأتأكّد من وجود كل القطع البديلة قبل أن نذهب. يمكنني أن أضع اللوم على حالة الحرب، اختلاف الثقافة، مشاكل اللغة، النقص في المعدات بسبب الحصار، على كلّ شيء. لكنني أنا المسؤول عن المريض، وأنا الذي لم يدقّق في خطة بديلة   خطة ب"

وأخيرا عندما غادرنا مستشفى الشفاء، كان موكب سيارات الإسعاف التي تحمل العلامات الفلسطينية، تنقل ستة عشر مصاباً بجروح خطيرة. حتى اللحظة الأخيرة لم نكن متأكدين من أن القافلة ستعبر الخطوط الإسرائيلية، وآلية التنسيق كانت صعبة ومعقّدة. السلطات الصحية الفلسطينية اتصلت

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

باللجنة الدولية للصليب الأحمر التي كانت على اتصال مع المنسق الخاص في الجيش الإسرائيلي، والذي هو بدوره "يوافق على العمليات الإنسانية في قطاع غزة.

عندما جاء الإشعار النهائي كان على المرضى أن ينقلوا من أسرّتهم مع جميع المعدات اللازمة لنقالات سيارات الإسعاف في أسرع وقت ممكن، ويجرون إلى سيارات الإسعاف التي بالانتظار ومن ثم يتم تركيب تلك المعدات. مقطورة كبيرة بيضاء للصليب الأحمر كانت في مقدمة القافلة. يليها سيارة الدفع الرباعي وكذلك تلك البيضاء مع علم كبير للصليب الأحمر. بعد تلك السيارتين الرائدتين في القافلة تأتي ست عشرة سيارة إسعاف مع وميض الضوء الأحمر الواضح. لا أحد يمكن أن يشك بأنها فعلا قافلة منسقة لإجلاء الجرحى جنوبا إلى مدينة رفح.

قال الدكتور معاوية حسنين قائد القافلة الذي يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق:

- لا تأخذ الصور، علينا أن نكون شديدي الحذر.

- حسنا جدا.

جلست عند رأس المريض وظهري باتجاه المقعدين الأماميين، وباستطاعتي أن أرى بوضوح، إلى الأمام والوراء، مناظر غزة الطبيعية المألوفة. كانت القافلة تسير بسرعة مع صفارات الإنذار. كان من المهم أن يواكبوا السيارتين الأماميتين البيضاوين. خرجنا بسرعة من مدينة غزة إلى الخط الساحلي. يرتدي البحر الأبيض المتوسط زرقة لا نهاية لها تحت أشعة الشمس. شعرنا بنسيم البحر من خلال النافذة المفتوحة. فكرت: كم سيكون الوضع رائعا هنا، كالجنة تقريبا، فقط لو كان عندهم سلام وحرّية. !

الآن سنغادر إلى الوطن. أنجزنا عملنا، وفريق جديد بانتظارنا على الحدود ليحلّ محلّنا. شعرت بمزيج من الراحة واليأس، عندما كنا في طريقنا خارجا. لكن الرحيل لم يكن بهذه السهولة. ناقشنا بانفعال مكثف في ذلك الصباح. قلت لإريك وداغفن: إنني لا أستطيع ترك مستشفى الشفاء. سوف أبقى هنا.

- سأظل إلى أن تنتهي الحرب، لا أستطيع أن أغادر الآن، فكرت في الأمر

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

طوال الليل. الشعور بالفشل وخيانة زملائنا والمرضى كان إحساسا لا يطاق. بكيت من اليأس.

يمكن أن يزداد الوضع سوءا، ما زال لدينا عمل هنا! كان إيريك يستمع إليّ بهدوء و تركني أنهي كلامي. نظر إليّ بجدّية وقال:

عملية الاجلاء من قسم العناية الفائقة الى مصر. كان الوقت ضيقاً جداً وعلينا تأمين المعدات والادوات الطبية اللازمة للمرضى-الجرحى الذين تحت التنفس الصناعي قبل نقلهم الى سيارات الاسعاف.

– نحن نعلم أن الأمور ستجري بهذا الشكل، مادس قرّر البقاء. – هكذا. تعلّقنا كثيرا بالفلسطينيين عبر ما عشناه معهم وخلال كل هذه الحرب. كنا جدّ متأثرين حتى نسينا الفرق بيننا وبينهم. لكن، هذه ليست معركتنا. هذه معركة الفلسطينيين. قمنا بما نستطيع فعله والاتفاقية كانت أننا سنبقى إلى أن يتم استبدالنا. والآن حان الوقت. كنا مع داغفين لأيام عدة، والآخرون ينتظروننا على الحدود. سوف نخرج من هنا اليوم معاً. لدينا مهام كثيرة في انتظارنا حين نخرج من هنا. وظيفة شهادتنا التي تراهن أنت شخصيا عليها، والعمل في وطننا النرويج، أهمّ من بقائنا هنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أجبت:
- أعلم أنّك محقّ.

حدث هذا في بيروت عام 1982. لم أرد أن أغادر من هناك أيضا، كانوا تقريبا سيخرجوننا مرغمين عندما انتهت الفترة المقررة للفرق الطبية. كنا جد مرتبطين بالقضية الفلسطينية، وأشعر بالشعور نفسه الآن. من المؤكد أننا سنرحل، ولكنني بحاجة للمساعدة كي أتخلّص من الشعور الرهيب بالخذلان، أن نكون عاجزين ونتركهم في الوقت الذي هم في أشدّ الحاجة إلينا.

قال داغفين: تأكد أننا سنقوم بالعمل هنا. ليست لديّ تجربة مع وسائل الاعلام مثلكما، وليس لدي التدريب نفسه الذي حصلتما عليه في الأيام العشرة الأولى.

- ولكن سأفعل ذلك بطريقتي.
- أنا متأكد بأنك ستقوم بذلك. لدي الثقة الكاملة بك وبالآخرين الذين ينتظرون في رفح. هذا إحساسي. إن الرحيل فقط مؤلم للغاية. اسمحوا لي أن أخرج ما في داخلي من بكاء.
- حسنا، يا شباب. لنذهب. أشكركم أنكم استمعتم لي. كنت في حاجة لإخراج هذا الكلام. إذا لنحزم أمتعتنا؟

ضحكنا ضحكة مكبوتة وتعانقنا بحرارة. عرفت كيف ربطت تجارب الحرب بيننا. كنا نعرف أن الأمر خطير. اخترنا بأنفسنا السفر إلى قطاع غزة. كنا نعلم أننا سنحمل معنا خبرات، وزمالة وصداقة طوال حياتنا بحلوها ومرّها. توقفت قافلة سيارة الإسعاف بالقرب من نتزاريم التي تبعد خمسة كيلومترات جنوبي مدينة غزة، حيث كانت القوات الإسرائيلية قد دقّت إسفينا من الحدود عبر مدينة غزة إلى البحر الأبيض المتوسط وجلسوا في حفر محصّنة، فيما بدا واضحا أكثر من مئتي دبابة ميركافا كبيرة. في الواقع كان قطاع غزة مقسوماً إلى قسمين. لغاية أغسطس 2005 كانت نتزاريم من أقوى المستوطنات الإسرائيلية تعصّبا في غزة، ويعتبرها الكثيرون أنها مركز الصهاينة المتدينين. مازلت أتذكر عندما كنّا نعبر تلك المستعمرة المدجّجة بالسلاح و"تقاطع نتزاريم حيث شهدت أعنف المعارك في الانتفاضة الثانية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

توقفت السيارتان البيضاوان.

من خلال نافذة السيارة الخلفية شاهدت خطاً طويلاً من وميض أضواء سيارات الإسعاف وتساءلت: في أي سيارة يتواجد إيريك. أستدرت وركزت نظري من خلال الزجاج الأمامي، لم يكن هناك وجود لأي بشر. على يميننا، مبنى يبدو كأنه مقهى أو فندق صغير، إلى يسارنا كان المشهد محجوباً من حاجز ترابي بإرتفاع حوالي أربعة أمتار. كان الصمت رهيباً، فقط كنا نسمع أصوات محرّكات السيارات. تحرّكت السيارة الكبيرة شيئاً ما إلى الأمام.

كسر الصمت صوت مدفعية الدبابات الإسرائيلية. لا يمكن أن تكون بعيدة عنّا، ربما على بعد أمتار فقط خلف الحاجز الرملي الذي على يسارنا. شاهدنا الطلقات وهي تنزل على الطريق الترابي أمام سيارة الإسعاف للصليب الأحمر. تطايرت الحجارة في كلّ الاتجاهات. وبعد ذلك أصبح الصمت يصم الأذان. سألت:

- هل أصيب أحد؟

لم يجبني الدكتور وليد. كانوا يتحدثون بصوت منخفض في المقاعد الأمامية. كان الجهاز اللاسلكي يصلصل بأصوات عالية. أجاب ببعض الصرخات الصاخبة. وقف سائقو السيارات في صمت الآن. بعد ثلاث إلى أربع دقائق تقدّمت السيارة التي في المقدمة بضعة أمتار. حبسنا أنفاسنا. الجواب من الإسرائيليين، لم يدعنا ننتظر طويلاً. رشقات من الرشاشات الثقيلة، من المؤكد أنها من دبابات الميركافا التي تقف خلف الساتر الرّملي. تناثرت الحجارة والتراب في كلّ الاتّجاهات، وأصابت السيارة التي في المقدّمة. انحنينا بشكل غريزي. ينتظرون أدنى حركة منا كي يطلقوا النار مباشرة على السيارات، هكذا اعتقدت. نداءات جديدة. أصوات عالية. صوت آمر، حادّ على الجهاز اللاسلكيّ، وحركة يد واضحة من خارج نافذة سيارة الإسعاف التي كنت فيها:

- لنستدر بسرعة! سوف نرجع إلى مستشفى الشفاء. لن يدعونا نعبر! لا يمكن أن تستدير ثمانية عشر سيارة في طريق ضيقة بثوان من دون منعطف أو منطقة بجوار الطريق المخصصة لوقوف الحافلات. كنّا تقريبا وكأننا وقعنا في فخّ.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تبادر إلى ذهني أنهم إذا أرادوا أن يطلقوا النار علينا الآن، يستطيعون أن يمزّقونا إربا إربا وأن يقضوا علينا جميعا. كلّ ما شهدناه حتّى الآن، لم يكن من المستحيل. لا توجد صحافة تغطي، ولا يوجد أحد ليحمي القافلة ولا يوجد أحد ليخبر العالم ما حدث.

كنت أقول في داخلي، إذا حدث ذلك، فإنه حدث. توقّف إطلاق الرصاص. وتمكنت القافلة من الاستدارة في فترة قصيرة مذهلة، وبصفارات الإنذار المدوّية اتجهنا مرة أخرى شمالاً إلى مستشفى الشفاء.

- خسرنا الآن ستة عشر سريراً كانت شاغرة في الشفاء، وربما سنفقد بعض المرضى الذين لم يتلقوا العلاج الضروري في الوقت المناسب، قلت ذلك على الهواء.

- ماذا سنفعل؟ أجاب الممرّض.

لديه بالطبع رأي. أنت لا تتجادل مع الدبابات الإسرائيلية التي تطلق النار على رأس القوافل الإنسانية المحمية دوليا والمليئة بالجرحى. بعد عشر دقائق كانت قافلات سيارات الإسعاف مرة أخرى أمام الباب الرئيسي ومركز استقبال الطوارئ في الشفاء. جررنا المرضى إلى فروعهم وأخبرناهم عن إطلاق النار الذي تعرّضنا إليه مرة بعد أخرى. كانت قصة اليوم.

قالوا:

- مرحبا بكم. علمنا بأنكم قادمون.

- كيف عرفتم ذلك؟

- لا نريدكم أن تذهبوا. وطلبنا ذلك من الله كثيرا. الله أكبر. وها أنتم رجعتم.

لم نعد نعرف غرفة نومنا. رتبها داغفين.

- حسنا! جيد جدا. أنظف من أي وقت مضى.

- نعم، "الأخ" داغفين مسح الغبار ورتب الغرفة، مرحبا بكم مرة أخرى. أستلقينا على الأسرّة المرتبة. كان جيداً أيضا أن نعود مرة أخرى.

قال إيريك من سريره بجوار النافذة:

- نخرج حوائجنا القليلة ونستعد للشروع بالعمل.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أعتقد أننا سنبقى فترة الآن. ربما لن يسمح الإسرائيليون لنا بالخروج مع كل القصص التي معنا. ربما كانوا فقط يريدون إخافتنا؟

قال داغفين بجفاء:

- أو ربما يستعدّون لشن هجمات جديدة ولا يريدون قافلة ضخمة من سيارات الإسعاف تغادر إلى الجنوب.

ربما عنده حق. بصرف النظر، إن كان ما يقول حقيقة، أن جنود الاحتلال الاسرائيليين من مواقعهم لم يسمحوا بعبور قافلة نسّق السماح لها بالعبور وتحمل علامات الصليب الأحمر الدولي وبداخلها جرحى مدنيون. إنهم لم يوقفوا فقط القافلة ولكن في الحقيقة أطلقوا عليها النار. إنه خرق صارخ لاتفاقية جنيف وحقوق الانسان. قلت في نفسي لو كان الفلسطينيون هم الذين فعلوا ذلك الشيء مع سيارات الإسعاف الإسرائيلية المحملة بالجرحى المدنيين، عندها كنت ستسمع الصراخ من روما.

كانت الساعة السادسة والربع، وكنت في غرفة العمليات مرة أخرى. نظرت من خلال النوافذ الصغيرة في الأبواب المتأرجحة لجناح غرف العمليات، في حين كنت أمشي مهرولا على طول الممر. كل غرف العمليات كانت مليئة، لكن فقط مريض في كل غرفة. كما يظهر كانت بداية هادئة في تلك الليلة. في نهاية الممر كان فريق يحاول إنهاء عملية لامرأة راشدة. كان الباب مفتوحا، ولوّحوا لي.

قال ياسر محمد، وهو مصور أشعة، شاب، يتواجد دائما في غرفة العمليات ويؤمن صور الأشعة السينية الضرورية التي يتم التقاطها أو إحضار الصور من قسم الأشعة للجراحين لتشخيص الصور حتى يقوموا بالعمليات.

- تعال دكتور مادس، يجب أن ترى هذا.

- أطلقوا عليها الرصاص من الخلف، كان سيتم إجلاؤها من منطقة خطيرة. كل شيء تمّ الاتفاق عليه مع القوات الإسرائيلية، وبالتنسيق مع الصليب الأحمر الدولي، ومع ذلك أطلقوا عليها النار. زانينارا أبو صافي، امرأة فلسطينية في الثالثة والخمسين من عمرها، متزوجة، وهي من مخيم اللاجئين في الجزء الشمالي من قطاع غزة. قبل ثلاثة أيام كان سيتم

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إجلاؤها من منزلها إلى مكان آمن. كان هناك العديد من الوحدات البرية الإسرائيلية في المنطقة حيث تسكن وبدأت المعارك.

كان الاتفاق مع القوات الإسرائيلية على أن يتمّ إجلاؤها إلى مكان آمن بالتعاون مع لجنة الصليب الأحمر الدولي. كانت الأمم المتحدة قد فتحت سبعاً وعشرين مدرسة من مدارس الأنوروا لتقديم مكان آمن نوعا ما للسكان المدنيين في المناطق الساخنة. 21000 فلسطيني سبق وأن لجؤوا إلى حماية الأمم المتحدة هروبا من القنابل والصواريخ الاسرائيلية.

لقد نسقنا مع الاسرائيليين"، It is coordinated

هذه كانت الجملة الموجزة التي تصف الإجراءات المنسقة التي من شأنها ضمان سلامة وحرية الممرّ الآمن للمدنيين الذين يقعون تحت خط النار، وسيارات الإسعاف التي تضطر لإجلاء الجرحى أو لقوافل الأمم المتحدة التي تجلب الطعام والأدوية للسكان المدنيين. في مثل هذه الظروف، الصليب الأحمر والأمم المتحدة، يلعبون دور المفاوض. لقد عشت بعض هذه المهمات "المنسقة" عن كثب، وشاهدت كيف يحترم الجنود الإسرائيليون الاتفاقات المبرمة!!

في الثامن من يناير/ كانون الثاني، توقفت كل تحركات الأمم المتحدة في كل قطاع غزة. لم تنفّذ أي عملية مساعدة، ولم تأت أية قافلة بسبب الهجوم الإسرائيلي الشامل على القوافل والمخازن والمدارس وعلى العاملين مع الأمم المتحدة. النقطة التي جعلت الكأس يطفح بالنسبة لقيادة الأمم المتحدة، كان الهجوم على قافلة الأمم المتحدة التي تحمل مواد تموينية للمدنيين الجياع، وقتلت سائقا من سائقيها وجرحت آخر. حدث هذا على الرغم من التنسيق مع قيادة الجيش الإسرائيلي. حدّد طريق القافلة واتفق على كلّ الأماكن التي ستمر بها. كلّ من مدير الأنوروا جون غينغ ونائب الأمين العام للأمم المتحدة بالشؤون الإنسانية جون هولمز، عبّروا بشكل غير طبيعي وبكلمات قاسية عن القوات العسكرية الإسرائيلية وهجومها المتواصل على مدارس الأمم المتحدة ورجال الإنقاذ. تملك الأونوروا عشرة آلاف موظف في مئتين وعشر مواقع مختلفة في غزة. ويتحمّلون مسؤولية أكثر من مليون لاجئ فلسطيني يسكنون في قطاع غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

"نحن بحاجة للحصول على وقف كاف لإطلاق النار. لا يوجد مكان واحد آمن للسكان المدنيين في غزة. هذا ما قاله هولمز في مؤتمر صحفي في مقر الأمم المتحدة في نيويورك بعد قرار مجلس الأمن 7 يناير كانون الثاني. وانعدام الأمان هو الذي جعل المرأة الفلسطينية، التي تبلغ 53 سنة من العمر، على طاولة غرفة العمليات تعاني من آلام شديدة في جسمها. حدث ذلك بينما قيدت من منزلها بالقرب من دوّار ساحة أعور في جباليا في الطريق إلى سيارة الإسعاف التي كانت تنتظر لإجلائها إلى مكان آمن. أطلق جندي إسرائيلي من الدبابة الإسرائيلية التي كانت بالجوار عليها النار من الخلف. أصابتها الرصاصة في الأمعاء الغليظة ووصلت إلى الحوض واستقرّت في الجزء العلوي من فخدها الأيمن فسحقته. ما تزال الرصاصة داخل فخدها منذ وصلت المستشفى قبل ثلاثة أيام.

قال الجراح:

- كان وضعها مستقرا عندما وصلت، ولم تكن لدينا القدرة لإجراء العملية لها قبل اليوم.

سألته:

- هل نجحت العملية؟

- مرت كما خطط لها. أعدنا بناء الأضرار في الأمعاء وأزلنا الرصاصة. ياسر يمكنه أن يطلعك عليها.

أعطاني ياسر الرصاصة المشوهة.

قلت:

- تبدو لي كأنها رصاصة إم 16.

- نعم أعتقد ذلك أيضا. على أي حال كان السلاح الذي أطلق النار سلاحاً فردياً، سدّد وأصاب حيث أراد.. لا يمكن لجندي أن يتصرف أجبن من هذا التصرف. إطلاق النار على امرأة مدنية من الخلف، في حين كانت تغادر منزلها. هؤلاء الجنود الإسرائيليون ليست لديهم أخلاق على الإطلاق.

ابتسم باكتئاب وقال:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

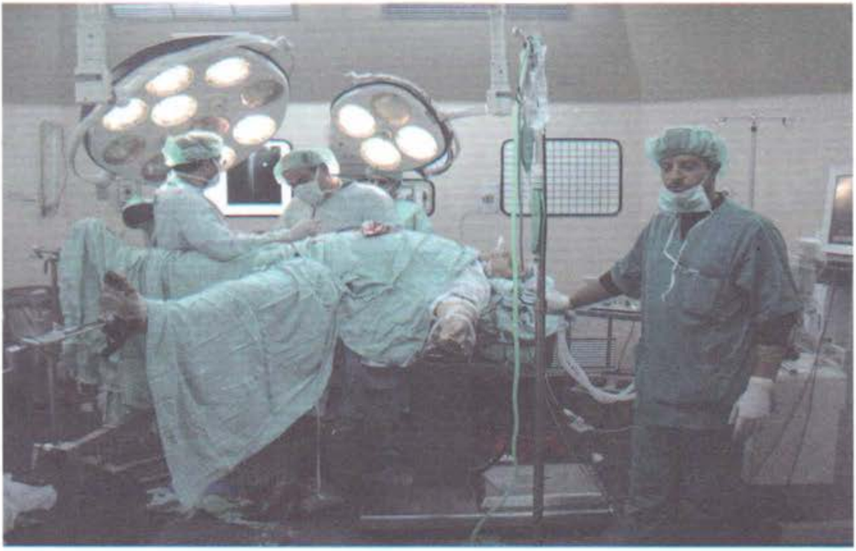

فوق: امراة في 53 من عمرها اصيبت من الخلف في عملية اجلاء كانت منسقة ومتفق عليها. كان من الضروري اخراج الرصاصة بعملية جراحية.

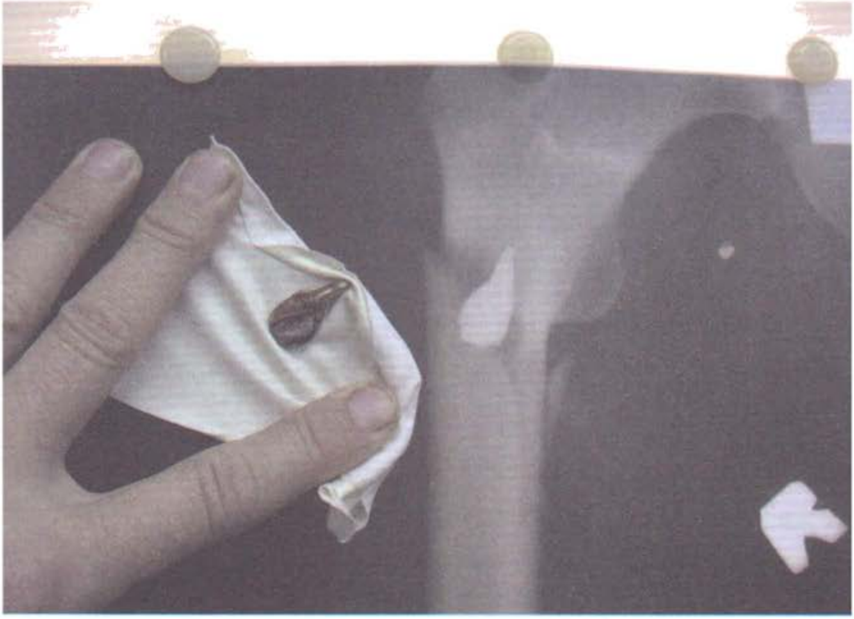

الرصاصة التي استقرت في فخد المراة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- أصبحنا معتادين على مثل هذه التصرفات. لا يوجد احترام لحياة الإنسان عند الجنود والضباط الإسرائيليين. نحن الفلسطينيون لا حقوق لنا. هذه المرأة متزوجة ولديها عدد من الأطفال. في شباط / فبراير 2006 قتلت القوات الإسرائيلية أحد أطفالها. الآن أصبحت هي الضحية.

- الرصاصة كانت ثقيلة في يدي.

ذهبت إلى حيث صور الأشعة السينية لذلك الفخذ المصاب المعلّق، أمسكت بالرصاصة في اتجاه الصورة، والتقطت صورة جديدة للرصاصة إلى جانب صورة الأشعة السينية بآلة تصويري الخاصة. شرحت أن هذه القصص شديدة البشاعة والغرابة إلى حدّ لا يمكن لأحد أن يصدقنا إن لم نكن نملك الأدلة.

- خذ ما استطعت من الصور، دكتور مادس، وأطلع العالم على ما يجري.

- لا أحد من الغرب هنا إلا أنتم. عليكم أن تخبروا بما يجري. لا أحد يستمع إلينا. نظر الجرّاح إليّ وهزّ برأسه. أربعة من أصل عشرة من المصابيح الصغيرة في ذلك المصباح الكبير للعمليات لا تضيء. اللمبات الاحتياطية لا توجد بسبب الحصار.

لم يوفروا شيئاً. القوات الاسرائيلية قصفت كل شيء سيارات اسعاف، مساجد، مستشفيات والمنازل السكنية. الدكتور يوهانس برتابي امام حطام مستشفى القدس.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

هذا ليس عملنا. نحن جئنا لنعالج ونجري العمليات الجراحية للمرضى في غزة. نقوم بالعمليات الجراحية. نظرت إلى الرصاصة. كانت شبه كاملة، مأكول طرف صغير منها، على ما أعتقد أنها أطلقت من الرشاش الحربي عيار 65،5. الذخيرة المستعملة من الجنود في الحلف الأطلسي أو من رشّاش M4A1.

من المؤكد أن الأمر كان مؤلما للغاية بالنسبة لهذه المرأة. والصدمة بأنها أصيبت من الخلف. سرعان ما غطّى عليها صدمة الآلام الفظيعة في بطنها وفي عظم فخدها. ربما أغمي عليها من شدة الألم. لم تكن تستطيع أن تواصل المشي. لم تكن الرجل اليمنى لتحملها. رجال الإسعاف الذين أتوا لإجلائها تصرّفوا بطريقة تلقائية، فسحبوها بأسرع ما يمكن إلى سيارة الإسعاف، ليتجنّبوا الرصاصات الإسرائيلية عندما كانوا يناجون بعضهم البعض.

على الأرجح أن الجندي الذي أطلق النار على المرأة، لم يحصل على أمر بالتسديد وإطلاق النار عليها من الخلف؟ ربما اتبع فقط التوجيهات العامّة من رؤسائه: إنه ينظر إلى كلّ الفلسطينيين على أنهم من المحتمل أن يكونوا مهاجمين أو إرهابيين. كانت طلقته صدى للإدعاءات المتكرّرة من القيادة العسكرية الإسرائيلية العليا. جعلت حماس من كلّ الأماكن المدنية مخبئا لعملياتهما!

بالنسبة لتلك المرأة الفلسطينية البالغة من العمر ثلاثاً وخمسين سنة، لم يكن يعني لها شيئاً ما يفكّر به ذلك الجندي. كل ما كان يعني لها ولعائلتها ليس النقاهة ذات الأمد الطويل، ولا نوعية الجراحة وبرنامج النقاهة المتوفر في غزة. الأكثر أهمية بالنسبة لها هي العدالة. ومحاكمة دولية واضحة للقادة السياسيين الإسرائيليين وتحميلهم مسؤولية جرائم الحرب في غزة.

عندها فقط تشفى الجراح.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أحلام في غزة

إيريك فوسا

- صباح الخير!

أيقظني أحد الأطباء الذين كنا نسكن معهم، كان يقف عند باب غرفة نومنا وهمس قائلا:

- هل سمعتم أن مجلس الأمن أصدر قرارا بوقف إطلاق النار وبانسحاب القوات الإسرائيلية. الأطباء الآخرون في المستشفى استيقظوا الساعة الخامسة للصلاة. تذكرت أنني سمعت أغنية خلال الليل. أحدهم كان له صوت جميل، وكان سماعه رائعا عندما يؤم الصلاة.

عادة كانوا يصلون بصمت. بعد الصلاة تفقدوا الأخبار على الانترنت فوجدوا أعينهم تقع على القرار في مجلس الأمن. كما جرت العادة، ذهبوا للنوم مرة أخرى بعد الصلاة. الشيء نفسه بالنسبة لي ومادس حاولنا جميعا أن ننام عندما يتسنى لنا الأمر. ألقيت على نفسي بطانية وذهبت إلى غرفة الحراسة الليلية حيث هناك جهاز الكمبيوتر المحمول. ذهبت إلى صفحات الأمم المتحدة على شبكة الإنترنت "8 يناير 2009 - أصدر مجلس الأمن الدولي الليلة قرارا بأغلبية ساحقة لوقف فوري لإطلاق النار وانسحاب كامل للقوات الإسرائيلية من قطاع غزة، والسماح بإدخال الطعام والوقود والأدوات الطبية في جميع أنحاء قطاع غزة، وتصعيد الجهود الدولية لمنع تهريب الأسلحة والذخائر. 14 عضواً -من أصل 15 عضواً - وافقوا على هذا القرار باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية التي امتنعت عن التصويت.

كان القرار المقترح حلا وسطا طرحته بريطانيا، كما أنه يتضمن دعوة لمواصلة المفاوضات للوصول إلى حل للدولتين. أخذ الاقتراح بعين الاعتبار الأرقام العالية للقتلى والجرحى من النساء والأطفال.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في وقت لاحق، بعدما عدت أنا ومادس إلى النرويج، وتحدثنا مع وزير الخارجية يوناس غاهر ستوري، عرفنا أن التقارير الواردة من "الطبيبين النرويجيين في غزة" قد ذكرت في المناقشات، وكانت جزءا أساسيا أدى إلى إصدار القرار. مطلب لوضع حد فوري للهجوم وفتح الحدود الذي حاولنا أن ننقله في جميع المقابلات التي أجريناها منذ وصلنا إلى قطاع غزة. أدركت أننا قد ساعد نا في التأثير وإحداث التغيير.

أول رد فعل لي، هو فرحي لأن الأمم المتحدة استجابت أخيرا. ولكن الأوان كان قد فات، كما أن تأثير القرار غير مضمون. تعرّض الناس في غزة للإذلال لمدة ثلاث سنوات، كما تعرضوا لعقاب جماعي من جانب المجتمع الدولي وإسرائيل. قتل تقريبا ألف فلسطيني في الحرب في الأسبوعين الأولين. إنه من غير المرجح أن إسرائيل سوف تنظر في هذا القرار، خاصة وأن الولايات المتحدة كانت قد امتنعت عن التصويت. وزيرة الخارجية الأمريكية، كوندوليزا رايس، تريد أولا انتظار إجراء محادثات في مصر. يمكن أن تشير إلى أن الولايات المتحدة مستعدة لإعطاء إسرائيل المزيد من الوقت لتدمير إرادة المقاومة الفلسطينية.

أضيف القرار إلى عدد كبير من القرارات بشأن قضية فلسطين، حيث منعت الولايات المتحدة الأمريكية أي قرار باستخدام حق الفيتو أو امتنعت عن التصويت، وذلك أضعف من تأثير القرار. رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة، ذلك السياسي من نيكاراغوا والكاهن الكاثوليكي، ميغيل ديسكوتو بروكمان، سخر من مجلس الأمن الدولي وعدم قدرته على التحرك لوقف العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة "لا أستطيع أن أتحمل رائحة الفورمالين. صرامة الموت قد حدثت بالفعل، وخذلنا العالم، فشلنا في قضية السلام.

كم أذهلتني خطورة المسافة، وكيف أنه من السهل أن ينأوا بأنفسهم عندما يكون الضحايا من دين أو عرق غريب، الانطباع عن سكان غزة كمتعصبين دينيين وإرهابيين جعل الغرب لا يتعاطف معهم ولا مع معاناتهم. ختمُ الإرهاب خلق مسافة بينهم وبيننا. في كل يوم من أيام الحرب، كانت تدمر حياة العديد من الأطفال. إما يفقدون حياتهم، أو أذرعهم أو أرجلهم، أو أهاليهم. .جميعهم تضرروا نفسيا من جراء المعركة المدمرة الكارثية التي يعيشون فيها. كل يوم من الحرب جعل الأضرار في غزة متعذرة الإصلاح.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بينما يموت الأطفال ويشوهون، الولايات المتحدة والسياسيون الأوروبيون يناقشون التفاصيل في صياغة القرار. شعرت بالغثيان. بعد توقف الدعم وبعد الحصار الإسرائيلي أصبحت غزة معزولة تماما. مسؤولية الأمم المتحدة في إدارة المدارس والعيادات والإمدادات الغذائية أصبحت أكثر أهمية من أي وقت مضى. كثير من البلدان المانحة زادت من التبرعات للأمم المتحدة للتعويض عن التوقف في تقديم الدعم المباشر.

زيادة أهمية الأمم المتحدة لحالة الإمدادات في غزة، أصبحت مصدرا للصراع بين حماس والأمم المتحدة. بما أن الأمم المتحدة تملك المواد الغذائية وتعطيها فقط للعائلات المسجلة كلاجئين، ولكن ليس لعائلات غزة الأصليين، أصبحت عائلات غزة تعاني أكثر بسبب المقاطعة من معاناة عائلات اللاجئين. واعتبر هذا مسألة في غاية التمييز.

الخامس من فبراير2009، صادرت حماس بعض المعونات للأمم المتحدة ووزعتها على فقراء العائلات الغزاوية. وأدى هذا إلى زيادة الانتقادات الدولية لحركة حماس. المواجهات بين حماس والأمم المتحدة استخدمت كأدلة على طابع حماس الإجرامي، لكن بالنسبة للعديد من الفلسطينيين أظهر هذا بأن حماس تتحمّل مسؤولية المواطنين. وادعى آخرون من الفلسطينيين أن توزيع حماس للمواد الغذائية ما هي إلا لتقوية نفسها وسمعتها.

مساعدات الأونروا أدت إلى إضعاف تأثير الحصار والعقاب الجماعي للفلسطينيين. ربما كان ذلك السبب الذي جعل إسرائيل تنتهز فرصة الهجوم على سيارات الأمم المتحدة وبعد ذلك على المستودع الرئيسي للأمم المتحدة للمواد الغذائية وقطع المعدات. الجمعة 9 كانون الثاني / يناير تبين الوضع المتوتر بين إسرائيل والأمم المتحدة. في اليوم السابق، فتح الجنود الإسرائيليون النار على شاحنة في شمال قطاع غزة. كانت السيارة تحمل علامة الأمم المتحدة بشكل واضح، وكانت تسير في قافلة أخذت ضمانات على سلامتها من السلطات الإسرائيلية.

أطلق الجنود الإسرائيليون النار على السائق أولا. وعندما حاول المساعد في السيارة سحب السائق أطلقوا النار عليه أيضا. جاء الرجل إلى مستشفى الشفاء

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

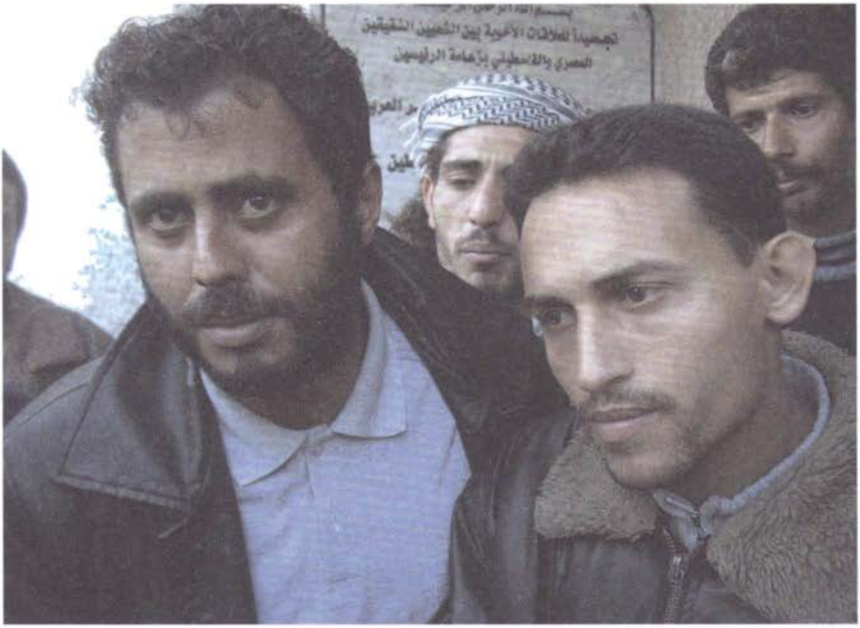

افراد عائلات المصابين ينتظرون قلقين خارج مستشفى الشفاء. عائلة السموني فقدت الكثير من افراد العائلة.

بإصابات كبيرة في اليوم نفسه. لقي السائق مصرعه على الفور، ومازال المساعد على قيد الحياة. كان ردّ فعل مكتب الأمم المتحدة في غزة وقف كل عمليات النقل في القطاع، في الوقت نفسه طلبت من الإسرائيليين أن تضمن سلامة جميع موظفي الأمم المتحدة.

ضمّت اللجنة الدولية للصليب الأحمر احتجاجاتها بعد ما توقفت القافلة التي كنت فيها أنا ومادس اليوم السابق، وأطلق الإسرائيليون النار علينا لتخويفنا. قبل ذلك كان الإسرائيليون قد قصفوا الكثير من سيارات إسعاف الهلال الأحمر الفلسطيني. أكد الصليب الأحمر أن الإسرائيليين تسببّوا في تأخير لا داع له لعمال الإغاثة. ذلك كان احتجاجاً حذراً لأن بعض المرضى الذين أصيبوا بجروحٍ، ظلوا تحت الردم لأكثر من ثلاثة أيام قبل أن تأتيهم سيارات الإسعاف لإنقاذهم؛ فقد منع الجنود الإسرائيليون سيارات الإسعاف من الوصول بإطلاق النار عليها.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وبالتالي لا يتوقع أحد أنه سيكون هناك محاولة إجلاء للمرضى من قطاع غزة تلك الجمعة. واصلت القراءة على شبكة الإنترنت. رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت قال على الفور بعد اعتماد القرار: إن إسرائيل لا تشعر أنها ملزمة بالقرار، وأنها ستواصل الهجوم حتى "تتم المهمة"

تباهى أولمرت بأنه اقنع الولايات المتحدة بعدم التصويت لصالح القرار. في مستشفى الشفاء كنا مقتنعين أن لاشيء سيوقف إسرائيل ولا حتى قرارات الأمم المتحدة، بل على العكس تماما. بينما كنت أجلس أمام جهاز الكمبيوتر، سمعت دوي انفجار رهيب على مقربة من المستشفى. في وقت لاحق أدركت أن إسرائيل هاجمت مخيم اللاجئين/ مخيم الشاطئ، الذي يقع في شمال مدينة غزة وليس بعيدا من مستشفى الشفاء. يقع المخيم على شاطئ البحر، وبالتالي فإنه عرضة للهجوم من الزوارق الحربية. قالت حماس أيضا أنها لا تعتبر قرار الأمم المتحدة ملزما. وفقا لقناة الجزيرة أرسلت حماس ستين صاروخا من غزة على إسرائيل في يوم الجمعة ذاك.

كان أحد الأطباء ممن معهم، يقف عند مدخل الباب لكي يتحدث إلينا.

سألت:

- في رأيك ماذا سيحدث بعد صدور قرار من مجلس الأمن؟

أجاب باستهجان:

- ستصعّد إسرائيل الحرب وتستمر لمدة ثلاثة إلى أربعة أيام. رفع كتفيه مستغربا، وأضاف قائلا:

- إسرائيل لا تأبه للأمم المتحدة، وقد حصلت على الضوء الأخضر من الحكومة الحالية للولايات المتحدة الأمريكية.

ذهبت أنا وداغفين إلى المستشفى. استقبل مركز الطوارئ عشرة من المرضى من مخيم الشاطئ، كلهم أخذوا الرعاية الكاملة.

ذهبنا إلى الطابق الثالث. كانت الساعة الثامنة والنصف، والدكتور صبحي لم يأت بعد. هنا التقينا الدكتور عصام. كان يعمل طوال الليل. عصام، الذي كان دائما بشوشا وله تعليقات مضحكة، كان صامتا وغير حليق الذقن. من الواضح

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أن الحرب بدأت في التأثير عليه. لقد مضى أسبوع على محاولة إنقاذ ابن أخيه، الذي قتل بقنبلة من طائرة بدون طيار.

بدأت الحـرب في الانقضـاض على الجـميع، بمن فيـهم عصـام. الآن يريد سيجارة بينما كنا في انتظار الدكتور صبحي.

ذهبنا إلى المدخل الذي يطل على بوابة المستشفى، وإذ بالمستشفى يرتج إثر انفجار، والدخان يتصاعد من منزل في الجهة المقابلة للمدخل الرئيسي للمستشفى. اتضح لي أنني في الواقع كنت أشاهد منزلا يقصف ويدمر. لكن في الواقع لم نر شيئا. كل شيء حدث بسرعة. لم يدمر المبنى، ما زال واقفا، لكن من الأرجح أنه أصيب بقنبلة ضد الأفراد التي لا تشكل ضررا كبيرا على المبنى.

أقترب أفراد الإسعاف بحذر إلى المبنى. سمعنا هدير الطائرة من غير طيار التي أطلقت القنبلة. يعرف الجميع أنها تدور حول الهدف وتصور. من ذلك المدخل الذي كنا نقف فيه، كان على شكل الأوركسترا حيث كنا نرى كل ما حدث. كنت أتوقع أنه في أي لحظة ستفجر قنبلة جديدة وكنت أفكر في طاقم الإسعاف الذين ذهبوا إلى المبنى في حين الطيارة بدون الطيار كانت تحوم من فوقهم. لحسن الحظ لم يحدث الذي كنت أخشاه، ولم يصب أحد بأذى من ذلك الهجوم.

قدم الدكتور صبحي، وبدأنا جولتنا الطبية اليومية. لزيارتنا هدفان: التأكد من أن المرضى يتلقون العلاج الأفضل، وأهمية استخدام الموارد في المستشفى. لم تكن هناك بيانات رقمية للمرضى في الشفاء. كانت السجلات مكتوبة بخط اليد وتحتوي على نص قليل، لكن من سلة الأرشيف يمكننا أن نتابع تطور درجة الحرارة وضغط الدم ونرى أي دواء أعطي للمريض.

أغلب الأطباء المديرين مشغولون للغاية بالمشاركة في الجولات الطبية. في حين كنا نتلقى أكثر من مئة مريض يوميا ونقوم بعمليات جراحية لعشرين إلى ثلاثين منهم كل يوم، من المهم أيضا اتخاذ قرار بشأن الإجلاء وتحديد العلاج. أغلب غرف المرضى كانت تفتقر إلى الزجاج بعد الانفجارات.

أغلب الأطباء يرتدون معاطفَ شتويةً سميكة. كان الدكتور صبحي دائما يرتدي معطفا أبيض، وأنا أيضا، إلا أنني كنت أشعر بالبرد طوال الوقت. هناك

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

العديد من ذوي المرضى في المستشفى. كنا نعرف أن العائلات جزء من برنامج العلاج. مادام هناك نقص في الموظفين، كان على العائلات أن تشارك في العناية وجلب الطعام لمرضاهم.

دخلنا إلى غرفة مليئة بالأطفال. في سرير يستلقي طفل في الثانية عشرة من عمره مغطى بالعديد من البطانيات و يبدو عليه النعاس. في السرير المجاور تستلقي فتاتان على شكل "كعب وراس . شرح الدكتور صبحي أن هؤلاء الأطفال الثلاثة من عائلة واحدة. الطفل هشام اثنتا عشرة سنة، الطفلتان اللتان في السرير، زينة تسع سنوات و نور ثلاثة عشر شهراً . منزلهم في مخيم جباليا قصف يوم الثلاثاء. جاؤوا جميعهم مع الأب الذي أصيب هو أيضا في البيت. شقيقان آخران أصيبا بجروح طفيفة، وطفل لاقى مصرعه. انحنى الدكتور سبيرو فوق هشام وأزال الأضمدة.

قال:

- أصيب هشام بشظية في معدته. أجرينا له عملية جراحية في اليوم نفسه وخيطنا مرة أخرى اصابات عدة في الأمعاء. يظهر أن الجرح قد تحسّن.

نظر إليّ الدكتور صبحي بقلق وقال:

- لدينا مشكلة خاصة مع هشام. إنه يعاني من الصرع، ويعتمد على الدواء يوميا لمنع النوبات. والآن من الصعب الحصول على العقاقير التي يحتاجها، والأسرة تشعر بالقلق عليه.

والدة هشام ساعدته في ارتداء ملابسه ولفته بالعديد من البطانيات الصوفية . كانت الغرفة باردة جدا، لم يكن هناك زجاج في تلك النوافذ، كما أن الحرارة لا تزيد على عشر درجات. ذهبنا إلى السرير المجاور حيث زينة بنت التسع سنوات تستلقي على نهاية السرير. لديها جرح عميق في جبهتها، الجرح لم يخيّط،، لكنه بدأ في الالتئام. كانت تستلقي في هدوء، واستجابت حين تحدثنا إليها.

في الطرف الآخر من السرير الأخت الأصغر نور، التي كانت مصابة في كل من الرأس والوجه. البيجاما البيضاء الصفراء اللون كانت كبيرة جدا عليها. رأسها ملفوف بضماد كبير ومربوط بلصاق بني بلاستيكي. الضماد ملتصق على رأسها، ويبدو تقريبا كتاج. جلست نور في السرير وبدأت تصرخ.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نور تصرخ في سريرها، لا تدري ماذا حدث لها.

كانت المرضات في المستشفى دائما في الخدمة على طوال النهار والليل.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مازالت خائفة رغم مرور ثلاثة أيام على القصف. حاولت والدتها تهدئتها. الأطباء الفلسطينيون كانوا طيبي القلب في تعاملهم مع المرضى، ولبقين جدا، يشرحون لهم ما يجب فعله قبل أن يبدأوا بتغيير الضمادات أو تغيير الأغطية. لهم علاقة جيدة مع المرضى، لكن لم يكن من السهل تهدئة نور الصغيرة. كانت ترتعد من البرد، خائفة وجريحة. خارج النافذة المفتوحة، كانت مروحيات الأباتشي تدوي وطائرات بدون طيار تحلق. المباني تهتز من انفجار القنابل في مخيم الشاطئ.

كيف يمكن لطفل في السنة الأولى من عمره تحمل شيء كهذا؟ أينما ذهبنا نجد قصصا مماثلة. في السرير المجاور كان هنالك طفل من أطفال عائلة السموني. هذا الطفل أصيب في ذراعه اليمنى ويعاني من كسور أخرى. مفصل الكوع كان مهشّما. وهو الآن يرقد بإطار من مسامير معدنية مشدودة إلى العظم لتثبت تلك الكسور.

في كل مكان كنا نجد أطفالا مصابين بأسلحة متطورة: أطفالاً مبتوري الأرجل، أطفالاً لا يفهمون ما يجري. لم أشاهد قط في حياتي شيئاً كهذا. لا أحد من هؤلاء الأطفال، الذين يبلغ عددهم 750000 طفل، يجد مكاناً يهرب إليه. لا يوجد مكان آمن. كثير من الأهالي الذين لهم أطفال صغار ويسكنون في مناطق يعتقدون أنها عرضة للقصف، كانوا ينتقلون إلى أفراد أسرهم الذين يسكنون في مناطق يعتقدون أنها أكثر أمانا. مثل تلك المناطق التي بها أفضل العائلات الفلسطينية وفيها دعم قليل لحماس بالمقارنة مع الضواحي الفقيرة ومخيمات اللاجئين.

لكن اتضح لاحقا أنه لا يوجد مكان آمن تماما. في بعض المناسبات كان يأتينا أطفال قتلوا أو جرحوا بينما كانوا يلعبون في هذه المناطق "الآمنة". الأطفال دائما مهمون بالنسبة للزعيم الفلسطيني ياسر عرفات الذي كان يحث الأسر على إنجاب الكثير من الأطفال. تم تشريد العديد من الفلسطينيين عند قيام دولة إسرائيل عام 1948، ولكن العديد منهم أيضا بقوا

أصبح هؤلاء الفلسطينين مواطنين إسرائيليين ولهم حق الاقتراع في الكنيست. وبسبب قواعد جد خاصة ليس لديهم الحقوق نفسها التي يحصل

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عليـهـا المواطن اليـهـودي فـي إسـرائيل. ومـع ذلك فـان الفـلسطينيين يمثلون قـوة سيـاسيـة، ويملكون حق التـصـويت والترشـيح في الانتـخـابات النيـابيـة. في حين معظم المهاجرين اليهود عندهم طبيعة الولادة الأوروبية نفسها في الستينيات والسبعينيات، بينما كانت المرأة الفلسطينية تنجب الكثير من الأطفال. في عام 2009، أصبح الفلسطينيون يشكلون 20 في المئة من السكان في إسرائيل.

معدل الولادة للمرأة الإسرائيلية هي 2.75، بينما في الضفة الغربية، 3.22. أما في قطاع غزة فهو 5.03. في حين أن معدل نمو السكان في إسرائيل هو 1.67 بالمئة، ومعدل النمو الفلسطيني في الضفة الغربية 2.18 وفي قطاع غزة 3.35 بالمائة، وهو خامس أعلى نسبة في العالم.

نزار ريان، أحد قادة حركة حماس الذي قتل بقصف منزله في 1 كانون الثاني 2009، شجع ابنه الذي يبلغ 15 عاما أن يصبح انتحاريا. قُتل ابنه في هجوم انتحاري ضد مستعمرة إسرائيلية في أكتوبر 2001. قال الريان في مقابلة مع مجلة الأتلنتيك انه سيشجع أيضا الابن الآخر ليصبح انتحاريا.

بالنسبة للريان، هذا العمل ذو مغزى لأن "فلسطين هي وطننا، وهي أكثر حبا عليّ من أولادي ليس أنا فقط من يجد صعوبة في فهم أب يمكن أن يكون على استعداد بالتضحية بواحد من أبنائه في هجوم ما. ولكن بعد ذلك كنت أعيش في واقع مختلف تماما، مما يجعل من الصعب أن يضع المرء نفسه في وضع الفلسطينيين اليائسين.

إنهم يضايقون يوميا. تُضم الأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية تدريجيا إلى إسرائيل، وهم يحاولون ببطء إخراجم من القدس الشرقية. في غزة هم محرومون من الكرامة الإنسانية بسبب الحصار الكلي والنقص في كل شيء.

لقد واجهت هذه الحقيقة في الماضي. في ربيع عام 2002 كنت في غزة مع مادس والممرضات آنا وفينكي أرتون. كان الوضع حرجا. هاجمت إسرائيل أماكن عدة في الضفة الغربية، بما في ذلك مخيم اللاجئين في جنين. كان هناك عدد كبير من هجمات طائرات الهيليكوبتر على غزة وكان الشعب الفلسطيني يخشى اجتياحا. بعد ظهر أحد الأيام، كنا في جولة في المدينة. كان بعض الصبية الصغار يركضون ويصرخون، يلعبون لعبة ما. أحد الأطفال يركض اتجاهنا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اصابة صعبة، لكن عولجت بشكل جيد في مستشفى الشفاء. احد افراد عائلة السموني اجريت له عملية تثبيت خارجي لكسور صعبة في ذراعه.

ويصرخ: بووووم وبدأ يضحك. صاح مادس: مرحبا! أي لعبة تلعبون؟ كان عمر الطفل حوالي عشر سنوات ويتكلم القليل من الإنجليزية. قال لي، عندي حزام ناسف في جسمي. قالها بحماسة وابتسامة.

سوف أركض صوب شارون وأفجر نفسي، وهو سيذهب إلى الجحيم وأنا سأذهب إلى الجنة. ضحك ثم ضحك الأطفال الذين كانوا في الحشد. فجأة انقلبوا وولوا هاربين. كانوا يلعبون لعبة "الانتحاريين". أي نوع من الاطفال هؤلاء الذين يلعبون لعبة انتحاريين. أي نوع من الحياة عند هؤلاء الأطفال الذين يحلمون بقتل أنفسهم؟ ألا يوجد عندهم أحلام أخرى؟ الأطفال في غزة بدون حقوق، بدون فرص، وبدون مستقبل. الآباء يذلون وغير قادرين على إعالة أسرهم بطريقة سليمة. الآباء في الكثير من الأحيان عاطلون عن العمل، والأمهات لهن مسؤولية عن سرب من الأطفال. ليست لدى الأسر وثائق سفر، والأطفال محكومون بالعيش في الفقر بقية حياتهم بقدر أحلامهم هذه التي تقودهم إلى أن يصبحوا منفذي العمليات الانتحارية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لكن ليس كلّ أطفال غزة كالأطفال الذين كانوا يلعبون لعبة الانتحاريين. في سبتمبر 2008 زرت غزة بصحبة إدارة نورواك. كان شهر رمضان. شهر رمضان وعيد الفطر بالنسبة للمسلمين مثل موسم عيد الميلاد للمسيحيين. دُعينا لحضور الإفطار في منزل صديقنا وليد شقورة. وجبة الإفطار أول وجبة عند المسلمين بعد غروب الشمس، عندما يكونون صائمين طوال النهار، وهي في الحقيقة كوجبة فطور، حتى ولو كانوا يأكلونها في المساء.

من المعتاد أن يدعى أفراد العائلة والأصدقاء للإفطار. طوال شهر رمضان تزور العائلات بعضها ويأكلون معاً في المساء. وجدنا بيت وليد في مدينة غزة، وكنا هناك الساعة الخامسة والنصف لننتظر نصف ساعة أخرى لساعة الغروب. لا يمكنك أن تأتي متأخرا للإفطار، كل من في المنزل جياع، ولكن احتراما للضيف يجب عليهم الانتظار.

عند الباب استقبلنا وليد وابنه محمد الذي يبلغ من العمر اثنتا عشرة سنة وليد كان عمره ثمان وأربعون سنة، متوسط القامة، وبدأ شعر رأسه يخف.

قال وليد:

السلام عليكم، تفضلوا بالدخول.

تعرفنا على وليد من خلال وظيفته، أمينا عاماً لوزارة الصحة.

الآن هو مضرب. إضراب له ارتباط بالصراع بين حماس وفتح. كانت لدى حماس السيطرة الكاملة على جميع الوزارات في غزة. لكن حكومة فتح في رام الله بالضفة الغربية لديها المال لأن كل المساعدات التي تأتي من الغرب تصل إلى هناك.

أواخر صيف عام 2008، نفذت السلطة الفلسطينية في رام الله إضرابا غير عادي لكسر سيطرة حماس على الرعاية الصحية. أخذوا جميع موظفي القطاع العام للإضراب. أولئك الذين شاركوا في الإضراب، كانوا يتلقون رواتبهم، وأولئك الذين رفضوا خسروا أجورهم.

هذا الحدث كان صعبا على السكان المدنيين في قطاع غزة. بعد شهر رجع كل العاملين في المجال الصحي إلى المستشفيات، على الرغم من المخاطرة بفقدان رواتبهم. لم يكونوا قادرين على المشاركة في عمل يؤثر على المرضى. كان على

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

السلطات الصحية في مدينة رام الله قبول ذلك. لكن وليد شقورة كان موظفاً إداريا في مجال الصحة وليس طبيبا. لذلك فإنه مستمر في الإضراب، لأنه ليس لديه مبرر للعودة إلى العمل.

وجبة الافطار عند وليد وعبير شقورة في سبتمبر 2008.

دفعت الحكومة في رام الله رواتباً لجميع موظفي الحكومة في قطاع غزة، بشرط ألا يعملوا. بعد ذلك وظفت حماس أشخاصاً في هذه الوظائف حتى لا يتوقف العمل. في خريف 2008 وربيع عام 2009 كان هناك الآلاف من الموظفين الحكوميين الذين يتلقون رواتبهم كي لا يعملوا، في حين كان البيروقراطيون الجدد يتلقون أجورهم من قبل حماس. أخذنا وليد إلى غرفة الجلوس. كانت مريحة ومفروشة بثلاث أرائك ومقعد وثير. في إحدى تلك الأرائك كان يجلس شاب.

قال وليد:

- أعرّفك على خالد، خطيب ابنتنا الكبرى ياسمين.

قدمت ياسمين من المطبخ، حيث كانت تهيء الطعام مع والدتها عبير، وياسمين شابة جميلة في الواحد والعشرين من عمرها. مثل غيرها من النساء في المنزل

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كانت ترتدي وشاحا ورديا على رأسها. درست ياسمين السكرتارية في الجامعة الإسلامية. الآن هي مخطوبة لخالد، سيتزوجون بمجرد أن تتحسن الأوضاع. كان من الواضح أنهما في حالة حب. جلست ياسمين بجانب خالد الذي كان مايزال طالبا في شعبة الاقتصاد بجامعة القدس في غزة.

في السادسة اجتمعنا حول الطاولة التي كانت مزينة بأطباق المازة التقليدية الفلسطينية، أو ما تسمى بالمقبلات، وهي عبارة عن أطباق صغيرة عديدة ومختلفة قبل الوجبة الرئيسية، وتتشكل من: الحمص (طبق مصنوع من الحمص والحامض والطحينة)، وبابا غنوج، (طبق من البادنجان المطحون والمخلوط بالثوم والحامض والطحينة وبعض الخضار)، التبولة، (سلطة مصنوعة من البرغل والبقدونس، والطماطم المفرومة والخضروات)، فلافل، (وهو خليط من الفول والحمص المقلي) والخبز (أكوام كبيرة من الخبز العربي الكبير والمستدير)، والآن سنبدأ في أخذ الطعام ووضعه في صحوننا.

قال وليد:

- توقف، أولاً يأكل كل واحد منا تمرة. إنها عادة قبل الشروع في الإفطار. الكل أخذ تمرة ثم شرعنا بعدها في الأكل. لا الحصار الإسرائيلي ولا ارتفاع أسعار المواد الغذائية يمكن أن يمنع عائلة وليد من صنع طعام الإفطار. عبير والابنة الثانية الكبرى نداء التي تبلغ عشرين سنة، قدمت وفي يدها وعاء كبير من الشعرية مع لحم مفروم على شكل كرات صغيرة، بين الحين والآخر نأكل الخبز وكل ما في تلك الأطباق الصغيرة.

أعطت عبير أمرا للأطفال بأن يوسعوا مكانا لصحن الفتوش، هذه السلطة التي تعتبر من الضروريات في لبنان وفلسطين والأردن خلال شهر رمضان. سألت نداء ماذا تفعل. كانت لديها خطط واضحة. أجابت: أدرس إدارة الأعمال في جامعة الأزهر، محمد ابن وليد يريد أن يصبح مهندسا، بينما صفاء التي يبلغ عمرها تسعة عشر عاماً بدأت لتوها تدرس الطب في جامعة الأزهر.

وليد وعبير أسّسا بيتا آمنا، حيث جميع أطفالهم كانت لديهم الأحلام نفسها التي عند أطفالي في النرويج. يحلمون بمستقبل، على الرغم من الحصار الإسرائيلي والأزمة بين فتح وحماس. جمعت البنات سلطانيات الحساء وأحضرت الطبق الرئيسي . وكان كل من "المقلوبة" مع اللحم والطماطم والأرز، وهي

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مصنوعة على شكل طبقات. وسدر المنسف الذي كان يتكون من الأرز و لحم الخروف واللوز.

قالت عبير مصرّة:

- الآن يجب أن تأكلوا.

كان من الواضح أنها فخورة بتلك المأكولات الشهية، ولها الحق في ذلك، لأن منظر الطعام كان جميلا، وأكلنا كثيرا. كنت أعتقد أنه سيكون من الصعب جلب الطعام خلال فترة الحصار. بعد العشاء أحضر وليد الأرجيلة التي ملأها بتبغ مخلوط بنكهة التفاح، أرسلت الأرجيلة إلى الضيوف. وكان من العادة أن الضيوف يدعون المضيف والمضيفة بعد الإفطار.

سألت:

- هل من المكن أن أدعو العائلة إلى المقهى بعد تناول العشاء؟

- نعم، قال الأطفال وبدأوا يهيئون أنفسهم. لنذهب إلى المقهى!

تكومنا جميعنا في سيارتين وتوجهنا الى مقهى يسمى المنارة، على ضفة المياه، مواجه للبحر الأبيض المتوسط. نحن الكبار كنا نشرب القهوة وندخن الأرجيلة، والأطفال يشربون العصير. كان شهر رمضان سعيدا وهادئا في غزة في خريف عام 2008. على نواصي الشوارع خارجا، كان أشخاص يبيعون البنزين في السوق السوداء والمواد الغذائية مباشرة من الأنفاق. بالنسبة لكثير من العائلات في قطاع غزة كان الإفطار متقشفا بالمقارنة مع وليد.

خارج مكتب الإدارة، بدؤوا في نصب خيمة لصلاة الجمعة. اعتقدت أن هذا سيكون هدفا مغريا. ذهبت الى مكتب الدكتور صبحي لإجراء مقابلات هاتفية. بعد صلاة الجمعة، دخل الدكتور صبحي الى المكتب، وقفت، لكنه أشار لي بالجلوس مرة أخرى.

- أجلس في مكانك.

أصبح هذا طقسا يوميا. كنت أعرف أنه سوف يجعلني أجلس على المكتب، ولكنني كنت أقف كل مرة يدخل إلى المكتب لإظهار أنه هو الرئيس، وإشارة مني أنني لم آخذ شيئا مسلما به. جلس لقراءة بعض الأوراق. بعد حين جاء الدكتور ناصر والدكتور سبيرو. بدأوا يتحدثون عن النقص في الأسرّة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في كل نهار جمعة تُنصب خيمة للصلاة في الساحة امام مركز استقبال الطوارئ. مسجد المستشفى، مسجد الشفاء، قصف ودمر في اليوم الثاني من الهجوم على غزة.

وقال الدكتور صبحي: أصبح الآن أيضا كل الجناح الطبي مليئاً بمرضى العمليات الجراحية. لا بد من إخراجهم من المستشفى بطريقة أو بأخرى. وآمل أن نتمكن من إجلاء بعض المرضى إلى مصر غدا. أقبل المساعد بصحون من الأرز وبعض قطع صغيرة من لحم الضأن.

اللحوم أصبحت تتقلص يوماً بعد يوم.

دعاني الدكتور صبحي:

- تعال وتغدى معنا.

دفع بتلك القطع القليلة من اللحم في الصحن نحوي، قلت إنني شبعان وسآكل فقط شيئا من الأرز، لكن ذلك لم يقبله.

قال:

- أنت ضيف، يجب عليك أن تأكل اللحم.

أخذت قطعة من اللحم وتركت الباقي. سأغادر قريبا قطاع غزة إلى بلد يفيض من السعرات الحرارية. الزملاء هنا سيكونون كلهم جياعاً.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- أنا ومادس سنكتب مقالا لمجلة لانسيت لكي نشرح الوضع.

- جيد جدا، قال الدكتور صبحي.

جيد جدا،قال الدكتور ناصر باهتمام.

سألت: هل لديكم بعض الأفكار حول عدد العمليات التي أجريتموها، وما هي أنواع الإصابات التي تم علاجها؟

أجاب الدكتور ناصر:

- لدينا دفتر البيانات للعمليات، هناك توجد كل العمليات.

دفتر العمليات هو الكتاب الذي نسجل فيه التاريخ، الاسم، التشخيص، والعمليات التي أجريت لجميع المرضى. اتصل الدكتور بابنته نشوى وطلب منها أن تحضر دفتر بيانات العمليات. نشوى طالبة في كلية الطب، وعملت كمتطوعة في مركز الاستقبال. بعد بضع دقائق جاءت بدفتر البيانات.

قال الدكتور صبحي:

- نعم، هنا سجلنا كل العمليات التي أجريت.

كان يتصفح الدفتر إلى أن وصل إلى تاريخ 27 كانون الأول / ديسمبر، لم يكن مكتوباً به ولا كلمة واحدة.

قال الدكتور ناصر:

- ذلك السبت كان كابوسا.

تلقينا عددا لا يصدق من المصابين، ولم يكن هناك أحد لديه الوقت ليسجل شيئا. أعتقد أننا قمنا بثمانين عملية جراحية. أحصينا جميع العمليات. وقد سجلت 270 عملية، من 28 ديسمبر كانون الأول. هذا يعني بالمعدل 20 عملية يوميا بعد اليوم الأول.

عندما قدر العدد إلى 80. سجلت عدد العمليات، معتقدا أنه سيكون من الأفضل أن يكون عندي نسخة من دفتر البيانات، لكن ذلك كان مستحيلا؛ فقسم العمليات تريده على الفور.

رن الهاتف المحمول للدكتور صبحي.

قال: إنها زوجتي، إيمان.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- إنها طبيبة أطفال وقد انتهت من عملها الآن. تسأل إن كانت نشوى ستجلس في المنزل.
- نعم، ليست هناك مشكلة.

كانت نشوى في منتصف دراستها، وتبدو ماهرة، وكنت أرى أنها قادرة على العمل طبيبة الآن. لكن يجب عليها أن تغادر قطاع غزة، على الأقل لفترة من الزمن. على الأرجح ستسافر إلى أوروبا لتدرس التخصص. بعد بضع دقائق قليلة قدمت زوجة الدكتور صبحي. كانت سيارتها خارجا. نشوى والأم ودّعاني وغادرا إلى المنزل.

اطباء المستقبل في فلسطين: طالبتا الطب نشوى شكنك وياسمين من جامعة الازهر في غزة قامتا بمجهود جبار ورائع كمتطوعتين في مستشفى الشفاء.

كان مادس كالعادة خارج مركز استقبال الطوارئ يتحدث مع الدكتور عصام. لقد لاحظت أن مادس قد أصبح نحيلا خلال الأيام العشرة التي قضيناها هناك. أصبحت لديه لحية طويلة ومنظره لا يختلف عن الدكتورعصام الذي أصبح هو أيضا نحيلا وله لحية. فكرت أنه يجب أن نسافر قريبا. هذه الحرب أثرت علينا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

جميعا، ينبغي استبدالنا أنا ومادس بجراحين وأطباء تخدير آخرين؛ لأنه لم يعد لنا الكثير لنقدمه. كان قد وصل داغفن، لكن كممرض لا يمكنه أن يعوّض دورنا. قبل الساعة السابعة بقليل قدمت المزيد من سيارات الاسعاف.

قال الدكتور عصام:

- لنذهب إلى غرفة العمليات.

كما جرت العادة، صعدنا الدرج، كان المصعد مشغولا. كان هناك تدفق من العمليات على مدار اليوم. العديد من المرضى الذين يعانون من إصابات الشظايا مستلقون في الممر، ينتظرون إجراء العمليات الجراحية. شاب مصاب بشظيتين في رجله اليمنى. بدأنا على الفور في فحصه. الشظية الأولى أصابت عظم الفخذ وكسرته من الوسط. الشظية الثانية أصابت الساق، لكن لم يكن هناك كسور.

كان عنده كذلك جرح كبير في الصدر حيث دخلت هناك شظية أخرى. وضع له أنبوب في تجويف الصدر، والرجل، كانت حالته مستقرة تماما. تم تحضيره لإجراء عملية جراحية له في عظم الفخذ والصدر، كان علينا تنظيف الجرح في ساقه، وإيقاف أي نزيف محتمل. كنا نخشى أن ينزف دون أن تكون لدينا السيطرة.

دخلت الشظية مباشرة عبر الساق وكانت عالقة عندما حاولنا اخراجها. وسّعت الجرح قليلا لأحصل على قبضة أفضل من خلال الفتحة. تمكنا من إجراء فحص داخل الجرح عبر عضلات الساق. لم يكن هناك نزيف كبير كما لم تكن هناك إصابة خطيرة. ضمدنا الجروح. شرع الدكتور عصام وجراح العظام في إجراء عملية للكسر في الفخذ، وثبتنا قضبانا معدنية لنركّب عليها المثبت الخارجي. دخل الدكتور عبد الغفار زمان،المختص في جراحة الصدر، وسألني إن كان في استطاعته إلقاء نظرة على الجرح في صدر المصاب. نزعنا الضمادات، ووجدنا جرحا بعرض ستة سنتيمترات مباشرة في تجويف الصدر. قمنا بتنظيف الجرح وإزالة القطع الصغيرة من عظام القفص الصدري والعضلات الميتة. أدخلت الخطاف ورفعت الجرح.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نظرنا في داخل البطن، كان هناك جرح مباشرة فوق الكبد. وسّعنا الجرح بقطع البتور حتى نتمكن من فحص الكبد. لم يكن هناك ضرر. خيّط الدكتور عبد الغفار الجرح مرة أخرى بين الجدار وأغلق العضلة والجلد. كان هناك فقط إصابة طفيفة في تجويف الصدر. كان جراح العظام على وشك إنهاء عملية الفخذ المكسور. نظرت إلى الساعة. استغرقنا فقط أربعين دقيقة.

خرجت إلى مدخل قسم العمليات الجراحية. أدخل شاب على عجل إلى غرفة الانتظار المجاورة. كان مصابا بجرح كبير في داخل الفخذ الأيسر. كان جراح الأوردة موجودا. ألقيت نظرة على الجرح. كان كبيرا وشريان الفخذ كان مبتورا، أحد ما كان قد ربط وشدّ بإحكام خيطاً حول الفخذ. طريقة فعالة، حتى لا ينزف الجرح. تركنا الجرح مربوطا ريثما يوضع له التخدير. ثم تم تنظيف الجرح لإجراء العملية الجراحية. جرّاحوا الأوردة لم يكونوا يحتاجون إلى مساعدتي، فخرجت مرة ثانية. خارجا التقيت بالدكتور عبد الغفار.

- إيريك، رافقني لنتفقد بعض المرضى في العناية المركزة، والذين يعانون من إصابات في الصدر.

كانت الزيارة الطبية تستعمل لتحديد المرضى او المصابين الذين يستطيعون البقاء ومن سيتم إجلاؤه. من اليسار: كبير المرضين يوسف ابو خلفا وطالب طب والدكتور اياد اماسي.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مررنا أولاً عبر مركز التعقيم. جميع المستشفيات الكبرى لديها مركز للتعقيم، حيث تغسل هنالك أدوات العمليات وتعقم ثم تعبأ في صناديق أو في ورق. كان هنالك شاب واقف يلف الأدوات. استلم عبد الغفار علبة من الأدوات، وذهبنا معاً إلى وحدة العناية المركزة وكشفنا على مريض مصاب بجرح كبير في صدره. نظفنا الجرح، كان ضغط الدم عند المريض منخفضا، وعنده حرارة، وتبدو عليه كل عوارض تسمم الدم.

قلت:

- لا اعتقد أنه سيتحسن طالما أن عظام الصدر مكشوفة وملتهبة.

- يمكن أن نغطيه بهيكل عضلي محل عضلة الصدر من حافة العظم ومن الجزء العلوي من اليد، لكن إنها عملية كبيرة، وليس من المؤكد انه سينجو.

قال عبد الغفار:

- لنرَ كيف سيكون الوضع غدا، حتى نتمكن من مناقشته.

كنت أفكر أنه من المحتمل أن نسافر اليوم التالي. إذن لا يمكننا أن نقوم بهذه العملية.

فحصت أنا وعبد الغفار مريضا آخر، يعاني من إصابة في الرئة عولجت بأنبوب في تجويف الصدر، وكان كل شيء على ما يرام. ذهبنا مرة أخرى إلى غرفة العمليات. في مكتب صغير بصالة العمليات كان يجلس الدكتور صبحي والدكتور سبيرو واثنان من الجراحين الآخرين، بما في ذلك كبير الأطباء في جراحة العظام، الدكتور عبد ربه أبو حشيش. الأربعة كانوا أكثر الجراحين خبرة في المستشفى.

صاح الدكتور صبحي:

- مرحبا إيريك، تفضل واجلس.

قال الدكتور صبحي:

- نحن نتحدث عن أحوالنا هنا، مثلما ترى، الحياة صعبة الآن. عليك أن تفهم يا إيريك، أن لا أحد منا من جماعة حماس. كلنا عملنا أطباء خارج غزة لسنوات عديدة. عملت ثلاث سنوات في إيدينبورغ و خمسة عشر سنة في المملكة العربية السعودية. عاش عبد ربه ثماني سنوات في ألمانيا، والدكتور

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سبيرو عمل سنوات عديدة في إيرلندا. نحب أوروبا، وكنا دائما مع حركة فتح. لكن اليوم خلال صلاة الجمعة، عندما جلسنا على ركبنا تحت ذلك القماش المشمّع الأزرق وقصفوا بالقرب منا، فكرت لأول مرة: دعهم يرمون قنبلة الآن ويقتلونني. حياتي هنا في غزة لم تعد مهمة.

قرية عبد ربه سويت بالارض. استعملت القوات الاسرائيلية الالغام لتفجير المنازل على الرغم من سيطرتهم على المنطقة. الحصار يعيق اعادة الاعمار.

قال عبد ربه باللغة الألمانية:

- خذلتنا فتح. إنهم يعملون تحت إمرة إسرائيل، وإسرائيل تقتلنا جميعا.

قال الدكتور صبحي:

- حماس تسيطر على غزة الآن ونشعر بنوع من الأمان. إيريك: ليست لديك أي فكرة كيف كان الوضع هنا سنة 2004 و2005. كان القانون منعدما. الناس يتعرضون للسطو الخطير ولا أحد يجرؤ على إبلاغ الشرطة وإلا يتعرض للضرب. كان الوضع خطيرا. عندما فازت حماس في الانتخابات تمكنت من السيطرة، وأصبحت الأوضاع قانونية. أصبح الوضع آمناً الآن أمانا لأطفالي أن يخرجوا إلى الشارع. نسبة الإجرام انخفضت. لكن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الغرب يعاقبنا. لماذا لا تحصل حماس على فرصة؟ يمكننا ببساطة أن نصوت ضدّهم في الانتخابات القادمة. لكن الأغلبية صوتت لهم. يمكنني أن أعيش مع ذلك.

هذا ما قاله الأطباء من ذوي الخبرة. مرة أخرى، الآن اتضح لي كم كانت ردة فعل المجتمع الدولي غير حكيمة باتجاه حماس. هؤلاء الأطباء أنفسهم لم يصنفوا أنفسهم مع حماس اجتماعيا وثقافيا. ولكن غضبوا من عدم احترام الغرب لاختيار شعبهم. شعرت بالتضامن معهم. كلنا جراحون من الجيل نفسه، وكلنا سافرنا ورأينا الكثير. خارجا كنا نسمع صوت القنابل. بالنسبة لهم أصبحت الحياة ممزقة إلى أجزاء في كل انتكاس. ربما الأمر كذلك بالنسبة لي أنا أيضا. كنت أعتقد أن تلك الليلة ربما هي آخر ليلة كنا معا قبل أن أغادر أنا ومادس. وكم تأثرت من تلك الثقة المتبادلة والصداقة الحميمة التي كانت بيننا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المعاناة المخطط لها

مادس جلبرت

جاء الحصار العدواني خلال السنوات الثلاث الأخيرة على غزة، بعد سنوات طويلة من تقييد حرية حركة الفلسطينين وأنخفاض فرص العمل. الحملة الاسرائيلية والعقوبات الدولية ضد الشعب بأكمله في تلك المناطق المحتلة وضد حماس الفائزة في الانتخابات، بدأت بعد الانتخابات في كانون الثاني 2006. حينها حاصرت اسرائيل تدفّق الأموال وأوقفت كل عائدات الضرائب والمبالغ المستردة من الضرائب إلى السلطة الفلسطينية. ونتيجة لذلك، فقد 160000 موظف رسمي راتبه من بداية آذار- مارس 2006، وذلك أثّر كثيرا على الاقتصاد الفلسطيني المنهار. من يونيو إلى أغسطس 2007 إختفت أكثر من 75000 وظيفة في قطاع الصناعات الخفيفة، والتي اضطرت إلى الإغلاق نتيجة الحصار. كانت نسبة البطالة 70 بالمئة، و1،1 من 5،1 مليون فلسطيني كان يعتمد كليا على المساعدات من الأمم المتحدة من أجل العيش. في سبتمبر 2008 أعلن البنك الدولي أرقاما دراماتيكية عن الوضع الاقتصادي في غزة:

ما مجموعه 105000 عامل فلسطيني فقدوا وظائفهم من عام 2005 إلى يونيو 2008، وفقط 860 الذين مازالت لديهم وظيفة في ذلك العدد القليل من الشركات الصناعية التي لا تزال تعمل. 98 بالمئة من قطاع الصناعات توقفت بسبب نقص المواد الخام أو فرص التصدير أو بسبب ظروف أخرى نتجت عن الحصار. الآثار الاقتصادية المترتبة عن الحصار الاسرائيلي كانت جد مدمّرة لقطاع التجارة والحياة الاجتماعية، حيث ذكر البنك الدولي في تقريره، أنّ هناك شكاً في أن تكون العديد من الشركات والمؤسسات قادرة على الوقوف مرة أخرى إن تم رفع الحصار.

يصعب تخمين التأثير السلبي للحصار الاسرائيلي على الانتاج الفلسطيني، والاقتصاد، وحرية التنقل. وفقا لتقرير البنك الدولي. أجبر الحصار على غزة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كذلك الأمم المتحدة على تأجيل المشاريع الكبيرة التي كانت مموّلة بالكامل والتي كانت تقدر بـ 700مليون كرون نرويجي. كانت المشاريع أساسا لبناء المدارس والمساكن وشبكة الصرف الصحي. هذه المشاريع وحدها وظّفت سابقا 121000 فلسطيني في غزة. ارتفعت نسبة البطالة، وبالتالي تزايدت نسبة الفقر في قطاع غزة. الفقر واسع ومستفحل. في عام 2007 كان 80 بالمئة من سكان غزة يحصلون على أقل من 2 دولار أمريكي يوميا. في أواخر خريف عام 2008، أفاد البنك الدولي أن متوسط دخل الأسرة في غزة الآن نقص بأربعين بالمئة من الايرادات قبل الحصار.

لكي يتمكّنوا من العيش في هذه الأزمة الاقتصادية أجبرت العائلات على التخفيف جدا من الإنفاق، فباع الناس الأشياء الثمينة والمجوهرات، وأجلوا تسديد القروض، وأخذوا قروضاً جديدة، غالبا هي من بعض أفراد الأسرة والأصدقاء، لأن التدفق النقدي للبنوك الفلسطينية توقف أيضا. جميع الاحتياطات استنفدت، وكل الطرق الأخرى تمت الاستعانة بها. عندما استنفدت تفتقر مخزونات السلع، والمحلات التجارية كل شيء من أنواع الغذاء كالحليب المجفف وزيت الطهي والأدوية، ونتيجة لذلك تضطر العائلات أن تدبر نفسها بالشاي والخبز طالما يمكن الحصول على الخبز.

شمل الحصار المفروض على غزة جميع جوانب الحياة الاجتماعية. أصبحت حرية التنقل من المستحيل القيام بها داخل الأسوار العالية. الفلسطينيون محاطون بأسوار لا نهاية لها، أسوار من الأسلاك الشائكة المضاعفة وأبراج حراسة وضعت بعناية مدروسة في أماكن معيّنة، وحقل من الألغام القاتلة على كل الأراضي المحيطة بها. ليس لدى الناس أية وسيلة لمغادرة قطاع غزة، يخرجون إما إلى إسرائيل عبر معبر ايريز الحدودي في الشمال أو إلى مصر عن طريق معبر رفح الحدودي في الجنوب.

قدّر عليهم أن يتحرّكوا في سجن من 360 كيلو متراً مربعاً داخل الجدار الإسرائيلي. والأغلبية العظمى من الفلسطينين الغزاويين ليست لديهم بطاقات تعريف أو وثائق سفر صالحة أو جنسية وجواز سفر. لم يعد العمال قادرين على الوصول إلى عملهم في إسرائيل، كما أن صيادي السمك في غزة يعرّضون حياتهم للخطر إذا ما تجاوزوا الحد الجديد الذي وضعته إسرائيل في 2009،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

والذي هو فقط ثلاث أميال ملاحية من الساحل. إن فعلوا تطلق السفن البحرية الإسرائيلية فورا عليهم النار.

الزراعة وصيد الأسماك مهمّة، وإن كانت ضئيلة، تجلب مصادر الدخل، وتساهم بشكل فعّال كمصدر للموادّ الغذائية في قطاع غزة. 20000 عائلة تعيش على الزراعة في قطاع غزة، وهؤلاء يشكلون اثني عشر بالمئة من السكان. قبل عام 2000 كان يعمل في غزة 10000 صياد سمك، وهؤلاء الصيادون الفلسطينيون لعبوا دورا مهمّا في جلب البروتينات الموجودة في السمك للشعب الجائع. في 2008 كان صيد السمك يشكّل 5،1 بالمئة من اقتصاد غزة، والزراعة 10 بالمئة، وفقا لوزارة الزراعة في غزة.

نتيجة للحصار تقلصت كل من الزراعة وأسواق السمك، إلى حد كبير حتى قبل عملية الرصاص المسكوب التي بدأت في 27 ديسمبر - كانون الأول 2008. اضطرت غزة إلى الخضوع من الناحيتين اقتصادياً وغذائياً وصحة.

كان لي العديد من الأمثلة من آثار الحصار الشامل على الحياة اليومية للفلسطينيين خلال فترة عملي في قطاع غزة في عام 2008. قال الدكتور خليل صديقي الحميم منذ خمسة عشرة سنة، عندما زرنا سوق السمك في مدينة غزة في صباح يوم سبت مارس 2008، وكانت الشمس مشرقة.

- تقريبا لا يوجد هناك سمك في السوق. وإن وجد فأسعاره باهظة جدًا.

تطل قاعات الأسماك مباشرة على البحر وتقدّم العديد من الأطباق الشهية واللذيذة مباشرة منه. تنبعث رائحة الأسماك الطازجة، الأسماك الصدفية، والمحار والسمك، لكن كانت بكميات قليلة، والأسعار عالية لا يتمكن من شراء تلك الأسماك اللذيذة إلا الأغنياء في المجتمع.

تابع:

- أخذوا منا لقمة العيش وفي الوقت نفسه فقدنا فيه مقدرة الدّفاع عن أنفسنا.

- مازالت القيود على الصيادين ومازال نقص في الوقود والمعدات.

- أليست هذه مصادر مهمّة للبروتينات للناس أيضا؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- بطبيعة الحال. ويمكننا أن نحسن كثيرا من إنتاج الأسماك، لو كان مسموح لنا العمل في بحرنا.

كان خليل مولعا بالبحر وطباخاً جيداً.

- لنشتر السمك للغداء لأطبخ لك سمكا على الطريقة الفلسطينية.

- رائع! لا أستطيع الانتظار، وسوف تتذوق (سكرام موليا) عندما تأتي يوما إلى ترومسو. ربما نبدأ مشروع الصداقة لتنمية مصايد الأسماك بين مدينتي غزة وترومسو. لدينا شيء مشترك، شاطئ ومصائد أسماك وليس فقط الرعاية الصحية وخدمات الإسعاف. ضحكنا. وضع يده حول كتفي.

- يوما ما، يا مادس، عندما يحلّ السلام وتتحرر فلسطين، سوف نجلس معاً على الشواطئ الرملية البيضاء هنا وننظر إلى البحر، نتحدث عن الحياة ونشاهد الأطفال يلعبون بدون قلق، ومن دون خوف ولا قنابل. نظر إلي.

أجبت:

- إن شاء الله.

- إن شاء الله.

كانت عيناه المهمومتان والمنهكتان ثابتتين، شعرت أن فيهما يأساً، هذا اليأس الذي أراه دائما وباستمرار لدى زملائي وأصدقائي بعد كل هذه السنوات من التدهور المتزايد في غزة من صعوبة ظروف المعيشة التي تزداد سوءا، وزيادة المخاوف من أجل الأطفال، وفقدان الثقة بالمستقبل. في الواقع كنا في طريقنا لزيارة نادرة لأصدقاء في مناطق بجنوب قطاع غزة، كنت مصرا لرؤية الأسماك في مدينة غزة قبل أن نتوغل في سفرنا إلى الجنوب.

الرحلات الترفيهية موضع ترحاب وابتهاج كبير لكل العائلات الفلسطينية ويحبّها الأطفال كثيراً. سافرنا على طول الساحل ونسيم البحر المنعش يملأ السيارة من خلال نوافذها المفتوحة. وجهت كلامي لسوزان، زوجة خليل التي كانت تجلس مع الأطفال في المقعد الخلفي:

- هذه المرة الأولى التي نقوم فيها بجولة جنبا إلى جنب مع أفراد العائلة كافة خارج مدينة غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- أنت تعرف يا مادس مثل هذه المناسبة لا تحدث إلا نادرا، إما بسبب الوضع الأمني أو النقص في الوقود، أو بسبب ضغوط العمل الكبيرة جدا.

نظرت إلي من وراء نظارات شمسية كبيرة بشكل غير عادي. كنا في رحلة يوم الأحد، في عطلة من العمل، كان الطقس مشمسا، والأطفال فرحون، وكنا في طريقنا لتناول طعام الغداء مع أيمن وعائلته في دير البلح. كنت أفكر بالشعب النرويجي، كيف نستغل كل لحظة للمتعة والترفيه، والرحلات، والحقوق والاستجمام. نأخذ كل ذلك كأمر مفروغ منه.

سوق السمك في غزة لم تكن تستطيع تقديم الكثير للمواطنين في 2008 بسبب الحصار والتضييق الدراماتيكي الذي فرضه الاسرائيليون على منطقة الصيد للصيادين الغزاويين.

صيد السمك كان من الأنشطة المهمة للسكان الفلسطينيين في غزة"الدولة الساحلية"، كمصدر اقتصادي وغذاء. وكان البحر مصدرا غنيا ، أوضح وزير الزراعة محمد الاغا في غزة للنشرة الإعلامية التي تصدر عن مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشؤون الانسانية. "الآن فقط 3500 صياد، من قبل كانت مشكلة النقص في الوقود، الآن المشكلة أمنية (سلامة الصيادين).

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

غزة محاصرة بشكل محكم بالاسلاك الشائكة والجدار الاسمنتي وابراج المرقبة وحقول الالغام. معبر ايريز هو المعبر الوحيد لدخول وخروج الافراد الى اسرائيل.

بعد هذه الحرب الأخيرة، خفض الإسرائيليون أيضا عدد المرات التي يمكن أن يذهب فيها كل قارب لصيد الأسماك، إلى 10 من كل شهر، بينما في السابق كان يسمح لها 80 مرة، والتي هم بحاجة إليها حتى يدبروا أنفسهم. في 2008، كان أسطول الصيد الفلسطيني في قطاع غزة يصطاد 250 طناً من الأسماك كل شهر، ما يعادل 3000 طنّاً سنويا. يحتاج سكان غزة إلى 20000 ألف طن من الأسماك سنويا لتلبية الاحتياجات من البروتين. في شباط / فبراير 2009، اصطيد فقط 65 طنا من السمك في قطاع غزة.

كمية البروتين التي يحصل عليها المواطنون في غزة، أقل ب50 بالمئة من الدول العربية الأخرى. يفتقر النظام الغذائي الآن للكثير ويهدّد حياة ونمو الأطفال. من بين 450 مركب للصيد في غزة هناك فقط 85 مركباً كبيراً. من 1993 إلى 2000 كان الصيادون الفلسطينيون يصطادون بحرّية دون عوائق في الخمس والأربعين كيلومترا على طول شاطئ غزة. لكن في عام 2000 فجأة قرّر الإسرائيليون من طرف واحد تحديد مناطق الصيد إلى ستة أميال بحرية أي 11 كلم. وفقا

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لاتفاقية اسلو حدّدت منطقة الصيد إلى 20 ميلاً بحرياً، أي ما يقارب (37 كلم). خلال عملية الرصاص المسكوب، كان كل شاطئ غزة محاصراً من البحرية الاسرائيلية. بعد الهجمات في يناير 2009، "قررت القوات البحرية الإسرائيلية وضع مزيد من القيود على حركة الصيادين الفلسطينيين وحرية التنقل، واصبحت الملاحة في البحر أكثر ضيقا. والآن أصبح الصيادون الفلسطينيون يواجهون بالطلقات الميتة من البحرية الإسرائيلية إذا تحركوا أكثر (6،5كلم) تلك الأميال الملاحية المتاحة لهم من شاطئهم.

القانون الدولي للملاحة البحرية لعام 1982 وضع قواعد مهمة في القانون الدولي وهي 200 ميل منطقة اقتصادية للدول الساحلية. في للدولة الساحلية المنطقة الاقتصادية المحلية، حقوق سيادية لاستغلال الموارد البحرية الموجودة في قاع البحر. بالإضافة إلى ذلك لدى الدول الساحلية السيادة داخل اثني عشر ميلاً بحرياً من الخط الأساس. فلسطين المحتلة هي دولة ساحلية، ومن الواضح أن القانون الدولي سيمنح غزة الحق في المنطقة الاقتصادية من 200 ميل بحري وسيادته على أراضيه الساحلية داخل اثني عشر ميلاً بحرياً، وليس تلك الثلاثة أميال البحرية التي أقرّتها إسرائيل منفردة.

هل يعتقد الإسرائيليون أنه يوجد قانون بحري خاص بهم، مرفوع عاليا فوق النظام القانوني الدولي؟ بررت إسرائيل التضييق من جانب واحد للمياه الإقليمية الفلسطينية بحججهم المألوفة، مشاكل "السياسة الأمنية". عن طريق البحر يمكن تهريب الأسلحة والذخيرة إلى غزة. بناء على كلامهم فإن البحرية الفلسطينية لا تشكّل أي تهديد خطير على إسرائيل.

حقيقة لا وجود لها. لكن إسرائيل قد تكون لها أسباب أخرى أكثر أهمية من صيد سمك السردين وتهريب الأسلحة لإلغاء الحقوق المدنية في هذا المجال. في عام 1999 اكتشفت شركة النفط البريطانية، "مجموعة الغاز البريطانية"، كميات كبيرة من الغاز الطبيعي تحت قاع البحر 10- 15 ميلاً قبالة سواحل غزة. الترسبات المكتشفة حديثا، أطلق عليها اسم غزة مارين 1و2.

ما مجموعه 60 بالمئة من الحقل يقع داخل المياه الفلسطينية، ويقدر أنه يحتوي على ما يقرب 3،1 تريليون (3،1 مليون بليون)قدم مكعب من الغاز. كمية

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الغاز تعادل 150 مليون برميل من النفط، وبقيمة ما يقارب 30 مليار كرونة نرويجية (4 مليار دولار أمريكي).

في أيار/مايو 2007، كان هناك اتفاق على المدى الطويل بين شركة المجموعة البريطانية للغاز (بي جي جي)، إسرائيل والسلطة الفلسطينية على إعطاء إمدادات الغاز لإسرائيل من هذين الحقلين لمدة 15 سنة، بقيمة ما يقرب من 30 مليار كرون، ولكن الاتفاق لم ينفذ. قبل 6 سنوات قال اريبل شارون إنه من غير الوارد الحديث عن شراء الغاز من السلطة الفلسطينية.

المحكمة الإسرائيلية العليا ستحدد كذلك الوضع القانوني للمياه الإقليمية لقطاع غزة. في عام 2006، كانت (بي جي جي) على وشك التوقيع لصفقة الغاز مع مصر بدلا من إسرائيل، ولكن طوني بلير تدخل وضغط لإجراء مفاوضات جديدة مع الإسرائيليين. هذا الاتفاق من شأنه أن يعطي السلطة الفلسطينية حوالي 7 بلايين كرون في الربح.

خلال المفاوضات بشأن خط أنبوب الغاز تحت البحر إلى مدينة عسقلان في إسرائيل، وضعت إسرائيل مطلبا بشأن طريقة الدفع للفلسطينيين. اشترطت على أن يكون الدفع على شكل سلع وخدمات وليس نقدا وألا يصل شيء إلى حماس. نهاية قصة المفاوضات بين (بي جي جي) وإسرائيل ذهبت أدراج الرياح، أغلب الظن بسبب مايير داغان رئيس جهاز الموساد، كما أن بعض المحلّلين الاستراتيجيين العسكريين الإسرائيليين، كانوا يعتقدون أنّ مثل هذه الاتفاقية ستموّل الأعمال الإرهابية ليس فقط حماس ولكن تنظيم القاعدة أيضا.

قالوا أن منشآت الغاز على الشواطئ الفلسطينية من محتمل أن يعمل كمغناطيس يجلب منظمات الجهاد العالمية. في كانون الأول/ديسمبر 2007 انسحبت ال (بي جي جي) من كلّ المفاوضات مع الحكومة الإسرائيلية بشأن بيع الغاز من الحقول خارج غزة لإسرائيل، وأغلقت مكاتبها في إسرائيل. يمكن أن يكون أحد التفسيرات لكلّ ما حصل منذ عام 2000، أن ساحل غزة يخفي كميات كبيرة من حقول الغاز وربما أيضا البترول؟

العديد من المحلّلين يدّعون بأن عملية الرصاص المصبوب هي في الحقيقة حاجة إسرائيل للطاقة والطموح لتتولى السيطرة الكاملة على حقول الغاز

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الفلسطينية. على الأرجح أن الحقول تحتوي على أكثر من 3،1 تريليون قدم مكعب الذي سبق وأن اكتشف. بعد أقل من سنة بعد اكتشاف وجود كميات الغاز الكبيرة في الساحل الفلسطيني، بدأت البوارج الحربية الإسرائيلية تهاجم قوارب الصيادين الفلسطينيين الذين يتحرّكون في أكثر من ستة أميال بحرية من شاطئ غزة. منذ ذلك الحين، قتل 15 صياداً وأكثر من 200 أصيبوا بجروح جرّاء الهجمات من البوارج البحرية الاسرائيلية. أثناء وبعد عملية الرصاص المسكوب، تعرض العديد من الصيّادين للهجوم والإصابة أو القتل.

لكن الآن وبعد ما تخطينا قصة الثلاثة أميال بحرية. هل تريد إسرائيل والولايات المتحدة أن تضع يدها على احتياطي الغاز الفلسطيني؟ هل يمكن لغزة أن تصبح دبي الجديدة وتكون الموزّع للأجزاء الكبيرة من غرب شبه الجزيرة العربية بالإضافة إلى الاكتفاء الذاتي من مجال الطاقة" وبناء معامل توليد الكهرباء التي تعمل على الغاز؟ بغض النظر، إن هذا سيكون من الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل، لجغرافية السياسة الإسرائيلية وطموحاتها العسكرية للسيطرة على مصادر الطاقة في المياه الإقليمية الفلسطينية، وقرصنة المياه الإقليمية الفلسطينية باحتلال واضح وغير مشروع. هذه المرة ليس من الأراضي والأجواء الفلسطينية لكن من البحر الفلسطيني.

لكن المشكلة بالنسبة لصيادي السمك في غزة ليس فقط ضيق مساحة الصيد، بل الحصار الذي جعل من المستحيل الحصول على قطع الغيار لمراكبهم ولشبك الصيد الجديد والصنارات والغاز للفوانيس الغازية التي يستعملونها لصيد الأسماك في الليل، ولوقود الزوارق. في مدينة رفح بأقصى جنوب قطاع غزة، توقف صيد الأسماك نهائيا لأن القوات العسكرية الإسرائيلية دمرت بشكل منهجي قوارب الصيد وشبك الصيد والحبال خلال الهجمات التي استمرت لمدة 22 يوماً.

هكذا اختفى بين عشية وضحاها مصدر مهم من مصادر العيش والدخل والمواد الغذائية الغنية بالبروتين للسكان الجياع.

الدول التي تصيد الأسماك كالنرويج لم تقم بأي احتجاج قوي. النرويج كدولة ساحلية بطبيعة الحال لن ترضى بقوة أجنبية أن تخفض شيئا من سيادتها الحيوية في 200 ميل من مياهها الإقليمية، أو تنقل منطقة الصيد أو يأخذ منها

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

حق البحث عن النفط والغاز في الجرف النرويجي. "لا يمكننا صيد أسماك كبيرة وطازجة داخل ثلاثة أميال بحرية، هذا مستحيل. هذا ما قاله محمد الهسّي أحد كبار صيادي غزة، وأضاف منذ 5 أبريل 2009 كانت زوارق الصيد المصرية والإسرائيلية تصيد خارج الأميال الثلاثة البحرية، وهذا يخفّض من كميات الصيد عندنا. بدأ موسم صيد السردين لكن حتى الآن لم نصطد سردينة واحدة.

بعد الحرب الأخيرة أصيب تسعة صيادين فلسطينيين بجروح من رصاص زوارق البحرية الإسرائيلية. من الصعب أن تتصوّر الإحساس بضيق المكان الذي يخيّم على غزة من غير أن تعيش الظروف نفسها عن قرب أو تسكن فيها. مليون ونصف شخص من غير قطار أو طائرة أو حافلات نقل مع العالم الخارجي، ولا طرق تستطيع أن تقود فيها بحريّة إلى البلدان المجاورة.

انتهت حركة النقل الجوي قبل أن تبدأ، بعد أن قصف الإسرائيليون مطار غزة الجديد الذي بني مباشرة بعد اتفاقية أوسلو. افتتح المطار الجديد في 24 نوفمبر 1998 وكان يحمل اسم "مطار ياسر عرفات الدولي . حضر ياسر عرفات والرئيس الأمريكي بيل كلينتون حفل الافتتاح. مشروع المطار موّل من اليابان، ومصر، والمملكة العربية السعودية، واسبانيا وألمانيا. وكان سعر التكلفة حوالي 600 مليون دولار.

كل من افتتاح المطار وإنشاء شركة فلسطينية مستقلّة، هي الخطوط الجوية الفلسطينية، كانت تعتبر خطوات مهمة على طريق إقامة دولة فلسطينية. كان المبنى الرئيسي المزخرف نسخة عن مطار الدار البيضاء، مساحته 4000 متر مربع، ويعمل فيه 400 موظف. وكانت حركة المرور كثيرة من اليوم الأول الذي افتتح فيه المطار، والذي أصبح مباشرة مهما لتصدير الزهور والفراولة الطازجة من غزة. لكن بعد بداية الانتفاضة الثانية" انتفاضة الأقصى ، أغلقت السلطات الإسرائيلية المطار، وفي 7 أكتوبر 2000 انتهت قصة الطيران الفلسطيني. في 2001 قصف الطيران الاسرائيلي نظام الرادار وفي 2002 جرفت الجرافات الإسرائيلية العسكرية مدارج المطار. في أواخر أغسطس 2007 قصفت الطائرات المروحية الإسرائيلية برج المراقبة في المطار حتى تتأكد تماما أن هذا الرمز الهشّ الذي يرمز للدولة الفلسطينية سحق بكعب من حديد.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في 19 سبتمبر 2007 أعلن مجلس الأمن الإسرائيلي قطاع غزة "كيانا معاديا". ادعت إسرائيل أن هذا التعريف اعطاها الحق في فرض عقوبات مختلفة ضد سكان قطاع غزة، بما في ذلك القيود المفروضة على إمدادات الكهرباء والوقود. هذا سيكون جوابا على إطلاق صواريخ القسام من غزة إلى اسرائيل. في أكتوبر من ذلك العام، طلبت العديد من منظمات حقوق الإنسان الفلسطينية والإسرائيلية استئناف القرار إلى المحكمة الإسرائيلية العليا.

احتجوا بأن الإجراءات العقابية والحصار من شأنه أن يؤدي إلى أضرار إنسانية واسعة النطاق مع خسائر في الأرواح. أجابت المحكمة الإسرائيلية العليا بالرفض على الاستئناف في يناير 2008 وأعطت في الوقت نفسه الضوء الأخضر لاتخاذ إجراءات عقابية ضد سكان غزة.

لا يمكن أن ينظر للحصار سوى أنه وحشي وعقاب ظالم ضد شعب بأكمله، وإذا كنت مخطئا -وأنظر إلى الأمور بعيون إسرائيلية- فإنه يكون كالشكل الآتي، أنهم لا يقبلون الاحتلال الإسرائيلي، وأنهم مازالوا متمردين إلى درجة أنهم يختارون قادة أحزاب سياسية (حماس) الذين هم مستعدون لاستمرار مواصلة النضال ضد الاحتلال الإسرائيلي. هدف آخر واضح لذلك الحصار الطويل المدى على قطاع غزة هو بتهكم: وضع ضغط شديد على الشعب الفلسطيني إلى أن يصلوا إلى نقطة يتضاربون فيما بينهم، مما يؤدي إلى حرب أهلية.

بغض النظر عن الهدف الإسرائيلي من الحصار. فقد أثر كثيراً على المجتمع المدني برمته. بالنسبة للسكان كانت العواقب مدمّرة. عليهم أن يدبروا أنفسهم بأقل من ربع حجم البضائع التي تم استيرادها في ديسمبر 2005، وأحيانا أقل من ذلك.

وقد أدى ذلك إلى نقص شديد في مجموعة كثيرة من السلع.

كل شيء من الطلاء إلى المسامير وقضبان الحديد، المزاريب وأنابيب المياه وزجاج النوافذ قد أوقفت من جانب الإسرائيليين على المعابر الحدودية. سمح لعدد قليل من السلع الإنسانية الأساسية والمواد الغذائية وبعض الأدوية بالدخول من خلال نقاط التفتيش الإسرائيلية. لم يسمحوا بتصدير أي شيء وهذا بالطبع قد شلّ الاقتصاد الفلسطيني في قطاع غزة. رأيت الآثار المدمرة للحصار خلال

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تفتقد غزة لكل شيء. الحصار اخذ وبالقوة ابسط حقوق الانسان لاكثر من 1.50 مليون رجل وامراة وطفل.

زيارتي لغزة في مارس وأكتوبر 2008. وكان الفقر يتزايد بسرعة. أصدقائي المقربون، الذين ينتمون إلى الطبقة الفلسطينية المتوسطة ولديهم وظائف في مجال الصحة في فلسطين، كانوا يعانون أيضا بشدة.

- نقترض المال ونبيع المجوهرات. كل يساعد الآخر، سواء بين الأسرة أو الأصدقاء، لكن الوضع صعب جدا، أوضح لي آخر من أصدقائي وزملائي المقربين، الدكتور نافذ، عندما كنت في زيارتي الأخيرة في غزة أكتوبر 2008.

- نحن نتدبر أمرنا. لكن الأمر أسوأ مع أولئك الذين هم فقراء حقا والذين ليست لديهم وظائف. الكثيرون يعيشون فقط لسد رمقهم وآخرون منهم يتضورون جوعا. المواد الغذائية قليلة في السوق، والأسعار في ارتفاع مستمر. يكاد يكون من المستحيل الحصول على اللحوم. اللحوم شبه منعدمة لسكان غزة، وأنتم تعلمون ما هي العواقب التي سيتعرضون إليها. كثير من فقر الدم بسبب نقص الحديد في النظام الغذائي. نظر إلي نافذ وضحك..

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ماذا يمكننا أن نفعل؟ ينبغي لنا فقط أن نقاوم لأجل البقاء. ربما علينا جميعا أن نأكل العشب في نهاية المطاف؟ لا أريد أن أغادر غزة وأترك عائلتي. لا أستطيع أن أترك شعبي. ولدت هنا، ونشأت في مخيم الشاطئ، وحياتي كلها هنا. أحب غزة، ولكن أكره هذا الوضع الذي لا يطاق. صدقني، مادس - هذا الوضع لا نستحقه..

أجبته مبتسما:

- ماذا يمكننا أن نفعل. أن نستسلم، ذلك ليس خيارا لأي أحد منّا. إسرائيل لم تحدّد أبدا اللائحة بالأشياء التي لايمكن إدخالها إلى غزة ولا تتبع أية معايير محدّدة. كلّ يوم يختلف عن اليوم الذي يليه. وهذا يجعل التخطيط صعبا جدا. ليس فقط بالنسبة لأصحاب المعامل الصغيرة والمزارعين، ولكن أيضا بالنسبة للقطاع العام وكل وظائفه الاجتماعية الضرورية للحياة كالطاقة والمياه والأمن الغذائي لأكثر من مليون ونصف مواطن.

وعليهم بالطبع أن يؤمنوا ضمان تشغيل أنظمة الصرف الصحي والتخلص من القمامة. وأن المدارس والقطاع الصحي عندها الإمدادات التي تضمن تشغيلها. نقص الوقود وقطع الغيار يؤثر على كل القطاعات الاجتماعية تقريبا بمفعول فوري. خلال زياراتي في غزة عام 2008، تحدّثت طويلا مع رئيس بلدية غزة السابق، الدكتور ماجد أبو رمضان. وهو طبيب عيون وكان سابقا رجل الاتصال لوزارة الصحة عندما كانت تحت إدارة فتح. الآن يعمل في مدينة غزة، وأنشأ مركزا للجراحة بالليزر. الدكتور ماجد يعرف العواقب المدمرة للحصار الإسرائيلي على الحياة اليومية للفلسطينيين في غزة. في عام 2008 وصف الحصار ب"جد مدمّر . يجب أن نجري مفاوضات على كلّ شيء، من الوقود إلى سيارات الزبالة، إلى معبر آمن للمرضى المصابين بأمراض خطيرة ويجب أن يذهبوا إلى إسرائيل ليحصلوا على العلاج الطبي المناسب. الحصار يخنق غزة ويجعل حياتنا صعبة للغاية.

شربنا الشاي الفلسطيني الحلو مع أوراق النعناع في إحدى مقاهي مدينة غزة. يقع المقهى بمقربة من مستشفى الهلال الأحمر ويحمل اسم "هابي لاند لكن يجب أن تعلم أننا نحن الفلسطينيين في غزة عشنا أياما عصيبة، لفترة طويلة، وعوّدنا أنفسنا على التّكيف مع المصاعب.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في عام 2003 وثّق برنامج للغذاء العالمي في تقرير شامل أن الأمن الغذائي كان تهديدا خطيرا في قطاع غزة والضفة الغربية. وأكد التقرير أن تحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للحصول على الغذاء وإعادة إعمار البنية التحتية المدّمرَة في الأراضي المحتلة كان عاملا أساسيا لمنع سوء وعدم التغذية. منذ حزيران / يونيو 2007 لم تأت البضائع الأولية إلى غزة، وأكثر من 90 بالمئة من المشاريع أجبرت على الإغلاق. قطاع البناء مصاب بالشلل تماما. أكثر من 3500 شركة اضطرت للإغلاق، وأكثر من 000 75 موظف فقدوا وظائفهم. وكذلك العمال الذين يقومون بدور إعالة أكثر من نصف مليون من سكان غزة وبقية المواطنين. المنظمات التي تقدم المساعدات، لديها علم أن التعريف الإسرائيلي لجملة "المساعدات الانسانية" هي أربع فئات من المنتوجات: غذاء الإنسان، وعلف الحيوانات والبقالات والأدوية.

كان الطعام قليلا في قطاع غزة. أفرغ الحصار المنطقة من المصادر الطبيعية للاكتفاء الذاتي. وبالإضافة إلى أن مخازن المواد الغذائية للأمم المتحدة استنفدت تماما، وكل ذلك بسبب الحصار.

في المنطقة التي ننام فيها في الشفاء، الثلاجة وطاولة المطبخ بمطبخنا أيضا شبه فارغة من الطعام، كما لاحظنا بسرعة أن الضيافة الفلسطينية لا يمكن أن تستمر بطعامها الشهي الذي كان يقدّم لنا كضيوف. النقص في الطعام أصبح ملموسا، ورغم أنّ المطبخ الرئيسي للمستشفى كان يبذل قصارى جهده، أصبح الطعام يخف بعد كل يوم يمر.

- لم يعد هناك المزيد من الدجاج. ليس هناك خبز كاف في غزة الآن. وقريبا ستنفد الخضار، يتوفر فقط الطماطم التي ثمنها مرتفع ولا أحد يستطيع شراءها.

ابتسم طباخنا بامتعاض، وأشار بيديه إلى الثلاجة الفارغة. المطبخ الفلسطيني لذيذ ومتنوع ومغر. الطبخ الفلسطيني يتكون من مجموعة مختارة من اللحوم أوالسمك وأطباق الخضار، له نكهة جيدة ويحتوي على بعض البهارات المختلفة، ونكهات متنوعة تجعل لعابك يسيل بين أسنانك، عندما تكون مدعوا إلى وجبة طعام مضيافة. بالطبع لغزة تقاليدها الخاصة للطعام، والذي يعتبر من الثقافات القديمة وكانت حلقة وصل بين آسيا وإفريقيا وأوروبا والجزيرة العربية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لقد كنت دائما آكل أفضل الطعام عندما كنت أدعى من أصدقائي الفلسطينيين، مهما كانت الظروف، لكن الآن الأمر يختلف.

أشهد أنه من قبل كان لا يمكن الحصول على بيض أو لحم دجاج في غزة. وبالطبع مضيفنا حاول أقصى جهده لكي نحصل على طعام متنوع، لكن مهما حاول فالصحون كانت فارغة. الأيام الأولى كان الفطور يتكون من بيضة وقليل من الجبن وشيئا من الطماطم والخيار. الآن فقط الزيتون.

في الأيام الأخيرة لنا في غزة دخلت بعض المساعدات من برنامج الغذاء العالمي: بسكويت يحتوي على سعرات حرارية عالية" كان مغلفا في علب زرقاء صغيرة وكان يوزع على الموظفين في المستشفى للعشاء والإفطار. لم يعد هناك خبز، ربما من حين إلى آخر كنا نأكل بعض الطماطم أو الزيتون. في وجبة الغداء كنا نحصل على الصحن اليومي الوحيد، والذي كان في البداية قطعة صغيرة من لحم الضأن المسلوق أو ساق الدجاج وربما بعض الخضار. لكن في الأيام الأخيرة كان الغداء عبارة عن طبق من الأرز المسلوق.

خلال الاسبوعين الاولين من الحرب تم اجراء اكثر من 50 عملية بتر في مستشفى الشفاء.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

سألت نفسي: كيف هو الوضع الغذائي في منازل الفلسطينيين العاديين في غزة الآن؟

كان الوضع صعباً جدا جدا، الناس لا يعملون، ومن طبيعة الحال ليست لديهم أموال. نقص الغذاء كان غير ثابت. مجرد إلقاء نظرة على الأسعار في السوق، قبل الحرب خمسة كيلو طماطم كانت بشيكل إسرائيلي. الآن كيلو طماطم أصبح ثمنه خمس شيكلات. لا أحد يستطيع تحمل ذلك. بغرفة الأطباء في المستشفى، كان الأطباء يائسين ومشوشين ولكن ليس على أنفسهم.

- نحن الأطباء دائما نستطيع أن نتدبر حالنا. لكن بالنسبة للعائلات الفقيرة التي لديها أطفال فالأمر صعب جدا. إنه الجوع، الجوع، الجوع. تقف الناس تقريبا ست ساعات في الطابور لتحصل على قليل من الخبز. لا يمكن الحصول على اللحم، وأصبح الماء أيضا قليلا. في بيتي عندي ماء لثلاثة أيام فقط.

الحصار الإسرائيلي ولا سيما إغلاق قطاع غزة، ترتب عليه عواقب خطيرة حتى على أقل الأشياء.

مكتبة الرمحي أحمد

أدى الحصار إلى زيادة واضحة في سوء التغذية المزمن لأطفال غزة. رئيس مركز تغذية الطفل التابع لجمعية أرض الإنسان في مدينة غزة الدكتور عدنان الوحيدي، أبلغ عن درجة خطيرة من سوء التغذية بين أطفال غزة. يقبل المركز فقط الأطفال دون سن الخامسة الذين يعانون من سوء التغذية. في عام 2008 عالجت ما يقرب من 8500 طفل يعانون من سوء التغذية في شمال قطاع غزة، في حين أن 8000 طفل تم علاجهم في مركز مماثل في مدينة رفح في الجنوب. في المجموع، ما يقرب من 17.000 طفل كانوا يعانون من سوء التغذية، أعطيت لهم المكملات الغذائية والمتابعة في غزة في عام 2008.

- كل أسبوع نتلقى 20-25 حالة جديدة، ونرى ما يقرب من 350 طفلاً في الأسبوع. كلهم تحت سن الخمس سنوات، وجميعهم يعانون من سوء التغذية. يقول نجاح زهور مدير التغذية في المركز: نعمل في هذا المركز مع الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية من الدرجة الثانية والثالثة."

- نزنهم، ونأخذعينات من الدم والبول. نصف الأطفال يعانون نسبيا من سوء التغذية، و 32 بالمئة يعانون من سوء التغذية من الدرجة الثانية، و 16 بالمئة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

من سوء التغذية الحاد. الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية الدرجة الثانية والثالثة نحولهم إلى وحدة التغذية. هنا يتناولون وجبة مغذية، وندرب الأمهات عن نوع وكيفية الطعام المغذي المتوازن الذي يمكن أن يقدّمنه لأطفالهن. كما القاعدة، يحصلون على اللحوم الطازجة والفاكهة والخضروات، ولكن من الصعب الآن بسبب الحصار.

أظهرت دراسات الدكتور الوحيدي ومساعديه أن هناك زيادة حادة في نسبة الأطفال الذين هم في سن أقل من ثلاث سنوات يعانون من سوء التغذية في قطاع غزة، وعدد الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية هو أعلى من أي وقت مضى إذ وصل إلى، 10.4 بالمئة. منذ عشر سنوات، كانت نسبة الأطفال الذين يعانون سوء التغذية أقل من نصف هذه النسبة. وهناك أيضا ازدياد خطير في نقص نموّ الأطفال الذي سببه سوء التغذية المزمن. واحد من أكبر مشاكل التغذية في قطاع غزة هو عدم وجود مصادر الأكل الطبيعية.

ليس بالإمكان زراعة الفواكه والخضراوات الضرورية المتنوعة التي يحتاجها الأطفال ليحصلوا على وجبة صحية متوازنة. تعتمد غزة اعتمادا كليا على استيراد الغذاء، لكن سوق المواد الغذائية محدود جدا، خاصة بعد الهجوم. عشرات الآلاف من الأسر في قطاع غزة ليس لديهم بديل غير المساعدات الانسانية للبقاء على قيد الحياة. واضاف قائلا "إذا استمر الحصار الإسرائيلي، لن يعود بمقدورنا تقديم المساعدات الغذائية لنغطي الاحتياجات الكافية الأطفال في غزة.عندها ستزداد أمراض الأطفال والوفيات، حينها لن يكون بمقدورنا مواجهة هذا الوضع.

سوء التغذية في غزة هو أيضا نتيجة لسياسة مخطط لها، وليس نتيجة كارثة طبيعية غير متنبأ بها. الطريقة نفسها التي يقتل ويجرح فيها الآلاف من جراء الأسلحة العسكرية الاسرائيلية، يجرح ويموت الفلسطينيون نتيجة القيود التي فرضتها إسرائيل على السكان المدنيين في قطاع غزة. بوجه عام، الحصار والقيود المفروضة على حرية الحركة أدّت إلى تزايد انعدام الأمن الغذائي بالنسبة للغالبية العظمى من سكان المنطقة. في نوفمبر تشرين الثاني 2008، دعت القاضية من جنوب افريقيا نافي بيلاي ومفوضية الأمم المتحدة السامية لحقوق الإنسان، إلى رفع فوري للحصار الإسرائيلي عن قطاع غزة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وأضافت "الحصار المستمر منذ أشهر قسرا، أخذ من 1.5 مليون فلسطيني من الرجال والنساء والأطفال أبسط حقوقهم الإنسانية. وهذا يتناقض بشكل مباشر مع القانون الدولي وحقوق الإنسان، ويجب أن يتوقّف الآن"

طلبت الأمم المتحدة من إسرائيل السماح الفوري بدخول بعض المعونات الضرورية للمواطنين في غزة كالمواد الغذائية والمساعدات الطبية والوقود بحيث يمكن تشغيل الكهرباء والمياه والخدمات الضرورية الأخرى. كما طلبت المفوضية السامية معبرا آمنا للمدنيين الذين يحتاجون العلاج أو التعليم أو من أجل غايات دينية.

وأضافت بيلاي يجب اتخاد قرارات حاسمة للحفاظ على الكرامة والرعاية الأساسية للسكان المدنيين، حيث الأطفال يشكّلون أكثر من النصف. فقط رفع كامل للحصار، يعقبه مساعدات انسانية قويّة هو الطريق الوحيد للتخفيف من المعاناة الإنسانية التي تظهر بوضوح اليوم في غزة. هذا ما أعلنته الأمم المتّحدة في 18 نوفمبر 2008. أي خمسة أسابيع قبل بدء القصف على غزة.

ولكن ما تزال كل من بيلاي وبقية منظومة الأمم المتحدة تتحدث للآذان الصمّاء. حتى تموز/يوليه 2008 كان قطاع غزة مغلقا تماما، في خلال شهر نوفمبر/تشرين الثاني فتحت المعابر الحدودية لخمسة أيام فقط. في 4 ديسمبر 2008 أدخلت بعض المعونات، ولم تخزّن المواد الغذائية، وإنما ذهبت مباشرة إلى مكاتب التوزيع التابعة للأنوروا. في اليوم التالي أبلغت ال بي بي سي أن مخازن الأمم المتحدة في غزة فارغة. مدير الأنوروا جون غينغ" أكد أن المواطنين في غزة يموتون جوعا.

أصبحت الحياة اليومية صراعاً من أجل البقاء. الناس يتضورون جوعا. كل شيء مفقود في قطاع غزة بما في ذلك الطعام. نفد لدينا كلّ شيء منذ أيام عدّة. يزداد الوضع سوءا واليأس يتفاقم. نفتّش بيأس على سبب منطقي يعطينا الأمل. هذا ما قاله جون غينغ لل بي بي سي. شاهدنا العديد من النساء الحوامل المصابات بجراح خطيرة في مستشفى الشفاء. الحوامل والأطفال الحديثي الولادة بالطبع من المجموعة التي تتأثر كثيرا في الحرب. النقص في الزيارات الروتينية للكشف على الحوامل، والمساعدة على الولادة والخدمات الصحية تعني الفرق بين الحياة والموت للمرأة الحامل، وبالطبع للجنين أو للطفل الحديث

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الولادة. كانت أوضاع الحوامل صعبة قبل بدء عملية الرصاص المسكوب. سيصبح أمرهن أسوأ الآن. وفقا لصندوق الأمم المتحدة للسكان، هناك من وقت إلى آخر أكثر من 40000 إمرأة حامل في غزة، ويوميا تلد 170 إمرأة. وعادة تجرى حوالي 30 عملية قيصرية كل يوم. الهجوم الإسرائيلي، صعّب على الكثير من الحوامل الوصول إلى المستشفى، والعديد منهن أضطررن أن يلدن في البيت أو في بعض المخابئ التي وجدنها ليتجنّبن القصف. حتى اللواتي وصلن إلى المستشفى، كنّ في خطر، لأن المستشفيات كانت مليئة بجرحى الحرب والعديد من أقسام الولادة حوّلت إلى وحدات لإجراء العمليات الجراحية. الاجهاد والصدمات وسوء التغذية تسبّب مضاعفات تهدّد حياة النساء الحوامل في غزّة.

وأشار صندوق الأمم المتحدة للسكان إلى تقارير عن حالات الولادة المبكرة والولادة التي تحصل بسبب الجزع والصدمات تحت القصف المستمر، أو موت الأطفال الحديثي الولادة بردا، بسبب انقطاع الكهرباء وعدم وجود أغطية كافية. لا أحد يعرف على وجه اليقين كم هو عدد وفيات الأجنة تحت الولادة أو الاجهاض أوتعقيدات الولادة التي سببتها الحرب. هذا الحصار المنهج سياسيا على غزة، من الصعب فهمه، غير أنه محاولة لتجويع الناس في غزة، ولجعلهم يستسلمون أو ليتخلّوا عن زعمائهم السياسيين الذين انتخبوهم حماس سياسة على هذا النحو، يمكننا أن نقول عنها إنها "إرهاب دولة"

يعرّف إرهاب الدولة كإرهاب مدعوم من الحكومة. كما هو الحال عموما مع الإرهاب، فإرهاب الدولة يقوم بالهجمات المتعمّدة على المدنيين لخلق الخوف والرعب وإذلالهم وإجبارهم ليخضعوا لأهدافه السياسية أو الدينية. مصطلح إرهاب الدولة ليس لديه تعريف ثابت مثلا:

1- التهديد باستعمال العنف.

2- هدف سياسي لتغيير الوضع القائم.

3- نشر الخوف والذعر بأعمال مثيرة.

4- أعمال محدّدة لضرب المدنيين.

كل من الولايات المتحدة واسرائيل متهمة بإرهاب دولة. وزراء الخارجية الاسرائيلية والعاملون في السياسة الخارجية الإسرائيلية والأمريكية يعتبرون أن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الحصار والهجمات العسكرية المباشرة على غزة ما هي إلا "دفاع عن النفس ، في حين أن الصواريخ الفلسطينية التي تطلق من غزة ضد إسرائيل، تفسر بأنها عمل "إرهابي . المبدأ نفسه الذي تتضامن فيه إسرائيل والولايات المتحدة "نحن ندافع عن أنفسنا ضدّ الهجمات الإسرائيلية"، يجيبك الفلسطينيون.

عندما أجرت الـ بي بي سي مقابلة مع القيادي في حركة حماس والطبيب الجراح محمود الزهار في غزة في الأيام الأولى من شهر ديسمبر 2008، أكد مجددا أن "السلام هو في يد إسرائيل": "السلام يتوقف على إسرائيل. إذا فعلوا ما اتفقنا على أن يفعلوه من قبل، سيكون السلام. يجب عليهم أن يوقفوا كل أشكال العدوان ضد الشعب الفلسطيني وأن يفتحوا جميع المعابر الحدودية في قطاع غزة لتمرير حركة المرور التجارية الحرة. يجب علينا أن ندافع عن أنفسنا ضد العدوان الإسرائيلي بكل الوسائل، كما اعتدنا أن نفعل . يعتبر الفلسطينيون أنّ الحصار المفروض على غزة، هو عمل حربي مع نتائج مدمّرة تطال كلّ شرائح المجتمع الفلسطيني والحياة اليومية. الحصار الاسرائيلي لا يؤثر فقط على حزب سياسي واحد أو على جماعة واحدة من المعارضة المسلحة، لكنه بمثابة عقاب جماعي. كل من 194 دولة صدّقت على (اتفاقية جنيف الرابعة) والمقرة في 1949، والتي تشمل حماية المدنيين عندما يكونون تحت سيطرة"العدو ، أو في أيدي العدو ، كما هو الحال عندما تحتل البلاد قوة أجنبية. وفقا للاتفاقية، لا يمكن لأي فرد أن يعاقب أو يذلّ على عمل لم يرتكبه شخصيا.

صدّقت إسرائيل على الاتفاقية في ديسمبر 1949، مع الحد الأدنى من التحفظات. يريدون استخدام نجمة داوود رمزا وليس الصليب الأحمر. واللجنة الدولية للصليب الأحمر أكدت أن الدول التي تكون في صراع، تستعمل غالباً أساليب مهينة لترويع السكان المدنيين من أجل منع وقوع أعمال عدائية. هذا الإجراء يشمل المدنيين والأبرياء على حدّ سواء، ويعتبر نقيضا للإنسانية والعدالة.

البروتوكول الإضافي الثاني لعام 1977 ينص بوضوح على منع العقاب الجماعي، لكن البروتوكول الإضافي صدّق عليه من عدد قليل من الدول. وفقا للقانون الدولي، إن الحصار على غزة هو عقاب جماعي، ولم يتّخذ أي عقاب ضد اسرائيل وقادتها السياسيين. وينطبق الشيء نفسه على إنشاء المستعمرات

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

وتأهيلها بالسكان في الأراضي المحتلة. المستعمرات الإسرائيلية في الضفة الغربية أيضا تخالف بشكل واضح اتفاقية جنيف الرابعة.

انتهكت إسرائيل 28 قراراً من قرارات مجلس الأمن. ومثل هذه القرارات ملزمة لجميع الدول الأعضاء. وانتهكت ما يقرب من مئة قرار للجمعية العامة للأمم المتحدة. ومثل هذه القرارات ليست ملزمة، ولكن يجب أن ينظر إليها على أنها إرادة المجتمع الدولي. انتهكت إسرائيل أيضا قرارات محكمة العدل الدولية في عام 2004 بشكل واضح. قرّرت المحكمة بأغلبية 14 مقابل 1 بأن الجدار الذي تبنيه إسرائيل على طول الضفة الغربية، معارض لحقوق الإنسان، وطلبت المحكمة من الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن ايجاد تدابير " لإيقاف هذا الوضع غير الشرعي .

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تبديل النوبات

إيريك فوسا

طا طاطاطاطاطاطاطا! تعرفت على هذا الصوت، إنه صوت رشاش. كان ذلك صباح العاشر من يناير، عندما استيقظت لأول مرة على هذا الصوت الذي طغى على الأصوات العادية المألوفة، كصوت الطيارة من غير طيار وصوت الهليوكبتر ومدافع الزوارق البحرية وصوت سقوط القنابل. كان الأمر يبدو وكأن كل آلات الأوركسترا تلعب سمفونية القدر بكل قوة.

ظننت للوهلة الأولى أننا محاصرون، وأن الحرب دخلت إلى المدينة. ويمكن ألا نخرج قبل انتهاء الهجوم. ربّما أن الجنود الإسرائيليين قد وصلوا إلى المستشفى. لم يكونوا بعيدين، وكنت متكلا على الحظ. كان الاجتياح الإسرائيلي البري قد قسم غزة إلى قسمين عند نيتزريم، لا أحد يمكن أن يسافر بين رفح وغزة من غير تصريح من السلطات الإسرائيلية. من قبل خططت أنا ومادس للسفر يوم الخميس 8 يناير. صباح الأربعاء 7 يناير اتصل بنا يون إيفند من العريش، الذي بدوره تلقى اتصالا من مستشار وزارة الصحة من مكتبنا التمثيلي في رام الله.

يقول وينسلاند بأن إسرائيل ستسمح للجنة الدولية للصليب الأحمر أن ترسل قافلة من المرضى اليوم. ينصح وينسلاند بشدة أن تكون أنت ومادس في هذه القافلة. لقد أخذ تصريحا من الإسرائيليين بأن يُسمح لكما بالخروج. أظن أنكما ستسافران الآن، بما أن داغفين دخل وفريق الصليب الأحمر موجود.

كان من الواضح أن يون ايفند يريدنا أن نخرج من هناك. كنت مستعدا أن أتبع هذا التحدي مع أنه كان يوما أبكر مما هو مخطط له. القلق الوحيد الذي كان ينتابني هو أن داغفين وصل إلى هنا من يوم فقط، ولم تتح لي الفرصة لأن أقدّمه بشكل جيّد للجميع هنا. هو سيكون الممثل الوحيد لنوروواك في المستشفى إلى أن يصل الفريق الجراحي في نهاية الأسبوع. اتصلت بمادس وداغفين واجتمعنا في الغرفة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قلت بأن يون ايفند يريدنا أن نسافر مع القافلة التي ستخرج اليوم. كان داغفين متسمرا في مكانه، أما مادس فشحب لونه وظهرت عليه الجدية.

- لن أسافر، لا يمكنني أن أترك الفلسطينيين الآن.

- لكن فريق الصليب الأحمر سيدخل مصحوبا بالجراحين وفريق التخدير، وبالمناسبة العديد من فرق الأطباء في طريقهم إلى غزة.

قال مادس:

- لكن فريق الصليب الأحمر يرفض أن يتولّى دورنا في كتابة التقارير، ولن يخرجوا بأي تصريح إلى جريدة أو وسيلة إعلام.

وعلاوة على ذلك، لم تتح لنا الفرصة لتقديم داغفين وإطلاعه على الأشياء بشكل جيد.

قلت:

- ما تقوله صحيح.

وتوجهت بكلامي إلى داغفين سائلا إياه:

- ماذا ستفعل إن غادرنا اليوم؟

أجاب:

- سأتدبر أمري جيدا.

لكنه لم يكن يبدو مقتنعا.

قلت:

- يجب أن نجري اجتماعا عبر الهاتف مع يون ايفند.

هذا وضع خطير، لا يمكنني أن أسافر من غير مادس. اتصل يون إيفند وأصر على أن يكون الرحيل مع القافلة التي ستغادر اليوم.

قال مادس بأنه لا يستطيع السفر، الوضع مضطرب تماما. فطلبت من يون ايفند أن يتصل بنا بعد نصف ساعة.

في النقاش السابق، قال مادس بأنه لا يريد أن يخذل الفلسطينيين، ويريد أن يأخذ وقتا أطول لإطلاع داغفين على الأمور. وكان يفضل أن ترسل نورواك فريقا من الجراحين وأطباء التخدير قبل أن نغادر غزة. سيصل الفريق الجديد إلى

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مصر يوم الخميس، وسيكون في غزة على الأقل يوم السبت. أدركت أن مادس لن يتزحزح عن موقفه، كما أنني كنت متأكدا بأنه سيكون هنالك ترتيب للمزيد من القوافل في الأيام القادمة، لذلك كنت أؤيد مادس بعدم السفر يوم الأربعاء. لكننا اتفقنا على أن نسافر مع القافلة التالية. حينها سيتعرّف داغفين أكثر إلى المستشفى. وسيكون الفريق الطبي في طريقه إلينا.

لم يستحسن يون ايفند اقتراحنا، كان يعتقد بأننا نسيطر على دوره كمنسق. كان قلقا على سلامتنا ويريدنا أن نخرج بأسرع وقت ممكن. لكن، بالنسبة لي، لم يكن لديّ خيار. كنا في وضع يوجب علينا أنا ومادس وداغفين أن نكون متفقين. يون أيفند في ذلك الوقت كان على حق لأنه يتحمل المسؤولية. وفي الظروف العادية، كان من الواجب اتباع أوامره. عندما ألغي الرحيل يوم الخميس، تحدّثت مع تور فيسلاند في رام الله. يوم الجمعة أعلن خطته لإخراجنا من غزة.

قال تور فيسلاند:

- تحدثت مع السلطات الإسرائيلية، وبعد قليل من النقاش، هم مستعدون للسماح لكم بالخروج عبر معبر إيريز، ومنه إلى إسرائيل. من المؤكد أنهم سعيدون جدا بأنكم ستغادرون المنطقة.

سألت:

- كيف يمكننا الوصول سالمين إلى إيريز؟
- سيكون حتما عبر خطوط التماس والمناطق الأكثر تعرضا للقصف في غزة. وبالتالي ليست لنا أية ضمانة بأن لا نصاب بأي قذيفة على الطريق.

أجاب وينسلاند:

- سأطلب من القوات الدولية نقلكم بسيارة مصفحة. وبعدها ستنقلكم سيارة السفارة إلى مطار بن غوريون ومنه إلى الطائرة.
- حسنا، ولكن أعتقد أننا سنحاول الخروج عبر رفح.
- لذا علينا أن نهرب، كِنت في سيارة السفارة الأميركية إلى بن غوريون، ويرافقك إلى الطائرة.
- طيب، لكني أعتقد أننا سوف نحاول الخروج من معبر رفح.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فكرة الخروج عبر إسرائيل لم تكن فكرة جيدة. كان علينا أن نضع في حساباتنا أن الجنود الإسرائيليين سيفتشون كل المعدات التي في حوزتنا. ونخشى أن يصادروها، بعد أن كنا شهودا على فظائع وانتهاكات للقانون الدولي في الأسبوعين الماضيين في قطاع غزة. وكان الأمر غير ممتع أن نسافر تحت رحمة القتلة. بكل صراحة لم تكن لي رغبة في رؤية أي جندي إسرائيلي لمدة من الزمن.

تحدثت مع صديقتي نينا ومع أولادي، هيلدا وإيفند على الهاتف ليلة الجمعة وطمأنتهم. كانوا قلقي البال على أننا لن نخرج من هناك يوم الخميس. أخبرتهم بأننا لا زلنا نشعر بالأمان في المستشفى، وأننا لن نحاول أن نخرج من دون أن يؤكد كلّ من الصليب الأحمر والحكومة النرويجية سلامتنا. لكن بداخلي كنت أعرف أنه ليس هناك أحد آمن هنا في أي مكان في قطاع غزة. لكن داخل أبواب المستشفى كان الوضع أقل خطورة.

في الوقت نفسه، بدأت أنا ومادس نتأثر من الوضع. لم يحلق مادس ذقنه منذ ليلة رأس السنة. وكان يبدو نحيلا. نظرت إلى نفسي في المرآة، فوجدت نفسي أنني أصبحت نحيلا أيضا. أصبحنا سريعي الغضب وفي بعض الحالات كنا نبكي. لكن مازالت روح النكتة تتابنا. أصبح مزاجنا يعتل شيئا فشيئا. الشيء الوحيد الذي لم يتغير، هو اعتناؤنا ببعضها. في الطريق إلى غزة اتفقنا أن نبقى مع بعضنا البعض بصرف النظر عما يحصل. الشعور بالأمان كان يصعد ويهبط، إلا أننا حافظنا على العهد.

أتفهم شعور مادس بأن مغادرتنا المبكرة تعني خذلاناً للفلسطينيين، لكنني لست متفقا معه؛ لأنني لا أراها مشكلة بالنسبة للوضع الذي نحن فيه. مررنا نحن الاثنين بهذه الحالة ونعرف معنى الشعور بالخذلان. يمكن أن يظل هذا الإحساس بدواخلنا فترة طويلة حتى بعد وصولنا إلى الوطن. لكن من المهم أن نقتنع معاً أنّ وجودنا لم يعد ضرورياً في غزة. كما أن زملاءنا الفلسطينيين لم يسهّلوا الأمر علينا. أشاروا إلينا بوضوح بأن نبقى هناك. أصبحنا جزءا من الشلة. لكن، طالما سيأتي أطباء جدد عندهم المؤهلات نفسها مثلنا، لايوجد هناك سبب منطقي لبقائنا.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اتفقنا صباح السبت على أن نسافر. بدأنا بالتحضير للرحيل، لكن الضجة التي سمعناها من خارج النوافذ تنبؤنا بأن القصف مازال مستمرا في جميع أنحاء المدينة. يظهر أنه لا يمكننا السفر اليوم. كان مستحيلا النوم الساعة الثامنة في تلك الأجواء من الضوضاء. نظرت إلى داخل الغرفة، كان مادس مستلقيا على السرير، لكن داغفين نهض ورتب سريره. كانت الأسرة عريضة وحادة الأطراف يمكن لرقيب أن يحسدنا عليها. وضع داغفين نظاما جديدا في الغرفة مستوحى من خلفيته العسكرية،. بدلا من تلك السجادة السخيفة التي كانت معلقة أمام النافذة لالتقاط الشظايا، وضع داغفين شريفاً لاصقا عريضاً على النوافذ العريض، حسب إعتقاده أن ذلك أكثر فعالية ضد الشظايا. أصبح أكثر شعبية من بين الآخرين في الغرفة على ما أظن، فقد حرر سجادة الصوف التي كنا نعلقها على النافذة. كان مادس أيضا على وشك النهوض.

- سأمكث هنا وأكتب مقالة لمجلة "ذو لانست" سيكون الأمر جيدا إن أرسلناها قبل أن نرحل. يمكن أن نرحل اليوم، هذا كل ما نعرفه.

أجبته:

- متفق معك، وسأحضر المزيد من المعلومات.

كنت أتوق للصعود إلى المستشفى لأجمع بعض المعلومات عن الإصابات التي حصلت خلال هذين الأسبوعين من عمر الحرب. ذلك الشاب الصغير المصاب بجرح كبير في صدره والذي سبق وأن عاينته مع الدكتور عبدالله، لا يزال في مركز العناية الفائقة. كنت أتساءل إن كان الدكتور عبد الله قد سجله للدخول لغرفة العمليات، بحيث يمكننا محاولة تغطية عظم الصدر بالعضلات. وفي حال سنجري له العملية، يجب أن نبدأ في وقت مبكر.

اتصلت هاتفيا بماريتا تاكسدال، المنسقة الجديدة في العريش. بينما كنا نعمل في الشفاء، شكلت نورواك فريقا جديدا مع الجراح يوهانس براتبو، ونجيب رمزي، وجراح الأعصاب، وطبيب التخدير محمد أبو عرب. أخبرتني ماريتا بأن يوهانس ومحمد جاهزان للدخول، لكن وضعية نجيب مازالت غير واضحة، لأنه يحمل جواز سفر بلجيكي. بدأت بزيارة المرضى مع الدكتور صبحي.

قال:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- لا بد لي من إخراج بعض المرضى. المستشفى مليء تماما، وسيأتي لا محالة كثيرون اليوم. ليست لدي فكرة كيف سأتدبر أمرهم.

كان على حق. المستشفى مليء بالمرضى الذين ستجرى لهم العمليات الجراحية. كان الفرع الطبي مليئا بالمرضى الذين يعانون من إصابات عقب القصف. وكانت كل أجهزة التنفس الطبيعي قيد الاستعمال. ينبغي القيام بعمل شيء لتوفير الأماكن للمرضى الجدد الذين سيأتون خلال هذا النهار. بالتأكيد ستقوم إدارة المستشفى والصليب الأحمر بأقصى الجهد لإخلاء بعض المرضى إلى مصر. مع أن المعارك مازالت ساخنة حول المدينة، ربما سنخرج في قافلة من قطاع غزة على كل الأحوال.

بدأنا بالزيارات، وبعد بضع دقائق رن هاتفي، فخرجت من غرفة المريض. لقد كانت جريدة "افتنبوستن" النرويجية. أدركت أن هناك العديد من الصحفيين في العريش بانتظارنا منذ يوم الخميس.

- أجبته، تجري اليوم معارك عنيفة. من المستحيل القول ما إذا كنا سنسافر اليوم.
- حسنا، لكن إذا كانت قافلة مع سيارات إسعاف، هل ستذهبون معها؟
- نعم، أتوقع ذلك.

كان من المهم إبلاغ السلطات النرويجية؛ لذلك اتصلت بتور وينسلاند في رام الله، وأخبرته بأننا سنحاول الخروج مع قافلة إذا كان الصليب الأحمر الدولي يستطيع أن يأخذ تصريحا بإخلاء بعض المصابين. أكد لي وينسلاند بأنه سيبلغ السلطات الإسرائيلية بأننا سنكون مع القافلة إن تم ترتيبها.

بعد انتهاء زياراتنا، ذهبنا إلى مبنى الإدارة. في مكتب مدير المستشفى كان يجلس ممثلو اللجنة الدولية للصليب الأحمر. جميعهم كانوا مشغولين. الدكتور محمد يتكلم على الهاتف، وفي الوقت نفسه، ينظر إلى لائحة بأسماء المرضى مع ممثلي الصليب الأحمر. عندما سألت ما إذا كانت ستخرج قافلة اليوم. أجابوا بأنهم لم يسمعوا شيئا من الجيش الإسرائيلي حتى الآن.

عدت إلى قسم الجراحة. يقف داغفين خارج غرفة الطوارئ مع موظفي الإسعاف. اتفقنا على أن يتصل بي في حالة سمع أي شيء عن قافلة المرضى.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لقد حان الوقت لمعرفة أحوال المرضى الذين عالجناهم. المعلومات من المستشفى، خلال الأسبوعين الأولين من الحرب، كانت ناقصة. لدينا قدر كبير من المعلومات عن المستشفى نفسها، وقد قمنا بعدّ المرضى الذين أجريت لهم العمليات. لكن لم نكن نعلم نوع الإصابات والعمليات لكل مريض. دفتر سجل العمليات عاد إلى غرفة العمليات. عندما قمنا بزيارتنا قبل يوم لاحظنا بأن نوع العمليات مكتوب باللغة الإنجليزية، واسم وتاريخ المريض باللغة العربية. صعدت مرة أخرى إلى غرفة العمليات لأرى دفتر التسجيل مرة أخرى.

دفتر التسجيل كان موجودا على مكتب رئيس المرضين. بدأت بعدّ العمليات التي أجريت من 28 ديسمبر/كانون الأول 2008. في ملاحظاتي كنت أصنف نوع العمليات. إستغرق الأمر بضع ساعات لقراءة الخط الإنجليزي وبعض التواريخ التي كانت مكتوبة باللغة العربية. شكرت نفسي لأني محظوظ وكنت أعرف الأرقام العربية وبعض الحروف. الساعة الثانية عشرة ظهرا، كان عليّ أن أتوقف عن العد لإجراء مقابلة مع التلفزيون الإيراني. بريس تي في . قبل أن أجري مكالمة مرة أخرى مع ماريتا تاكسدال، لأسمع منها عن أحوال الفريق القادم عبر الحدود. قالت لي بأنهم يقفون على الحدود ومازالوا يفاوضون. يعتقد السفير أنهم سيدخلون، يوهانس ومحمد. ونجيب سوف يتبعهم لا محالة في اليوم التالي. كانت ماريتا على علم بأن الصليب الأحمر الدولي يجري مفاوضات لإخراج قافلة. لكنها لم تكن على علم بأية نتيجة.

انتهيت من العد الساعة الثانية عشرة والنصف، وحصلت على النتيجة الآتية:

43 عملية كسور.

53 عملية بتر.

20 عملية أوعية دموية.

4 عمليات لجراحة الصدر.

49 عملية لجراحة المعدة.

36 عملية لجراحة الدماغ.

65 عملية متفرقة.

المجموع من 28-12-2008 إلى 10-1-2009، 270 عملية.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

270 عملية في أربعة عشرة يوما، أي بمعدل عشرين عملية في اليوم. عدد العمليات المسجلة باليوم تتراوح من ستة في واحد وثلاثين ديسمبر إلى أربعة وأربعين في الرابع من يناير. عندما قصف سوق الخضار.

عندما بدأت الحرب في السابع والعشرين من ديسمبر، لم يكن بالمقدور تسجيل أي شيء، عشرون عملية في اليوم/ موزعة على ست غرف عمليات، لم يكن الرقم كبيراً، لكن المشكلة أن المرضى يأتون دفعات على شكل أمواج. يمكن أن يأتي أربعون مريضاً في وقت واحد. ويمكن أيضا أن يستغرق الأمر ساعات حتى نرى مريضا جديدا. على قدر ما نعرف أن ستين بالمئة من المرضى الذين قدموا إلى المستشفى لم تجرَ لهم عمليات جراحية. لكن عولجوا في مركز استقبال الطوارئ وغادروا، وبعض المرضى ماتوا فيه قبل أن يصلوا إلى غرفة العمليات.

كان يأتي حوالي مائة مريض كل يوم بجروح صغيرة وكبيرة في الوقت الذي كنا فيه في مستشفى الشفاء. وضع مادس الأرقام في الحال في المقالة. في غرفة النوم كانت حقيبتي جاهزة على السرير، حزمت كل أمتعتي، هكذا لا ينقصني إلا أن أحضر الحقيبة عندما يأتينا الخبر بالرحيل.

إذا جاء الأمر بالإخلاء، لن يكون لدينا وقت لجمع الأمتعة. عادة كانت إسرائيل تعطي وقتا محددا للقوافل. يمكن أن يكون الوقت ضيقاً جدا، من تجربتنا أنه من الضروري أن نكون جاهزين للقيام بالجزء المهم من عملنا، وهو إخراج المرضى من المستشفى وإدخالهم إلى سيارات الإسعاف. من الأرجح أن يكون لدينا جرحى بحالات جد صعبة، ومن الضروري ألاّ نؤخّر عملية النقل. ذهبت مجددا إلى مكتب كبير الأطباء.

– مرحبا دكتور محمد، هل سيكون هناك إجلاء للمرضى؟

رفع الدكتور أحمد بصره من الأوراق التي كان يقرأها وقال:

– لم تصلنا أي معلومات حتى الآن.

تجاوزت الساعة الثالثة والنصف من بعد الظهر، وبدأت فرص القافلة تقلّ شيئا فشيئا. على الدرج خارج مبنى الإدارة كان رئيس قسم الجراحة في مستشفى غزة الأوروبي، الدكتور إلياس ارتين، يقف جاهزا وفي يده حقيبته.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قلت:

- إذا، ستحاول أنت أيضا من جديد.

أجاب:

كيف حالك إيريك؟ آمل أن أرجع إلى عملي في وقت قريب.

كان الدكتور إلياس في زيارة لغزة في بداية الأسبوع. يوم الخميس كان قد أتى مع القافلة ليذهب إلى بيته في خان يونس. جلسنا في سيارة الإسعاف نفسها، وشاركنا التجربة، كيف أجبرنا على العودة بقوة الرشاشات. لقد انتظر لمدة يومين ويأمل بأن يغادر الآن. وقلت موضحا:

- إلياس، لقد أرسلت نورواك اليوم فريقا جديدا، مؤلفا من طبيب جراح وطبيب تخدير، وغدا سيأتي جراح الأعصاب البلجيكي. من الممكن أن يذهبوا إلى مستشفى غزة الأوروبي إن كان الطريق مقطوعا؟

أجاب:

- لا نحتاج إلى جراحين أجانب، يأتينا ما يقارب من سبعة إلى ثمانية مرضى يوميا، ونستطيع أن نتدبر ذلك بأنفسنا.

كان من الواضح أنه لا يريد المزيد من الأطباء في المستشفى.

أجبته: نحن لا نرسلهم للعمل في مستشفى غزة الأوروبي، لكن سيكون أفضل أن يكونوا هناك حتى يتم فتح الطريق، في حالة لم يستطيعوا السير شمالا. مستشفى غزة الأوروبي،على الأرجح هو أكثر الأماكن أمنا في جنوب قطاع غزة.

قال:

- نعم، بالطبع نحن نرحب بهم.، وكان من الواضح أنه تنفس الصعداء، لأنهم لن يمكثوا هناك طويلا.

عكست ردة فعله مشكلة كانت القلائل من المنظمات الدولية تفكر بها. النقص في المواد الغذائية أيضا أصبح مشكلة الآن في المستشفيات. جميع العاملين في مجال المعونة الدولية يعاملون كضيوف، يجب أن يكون لهم مكان للسكن، وأن يقدم لهم أفضل الطعام. وهذا كان من أهم الأسباب التي كنت أقصدها أنا ومادس،

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يجب علينا أن نرحل عندما يصل الفريق الجراحي وأطباء التخدير إلى غزة. هناك خيط رفيع بين أن يكون المرء مفيدا أو أن يكون عبئا.

كنا واقفين على الدرج وننظر إلى محيط المستشفى. حينها صعد الدرج المصوّر السينمائي أشرف مشهراوي. أشرف شقيق محمود، الذي قتل مع ابن عمه أحمد بينما كانا يلعبان على سطح منزل أشرف.

قال أشرف بجدية:

- مرحبا دكتور إيريك، عندي بعض المواد للدكتور مادس. هل تعرف كيف يمكنني العثور عليه؟

كنت أعرف أنه كان معه بعض الشظايا وقطع وأجزاء من جهاز تحكم القنبلة التي قتلت الطفلين. لقد اتفق مع مادس بأننا سنأخذ هذه الأجزاء معنا لفحصها في المختبرات بأوروبا. كان مادس ما يزال يكتب. أحد الإجراءات الأمنية لسلامتنا ألا نذكر لأي أحد خارج المستشفى في أي مبنى في المستشفى نسكن. كان الوضع حساسا بحيث لا يمكنني أن آخذ أشرف إلى مادس. أحاول الاتصال بمادس عبر الجوال، لكن الشبكة كانت معطلة.

- لا أعرف أين مادس الآن، إنه مشغول، لكن يمكنني أن أستلم الطرد نيابة عنه.

- لا، يجب أن أسلمه الطرد شخصيا.

- حاول أن يتصل بمادس على الجوال، لكن لم يتمكن من مكالمته.

قلت له:

- سأحاول العثور عليه.

كان داغفين يقف خارج مركز الطوارئ. طلبت منه أن يذهب إلى مسكننا، ويقول لمادس بأن يأتي في الحال إلى مبنى الإدارة ليستلم الطرد. أخبرت أشرف بأن مادس سيأتي في الحال، لكن بعد عشرين دقيقة مادس لم يصل. وما تزال تغطية الاتصالات معطلة. يظهر أن الإسرائيليين قد أقفلوا شبكة الاتصالات. بدأ أشرف يفقد صبره، ولكن مع ذلك لم يرد أن يسلمني الطرد.

- حسنا، سوف أذهب وأحضره بنفسي.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

هرولت إلى مسكننا، وجدت مادس منهمكا بكتابة المقال.

يجب أن ينتهي المقال قبل أن نغادر. وأنه لا يستطيع الذهاب إلى أشرف.

قال مادس:

- يمكنه الانتظار.

اكتشفت أنني لم أتناول الفطور ولا حتى الغداء. كنت أتضوّر من الجوع. فتحت الثلاجة التي كانت تقريبا فارغة. كانت علبة من التونة على طاولة المطبخ. فتحتها وأكلت محتواها.

عدت إلى مبنى الإدارة. كان أشرف ما يزال واقفا في الخارج، لكن الدكتور إلياس أرتين لم يكن موجودا. بدأت أشك في أن يكون هنالك قافلة اليوم. ذهبت إلى مكتب المدير وسألته، إن كانت هناك قافلة اليوم أم لا.

أجاب الدكتور محمد:

- أين كنت؟ أخبرتهم عن الأمر لقد أعطتنا إسرائيل مدة زمنية قصيرة. يجب على القافلة أن تغادر بعد ثلاثين دقيقة.

- ثلاثون دقيقة! لم أكن أعتقد أن باستطاعتنا الرحيل.

خارج المكتب التقيت بأشرف.

قلت:

- انتظر دقائق، سيأتي مادس. وهرولت مرة أخرى إلى المنزل، هناك كان مادس يجلس أمام جهاز الحاسوب.

- مادس يجب أن نغادر.

- جيد جدا، المقالة في طريقها الآن، وضغط على زر الإرسال.

- لم أهيئ حقيبة ملابسي.

قلت:

- إذا، فليس عندك الوقت لفعل ذلك. تذكر أن أشرف يقف على الدرج أمام مكتب المدير.

- ودعت داغفين والآخرين في المسكن.

- مع السلامة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أجابوا:

- نأمل أن تعبروا الحدود بأمان.

أمسكت الحقيبة وأسرعت إلى المستشفى وإلى قسم العناية المركزة. هناك كان يجلس رئيس القسم الدكتور خليل النخالة ويوزع المرضى على الفرق التي سترافق القافلة. أعطاني سجل المريض.

- هذا المريض الذي ستعتني به.

قدم نحوي ممرض وقال:

- الدكتور إريك، سوف تكون برفقتي. كنت بانتظارك. يجب أن نحضر مريضنا الآن.

- يجب أن آخذ معي كل الأدوية اللازمة، وذهبت إلى طاولة صغيرة عند مدخل غرفة العناية الفائقة، حيث كانت جميع العقاقير.

في المرة الماضية كان مريضي مستيقظا تماما قبل ذهابنا، و كان بحاجة إلى الكثير من المهدئات. سأحاول أن أتجنب مثل هذه الحالة مجددا. ساعدني الممرض بسحب الكيتامين والديازيبام في الحقن وتخفيفها بالمياه المالحة، حتى نتمكن من إعطاء جرعات صغيرة. أحضرت مجموعتين من الحقن مع كل من الأدوية.

- يرقد المريض في غرفة الإفاقة بجانب غرفة العمليات.

مشينا على الدرج، خارجا، كانت تقف إمرأة، في الثلاثينيات بسترة تحمل شعار الصليب الأحمر، وشاب يحمل كاميرا التصوير.

سألت:

- هل أنت الدكتور إيريك؟

- نعم.

- حسنا، هل يمكنك أن تضع علامة الصليب الأحمر وتذهب لإجراء عملية لمريض ريثما نحن نصورك؟

- ماذا؟ سآخذ معي مريضاً من سيارة الإسعاف خلال ربع ساعة، ولا يمكنني أن أجري عملية لأحد الآن.

- لكننا نحتاج إلى إثبات أنك جراح لكي يمكنك العمل عندنا في سيارة الإسعاف.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كان من الواضح أن اللجنة الدولية للصليب الأحمر تخشى أن يشتبه به بأنها تهرب الناس الذين هم ليسوا من العاملين في مجال الصحة بسيارة الإسعاف.

- يمكنك أن تصوريني عندما نقوم بتجهيز المريض. وقتنا ضيق للغاية.

كان الوضع سخيفا.

كانت المريضة امرأة في العشرينيات أجريت لها عملية بسبب شظية مرت في تجويف الصدر وتجويف البطن.

أصابت شظية أيضا ذراعها الأيمن الذي كان مكسورا. كما أنها تعاني من إصابة في الرأس، ولا تتنفس طبيعيا. بل تحت التنفس الصناعي. أنبوب التصريف وضع في تجويف الصدر، وأجريت لها عملية للذراع اليوم السابق. سلمت على والدتها التي كانت تقف بجانب السرير.

قالت الأم:

- كانت في البيت عندما قُصف.

- كيف ستكون حالها؟

قلت محاولا أن أهدئ من روعها:

- سترجع إليك ابنتك سالمة.

أتى الممرض بجهاز التنفس النقال. تفحصت المعطيات التي كانت في جهاز التنفس بجانب سريرها. فوجدت أنها بحاجة إلى أربعين بالمئة من الأوكسجين كي تحصل على القدر الكافي منه في الدم. وهذا يدل على أن وظائف الرئتين كانت تعمل بشكل عادي. ولم يكن هناك مخاطرة كبيرة في حال طرأ عطل ما على جهاز التنفس في الطريق. ضبطت جهاز التنفس النقال بالمعطيات نفسها.

طوال الوقت كان فريق الصليب الأحمر يصور ما كنا نفعله. الدقائق تمر. بدأت أقلق بشأن ما إذا كنا نستطيع فعل ذلك. في النهاية تمكنا من وضع المريضة على الحمالة، وتفحصت بأن كل شيء يعمل كما يجب. وضعت حقيبتي على الحمالة مع حقيبة المريضة وجررنا الحمالة إلى المصعد. ضغط الممرّض على زر المصعد. لم يحدث شيء. يظهر أن المصعد معطل.

ضغط على الزر مرات عدة، وركل الباب والمصعد لم يأت. بدأت أتعرق.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قال لي:

- لنجرب المصعد الذي في مدخل غرفة العمليات.

اندفعنا باتجاه مدخل غرفة العمليات، وهرولنا في الممر باتجاه المصعد الذي ينقل المرضى من قسم استقبال الطوارئ إلى غرفة العمليات. خارج المصعد، كان هناك العديد من المرضى الذين ينتظرون العمليات. أبعد الممرض الحمالات عن طريقي وضغطت على زر المصعد. لحسن حظي انفتح الباب. أدخلنا الحمالة ونزلنا إلى الطابق الأول. كانت تقف فقط سيارة إسعاف واحدة. القافلة قد غادرت.

أدخلنا المريضة برفق إلى سيارة الإسعاف. جلس الممرض بجانب رأسها، وجلست أمها بجانب الباب الخلفي. كان مكاني بجانب المريضة بحيث أتمكن من قراءة جهاز قياس الأوكسجين في الدم، ومراقبة المجاري الهوائية وإعطاء المريضة الأدوية عبر القسطرة الموضوعة على الوريد الكبير في قفص الصدر.

كان داغفين يقف إلى جانب السيارة. عانقنا بعضنا قبل أن آخذ مكاني.

قال:

- أتمنى لك رحلة موفقة.

ذهب مادس مع القافلة، وغادروا في الحال.

أجبت:

- اعتنِ بنفسك داغفين.

كنت مرتاحا أن مادس غادر المكان، لكن بالي كان مشغولا على داغفين.

خرجنا بسرعة من مدخل المستشفى، ولمحنا القافلة المؤلفة من اثنتي عشرة سيارة. كانت تمشي ببطء عبر الشارع.

كان من الواضح أن الإطار الزمني الذي حصلنا عليه من قبل الإسرائيليين، بدأ في التقلص. الآن يجب علينا أن نسرع. مشينا بسيارة الإسعاف التي نحن فيها بجانب القافلة وتقدمنا إلى أن أصبحنا السيارة رقم اثنين في القافلة. أظن أن مادس كان يجلس في السيارة التي في المقدمة. قبل يومين كنت أنا ومادس نجلس في السيارتين في مقدمة القافلة. بدأت المريضة تتألم، أعطيتها جرعة من

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الكيتامين والديازيبام لتهدئتها. أسرعت القافلة على مدى أربعة إلى خمسة كيلومترات ثم توقفنا. كنا في نتزاريم. كانت دبابتان تقفان على جانبي الطريق مدافعهما مصوبتان نحونا. توقفنا في المكان نفسه مثل المرة السابقة وانتظرنا. لم تطلق علينا النار. بدأت السيارة الأولى تتحرك ببطء شديد إلى الأمام. ونحن كنا نسير من خلفها. لم تُطلق علينا النار حتى الآن. بدأت مدافع الدبابتين تدور وتتابع مسيرنا. كان الصمت يخيم داخل سيارة الإسعاف.

خرّب الإسرائيليون الطريق، وحوّلوا مسارها مؤقتا إلي تلال مرتفعة من الرمال بحيث تعيق محاولة العبور عبر الحاجز بسرعة عالية. مررنا ببطء عبر العوائق ومن ثم إلى الطريق الطبيعي. بعد بضع دقائق سُمعت خشخشة راديو اللاسلكي. عبرت آخر سيارة إسعاف الحاجز. وضع السائقون الضوء الأحمر وصفارة الإسعاف وزادوا السرعة. كانت والدة المريضة كانت تجلس بجانبي. تمسّكت بقوة بالحمالة حيث ابنتها. كنت أراقب جهاز الأوكسجين والتنفس. توقف جهاز التنفس الذي يعتمد على الضغط من أنبوبة ألأوكسجين، عن العمل.

كان علينا تمديدها بالتنفس اليدوي. تبادلت أنا والممرض إعطاء التنفس للمريضة. كنا نضغط على حقيبة التنفس بيد ونمسك أنفسنا باليد الأخرى. رن جرس جوالي، كانت رنا من السفارة بالقاهرة، تريد أن تتأكد بأننا في طريقنا. يبدو أنها كانت على اتصال مع السلطات المصرية. وأكدوا لها بأنني ومادس في طريقنا خارج غزة.

وأخيرا خفّفنا السرعة. وصلنا إلى رفح. كانت مصر ترقد بسلام على ضوء المساء، فقط مئة متر من هنا. بين مصر وبيننا يقع ممر فيلادلفيا في شريط الأرض المحايدة الذي يفصل الحدود بين البلدين. اتجهنا إلى الجزء الفلسطيني من الحدود، مباشرة أمامنا بوابة الخروج من غزة. كان ثلاثة جنود إسرائيليين مدججين بالسلاح ويحمل كل منهم رشاش ال إم 16.

للوهلة الأولى فكرت، هل سيقتلوننا هنا؟

لم يعيروا أي اهتمام لسيارات الإسعاف. فتح شرطي الحدود الفلسطيني الباب الجانبي وطلب أوراق المريض. أخذ جواز سفر المريضة وأمها. فهمت أنني

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أنا أيضا بحاجة إلى ختم خروج. لكن لم يكن الأمر مغريا أن ألوح بجواز سفر نرويجي وأشير لهم بأنني فكرت في مغادرة غزة. فجلست صامتا.

بعد فترة من الزمن عاد الشرطي الفلسطيني حاملا معه الجوازات. عبرنا عبر البوابة الكبيرة المؤدية إلى الساحة الكبيرة أمام نقطة التفتيش الحدودية المصرية. نظرت إلى الساعة، كانت تشير إلى السابعة. بعد لحظات كنا خارج غزة. كانت الساحة الكبيرة داخل الجهة الحدودية لمصر مليئة بالصحافيين، بالإضافة إلى اثنتي عشرة سيارة إسعاف مصرية هي التي ستنقل المرضى لاحقا إلى جانب الكثير من الجنود، كان عددهم تقريبا مئة شخص هناك.

شاهدت أنرش فيتا من السفارة مع رجل ملتح، أظنه السفير توماس هاوف. لم يكن سهلا الاتصال بهم لأنني كنت منهمكا فيً إعطاء المريضة التنفس عبر حقيبة التنفس. كان الممرض قد قفز من الباب الخلفي ويتحدث إلى رجال الإسعاف المصريين. أخرجوا الحمالة من السيارة، وتركت لهم إعطاء التنفس اليدوي. خرجت من السيارة، وأعطيت التقرير إلى رجال الإسعاف المصريين. أخذوا مني الأوراق التي كانت بمثابة تقرير طبي عن المريض، قبل أن أحاط بمجموعة من الصحافيين. ناديت أنرش فيتا، قدم إلي، تعانقنا وتنفس الصعداء قبل أن ينادي السفير.

قال هوف:

- وأخيرا أنتما الاثنان هنا. إنه شيء مطمئن.

تمكنت من مصافحة بير آ كريستيانسن، من جريدة "الأفتن بوستن" قبل أن أبعد جانبا من قبل الصحافة من جميع أنحاء العالم. ثلاثة أو أربعة ميكروفونات ظهرت فجأة أمام وجهي، وبدأوا بطرح الأسئلة بلغات عدة. كانت سيارات الإسعاف في طريق العودة إلى غزة. أحد توجه حراس الحدود المصريين نحوي وسحبني من ذراعي. حاول أن يدفعني إلى داخل سيارة الإسعاف، كي أرجع معهم. رميت بسماعتي الطبية والأدوية إلى داخل سيارة الإسعاف وتخلصت منه.

صرخت:

- لست بعائد معهم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

صراخي لم يؤثر على مزاجه، لكنه لا يستطيع أن يفعل أكثر مما فعل. كنا محاطين برجال الصحافة. بعد ذلك دخلت إلى المنطقة المصرية، وحائط من رجال الصحافة أعاق وصول الجندي إلي مرة أخرى. وأخيرا وقع نظري على مادس الذي كان وكأنه ممتد على العالم كله بين الصحافيين الذين يجرون معه مقابلات. أشرت إليه فهرول مسرعا باتجاهي، وتعانقنا مطمئني البال.

في قافلة للاسعافات في طريقنا الى رفح اربعة ايام بعد المحاولة الاولى مع جرحى في حالة الخطر من مدرسة الامم المتحدة التي قصفت في السادس من يناير.

- إيريك، لقد كنت مشغول البال عليك. علمت أنك لم تخرج معنا من المستشفى، ولم أكن أعلم نهائيا أنك كنت معنا في القافلة.
- واجهتنا بعض المشاكل مع المصعد.

وقفنا طويلا نعانق بعضنا البعض في حين كانت الصحافة تلتقط صورا والصحفيون ينتظروننا. بجانب مادس كانت تقف مريتا تاكسدال وسائق السفارة

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عبد الله الذي كان قد ساعدنا للدخول. كم كان رائعا لقاؤهم. بصحبتهم كان يقف رجل بمظهر عربي لم أره من قبل.

- أقدم لك الدكتور نجيب رمزي، جراح الأعصاب في فريق نورواك. لم يحصل على تصريح الدخول اليوم. ولكن يوهانس براتبو ومحمد أبو عرب ذهبا للتو مع الحافلة إلى غزة ومعهما ثلاثون طبيبا مصرياً. أشرت إلى الحافلة التي كانت تغادر لتوها عبر البوابة باتجاه قطاع غزة.
- تحدث السفير هوف مع السفارة البلجيكية، ونحن نتوقع أن نجيب سيعبر الحدود في صباح يوم الغد.

صافحت نجيب الذي لم يكن متحمسا للانتظار يوما آخر. وكان متأكداً بأنه سيدخل اليوم التالي. كل من محمد أبو عرب ورمزي نجيب كان لديهما امتياز أنهما يتكلمان العربية ويعرفان الثقافة ويلتقطان الإشارات بطريقة أخرى مختلفة عنا نحن. بعد ذلك، بدت الصحافة وكأنها راضية. طلب منا السفير هوف جوازات سفرنا. دخلت مع هوف"، فيتا، نجيب، ماريتا ومادس إلى قاعة تدقيق الجوازات. قبل ذلك عبرنا من خلال أبواب زجاجية. في الداخل آلات الكشف على الحقائب.

لم يكن هناك أحد يشغلها. دخلنا إلى قلب القاعة. كانت صالة كبيرة مليئة بكراسي بلاستيكية على طول الجدران. في النهاية، كان هناك مكتب بجدار زجاجي، حيث كان يجلس مدققو جوازات السفر. هوف، وفيتا و عبد الله أخذوا جوازاتهم ودخلوا إلى مكتب المسؤول الأمني الذي يقع في مكتب صغير في الزاوية اليمنى للقاعة. نحن كان معنا هناك حوالي 20 طبيبا من مختلف البلدان العربية في القاعة الكبرى. من المتوقع أن يعبروا الحدود في اليوم التالي. احتشدوا حول مادس، الذي بدأ بإخبارهم عن الوضع في قطاع غزة..

كنت أعتقد أن السفير سيعود قريبا بجوازاتنا مختومةً، فاتصلت أولا بنينا وأخبرتها بأننا خرجنا من الحدود. وأنني سأتحدث إليها لاحقا في المساء عندما نصل إلى الفندق في العريش. شعرت نينا بالارتياح. اتصلت أيضا بابنتي هيلدا في أوسلو وابني ايفند بتروندهايم، الذين فرحا.

قلت:

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- عندنا مؤتمر صحافي في العريش هذا المساء، سوف اتصل بكم بعد المؤتمر الصحافي.

أخبرنا يون أيفند أن أتصل بمكتب رئيس الوزراء حال وصولنا إلى مصر. أخبرونا في المكتب أن ستولتن بارغ" رئيس الوزراء سيتصل بنا بعد بضعة دقائق. في نفس الوقت خرج إلينا أنرش فيتا من مكتب مدير الأمن، كان يبدو عليه القلق. سألته:

- ماذا حدث؟

- لا يريدون السماح لكم بالدخول. اعتقدنا أن كل شيء كان كما يجب. كنت أتكلم مع المصريين يوميا، لكنهم الآن يقولون إنهم يريدون أن يجروا اتصالا مع أعلى السلطات الأمنية لتعطيهم أمرا للسماح لنا بالدخول. فكرت بسرعة أن الأمر جدي، وناديت مادس الذي كان برفقة الأطباء العرب.

- مادس، يجب أن تأتي، لدينا مشكلة.

دخلنا مع فيتا إلى مكتب مدير الأمن. كان المسؤول نفسه الذي التقينا به عندما دخلنا إلى غزة. كان هناك أربعة رجال آخرين بلباس مدني. على أغلب الظن كانوا من الشرطة الأمنية. طلب منا السفير هوف الجلوس وتركه ليفاوضهم. جلست أنا ومادس على الأريكة، كان من الواضح أننا كنا في خطر. بدأنا بالحديث مع ضباط الأمن، وأخبرناهم عن عملنا في قطاع غزة. كانوا ودودين وسألونا إن كنا نريد شرب الشاي. سألناهم من أي فرع أمني هم؟ سألهم مادس إن كان لديهم السجائر. وحاولنا أن ننشئ أجواء اتصال جيدة معهم كي يتعاطفوا معنا. حاول مدير الأمن الاتصال بمكتب رئيسه في القاهرة، لكنه لم يتمكن من الاتصال به. ثم رفع بصره عن مكتبه، نظر إلينا وقال:

- لا أرى أي احتمال آخر غير أن تعودوا إلى غزة، وتنتظروا هناك إلى صباح الغد، بعدها ستجري الأمور على ما يرام. أحسسنا أن هذا فيه خطر على حياتنا.

قال مادس:

- مستحيل، لن نعود.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قلت:

- بأي حال من الأحوال، لن نترك مركز الحدود.

فكرت بالجنود الإسرائيليين الثلاثة الذين رأيناهم على الجانب الفلسطيني من الحدود. نظرت إلى مادس. من المفروض أن هذه مهمة السفارة. كنا نتلقى مكالمات باستمرار من الصحافة التي كانت تقف في الخارج، وكنا نظن أن هواتفنا مراقبة. ربما كانوا يعرفون مكاننا من خلال هواتفنا.

قال مادس:

- يجب أن نقفل الجوال ونخرج منه البطارية.

- أوافقك الرأي. فلينتظر رئيس الوزراء.

بدأ السفير هاوف بالعمل وقال:

سأتصل بمكتب خدمات الشؤون الخارجية.

قال مادس:

- اتصل بوزير الخارجية يوناس غار ستوري. هناك خطر على حياتنا، عليك أن تتصل بأعلى السلطات.

لكن هوف اتصل بمكتب خدمات الشؤون الخارجية. بعد فترة قصيرة أجاب السكرتير ريموند يوهانسن. تحدث مطولا مع هوف، ثم تحدث معي ومع مادس. أخبرناه عن الوضع في غزة، وكيف كان الوضع على الحدود، وأن حياتنا في خطر.

قال يوهانسون:

- لقد حاولت الاتصال بالمسؤولين الأمنيين الذين تكلمت معهم صباح اليوم. يجلسون الآن في اجتماع يحاولون أن يقوموا بوساطة بين فتح وحماس ولا يمكننا أن نتكلم معهم. يمكنكم أن تفاوضوا بأنفسكم مع المصريين. اتفقنا مع السفير هوف أن يأخذ مكتب الشؤون الخارجية للطوارئ على عاتقه الاتصال بعوائلنا وأن يعطيهم دائما آخر أخبارنا طوال هذا الليل الطويل. في حالة أنهم حجزونا أو أعادوا إرسالنا إلى غزة. قدم عشرة جنود مصريين بلباسهم العسكري عندما كنا نتكلم في الهاتف. قال هوف

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

محذرا:

ادخلوا إلى المكتب! إنهم قادمون لأخذكم.

دخلت أنا ومادس إلى مكتب رئيس جهاز الأمن ورفضنا مغادرته. هوف، وفيتا وعبد الله وقفوا أمام الباب بيننا وبين الجنود. وواصلوا المفاوضات، وكانت الأجواء متوترة.

- أنا السفير النرويجي، لن أغادر مركز الحدود من غير هؤلاء الأطباء النرويجيين. إن بقوا هنا هذا الليل سأبقى أنا معهم.

سررت كثيرا بتوماس هاوف حينها. لأنه على الأرجح أنقذ حياتنا.

قال رئيس جهاز الأمن:

- حسناً، لن نجبركم على العودة إلى غزة، لكن لا يمكنكم البقاء هنا في هذه الصالة. يمكنكم أن تقفوا خارجا في الساحة أمام المدخل.

في مركز الحدود المصري اوجز الدكتور مادس الوضع لمجموعة من الاطباء العرب الذين كانوا في طريقهم الى غزة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

قلت:

- هل فكرت بأن تترك السفير يمكث خارج المحطة الحدودية طوال الليل؟ ماذا سيقول رئيسك فيما تظن؟

كان من الواضح أن مدير الأمن وبقية رجال الأمن أحسوا أنهم مضغوط عليهم، وأنهم في وضع غير مريح. كان من الواضح أنهم شخصيا يتعاطفون معي ومع مادس. لكن يظهر أنهم حصلوا على أوامر بعدم إدخالنا إلى مصر. استمرت المفاوضات حوالي الساعتين. أوشكت الساعة على العاشرة، ورجال الأمن يريدون أن يغادروا وعليهم أن يقفلوا المكتب. أما مدير الأمن فبدا وكأنه فقد صبره ويريد فقط أن يأتي بحل.

- حسنا يمكنكم البقاء في المبنى. ولكن يجب أن تقفوا على الجانب الآخر من آلة الفحص الضوئية.

قال مادس:

- مستحيل فعل ذلك. إنه خطير.

قال إيريك:

- سنمكث هنا في مكتبك.

قال هوف:

- أنت تعلم أن هذا الطلب مستحيل، لأن هذا مكتب عام. ونحن كأجانب لايمكننا أن نبقى هنا وحدنا.

قلت لمدير الأمن:

- حسنا! يمكننا أن نخرج من المكتب، لكن لا نخرج إلى خلف آلة الفحص الضوئية. يجب أن تضمنوا لنا بأنه لن يأتينا الجنود خلال الليل ويجبروننا على الخروج. أخيراً تنفس مدير الأمن الصعداء. إنه فقط عبد للأوامر. بعدما فكر في الأمر قال:

- حسنا، اتفقنا.

خرجنا من المكتب وذهبنا إلى الصالة. قلت:

- لا يمكننا الجلوس على هذه الكراسي البلاستيكية طوال الليل.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- هذا سفير النرويج. يجب أن يجلس على كرسي أفضل. بعد بضع دقائق جاؤوا بكراسي جلد مريحة للجميع. أحضر أحد رجال الأمن غلاية وقليلاً من الشاي. وبعد قليل أتوا بسخان كهربائي صغير. صافحونا كلهم باليد واعتذروا. كانوا مرتاحين بأننا وصلنا معهم إلى تسوية. لم نمر عبر تفتيش الجوازات، لذلك لم يخالفوا الأمر بالسماح لنا بالدخول إلى مصر. في الوقت نفسه، لم نرسل إلى منطقة غير آمنة، ولم تتم إعادتنا إلى غزة. بعدما تأكدوا بأننا حصلنا نوعا ما على وضع مريح، غادر رجال الأمن المركز الحدودي. لم يكن هناك إلاّ جنود الحرس الليلي. كانوا يسكنون في مبنى آخر، ونحن كنا متروكين وحدنا. كالعادة، عبد الله المعطاء، ذهب إلى الجهة المصرية من الحدود، وعاد بعد فترة بأكياس من البطاطا المقلية والكعك وبعض البسكويت، ومياه معدنية. رن هاتف هوف. كان رئيس الوزراء يان ستولتن بارغ على الخط. أعطاني هوف التلفون وقال لي رئيس الوزراء يريد أن يتكلم معك. لقد حاول الاتصال بك لساعات.

- مرحبا.

- مرحبا ! ينس معك على الهاتف. أجلس في المنزل مع والديّ وأتناول العشاء. كاميلا أيضا هنا، وتسلم عليك وتورفولد أيضا. نحن فخورون بكم كثيرا.

قلت:

رد عليهم التحية.

- باسم الحكومة والشعب النرويجي نشكركم على ما فعلتموه في غزة، وسنستمر في دعم منظمة نورواك التي نعتبرها من المنظمات المهمة.

قلت له:

- شكرا.

بعد ذلك أخبرته قليلا عن وضعنا، كما أراه. بينما كنت أنظر إلى غرفة الانتظار حيث يتجمّع الآخرون حول السخان الكهربائي.

- مادس يجلس هنا، هل تريد التحدث إليه أيضا؟

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أعطيت الهاتف لمادس الذي تحدث أيضا لفترة من الوقت معه. كم قدّرنا تلك المكالمة التي أظهرت لنا مدى الاهتمام الذي كنا نحصل عليه. أخبرنا هوف بأن مجلس الأمن الدولي استشهد بأقوالنا. وعلى الرغم من أننا حصلنا على كثير من الاهتمام من وسائل الإعلام، لم نكن نفهم مدى ما قمنا به في قطاع غزة. كانت الناس تتابعنا في جميع أنحاء العالم. ورسائلنا وصلت إلى كل مكان في العالم. غلينا الماء للشاي. كان معي أنا ومادس نصف قنينة كونياك لم نرد أن نشربها بغزة. خلطت بسرية بعض قطرات من الكونياك في الشاي، وشربنا نخب بعضنا. بمجرد ما انتهينا من النخب، دخل علينا جنديان، اقترحا علينا بأن ننتقل إلى أحد الزوايا في الصالة، حيث يوجد حائطان من الإسمنت المسلح. كانا مباشرة أمام مكتب مدير الأمن. وكانا فعلا محقين، أن المكان أكثر آمناً من وسط الصالة. ذهبنا إلى هناك. بعد ساعة جاء مراسلان من "التي في تو النرويجي. قذافي زمان، وبيورن روجر بريفيك. لقد استطاعا الوصول إلى المنطقة الحدودية. قال زمان:

- سمعنا بأنكم ما زلتم على الحدود. وقد جلبنا لكم بعض الأدوات.

استعاروا وسادات وأغطية من الفندق، وأحضروا المزيد من البطاطا المقلية والمياه المعدنية. كان فعلا عملا ينم عن المراعاة.

قلت:

- إنها حفلة.

كان شيئا غريبا أن الجميع يستطيع التحرك داخل وخارج المحطة الحدودية بين مصر وقطاع غزة، ولكن نحن، لا. ربما كان الجنود المصريون يريدوننا أن نكون في وضع مريح، لذلك تركوا الناس تدخل وتخرج إلينا بالطعام والشراب. عندما خرج الصحافيان تلحفنا بالأغطية. كنت مشغول البال على عبد الله الذي كان في أواخر الستينيات. كان يبدو متعبا، فلففته بلحاف من حوله، فغرق في الكرسي الجلدي. جلسنا وأمام رجلينا سخان كهربائي قديم، بدأ مادس يروي النكات. تأكدنا بأنه لا يوجد جنود على مقربة منا. خلط وهو لنا المشروب، كان خبيراً بخلطه بعد أن أخذ دروساً بذلك حين كان في مقتبل العمر.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- شراب رفع الخاص، رشف مادس بفرح، عصير البرتقال مع الفودكا.

وأخيرا انتهى نصفا القنينتين اللتين كانتا بحوزتنا. وسكت الكلام. الجميع نصف نائم.

صوت انفجار.

الساعة الثالثة، استيقظنا على صوت عنيف. النافذتان الكبيرتان في صالة الانتظار تكسرتا. طائرة حربية إسرائيلية اخترقت جدار الصوت فوقنا.

صوت انفجار ثان. طائرة حربية إسرائيلية أخرى تخترق جدار الصوت من جديد، هذه المرة سقط السقف المستعار من كل الجوانب.

استيقظ الجميع. ماذا سنفعل الآن؟

نظرنا إلى جهة آلة الفحص الضوئية، حيث من المفروض أن نكون هناك. الآن تبدو كساحة حرب.

تبادلنا النظرات وعلمت أننا كنا نفكر في الشيء نفسه. لو كنا نجلس هناك أو في الخارج لكنا الآن مصابين بجراح خطيرة. دخل عدد من الجنود المصريين مهرولين.

قالوا

- تعالوا معنا. وأخذوا بذراع كل منا.

التقطنا حقائبنا وأسرعنا مع الجنود إلى الخارج باتجاه الجهة المصرية، إلى أن وصلنا إلى آخر باب قبل مصر. دفعونا إلى داخل غرفة الحرس ذات النوافذ الزجاجية. كان هناك ضابطان في الغرفة. فتحوا جميع النوافذ كي لا تتكسر، وسحبوا كل الكراسي التي كنا نجلس عليها. كانت الساعة الثالثة والربع. بدأ الإسرائيليون بقصف محيط المحطة الحدودية. قصفوا بشكل مركز على المنطقة المحايدة. وأيضا في الجهة المصرية. استمر الهجوم لساعات. مرة أخرى، كنا في وسط المعمعة من الطائرات والقنابل. أنا ومادس تعودنا على هذا الشيء حتى أننا لم نتفاعل. وفي حقيقة الأمر كنا منهكين من التعب وسعداء أننا في مكان آمن. لم تكن إسرائيل تريد أن تقصف المبنى الذي كنا فيه مع كبار الضباط المصريين في المركز الحدودي. لففنا أجسامنا في اللحاف مرة أخرى وجلسنا جنبا إلى جنب مع الضباط المصريين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أصبح البرد شديدا في غرفة الحرس بسبب النوافذ المفتوحة. على الرغم من أنه كان لدينا سخان صغير. فتح مادس جهاز حاسوبه وبدأ يطلعنا على الصور من الشفاء، في حين كانوا يسمعون المطرب لارش بريمنس يغني أغنية "سوق الخضار . أخرج الضباط زواداتهم. كانت من الخبز والزعتر والجبنة. (توابل مخلوطة بالزعتر وحب السمسم والسماق وجبنة) سخنوها على السخان قبل أن يوزعوها علينا. توقف القصف في الساعة السادسة صباحاً. ذهب عبد الله وأحد الضباط إلى قاعة الانتظار ليأتيا بالبسكويت؛ مثل الأشياء التي أتى بها الصحافيون من تلفزيون تي في تو القناة الثانية النرويجية. لم يكن لدينا الوقت لأخذها معنا عندما هربنا من القصف. قدّمت للضباط عصير الفواكه والبسكويت، وذهبت إلى العساكر الذين كانوا يجلسون حول المدفأة خارج غرفة الحرس. أعطيتهم البسكويت والشوكولاتة والمكسرات.

أشرقت الشمس معلنة عن نهار يوم جديد دافئ. الساعة الثامنة كان هناك تبديل للحرس. نقل الجنود بالقافلة، وفريق جديد من الحرس حل محلّه. بعد حوالي ساعة أتى الضباط الأمنيون إلى العمل وأخذونا مجددا إلى المركز الحدودي. كان يظهر عليهم الارتياح لأننا لم نصب بأذى. بدأت أرتجف كلما تقدمنا إلى المبنى الحدودي. سقطت كل السقوف المستعارة. اقتلعت الأبواب من أماكنها، وجميع النوافذ التي تطل على غزة كانت مكسّرة، والمفروشات كانت مبعثرة هنا وهناك. سقط العديد من القنابل الإسرائيلية بالقرب من المبنى. أخذونا إلى مكتب، حيث جلسنا، كلنا نصف نائمين. بعد قليل أتى ضباط الأمن وأخذوني، مع مادس، إلى مكتب الاستعلامات بالقاعة. هناك أخيرا ختمت جوازاتنا. الساعة العاشرة والنصف مررنا عبر المدخل باتجاه مصر. سيارة السفير كانت في انتظارنا. قال حسّان الذي كان يجلس وراء المقود:

- مرحبا يا إيريك ومادس، أهلا وسهلا بكما في مصر.

اتصلت ماريتا بفندق سويس إن بالعريش حيث ينتظرنا الصحافيون هناك. أخبرتنا بأنه سيقعد مؤتمر صحافي الساعة الحادية عشر والنصف، وليس هناك ضرورة لتأجيله. السفير هوف وفيتا، سوف يساعدان نجيب رمزي على الحدود وبعدها سيرجعان إلى القاهرة. الأحد 11 يناير، أرسلت مصر اعتراضاً رسمياً على إسرائيل بسبب القصف الذي تعرضنا له. ادّعت إسرائيل أن الهدف كان

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ركضنا لانقاذ ارواحنا الى الجهة الجنوبية لبوابة الحدود.

ضـرب الأنفـاق في رفح. الهـدف كـان عـصـر يوم الاثنين نزلنا أخيـرا في مطار غـارديموون"، حـيث اسـتقـبلنا من قِـبل عـائلاتنا. كل من نينا وهيلدا كانا هناك لاستقبالي. وكل من ابنتي مـادس، سري وآنا كانتا هناك أيضا مع زوجته السـابقة سوزانا آنجل.

بالكاد استطاعت عـائلاتنا الدخول إلى المطار بسبب ازدحـامـه بالصـحـافة والكثـيـر من الأطفال والكبـار من الفلسطينيين الذين أتوا وهـم يحـملون الورود ويافطات. كان الأمر مؤثرا للغاية، وكنا سعداء حيث اجتمعنا بعائلاتنا أخيراً. في مطار غاردموون عقدنا كذلك مؤتمرا صحافيا مع الصحافة من كل أنحاء العالم وعملنا الإعلامي لم ينتهِ.

في حين استقبلنا أنا ومادس استقبال الأبطال في غاردموون، مازال الهجوم على قطاع غزة مستمرا. الآن هناك فريق جراحي جديد في المكان. الآن في غزة براتبو وأبو عرب دخلوا بقوافل سيارات الإسعاف والصليب الأحمر التي رجعت إلى مستشفى الشفاء. في مستشفى الشفاء استقبلا من طرف داغفين وباسم نعيم، الأحد 11 يناير يكون فريق نورواك قد اكتمل

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

بدأت حدة الحرب تتصاعد يوماً بعد يوم، أدخل الإسرائيليون آلافاً من جنود الاحتياط إلى غزة يوم 11 يناير. وتوغلت القوات الإسرائيلية عميقا في المدينة. ذروة المعركة كانت نهاري الخميس والجمعة 15 و16 يناير. قصف عنيف ومعارك بالقرب من مستشفى الشفاء. أصبحت الوحشية تزداد من السيئ إلى الأسوأ. غادر آلاف من الفلسطينيين منازلهم. جاءت العديد من التقارير بأن الجنود الإسرائيليين كانوا يطلقون النار عمدا على المدنيين في المدينة حتى الذين كانوا يحملون أعلاما بيضاء. فور سماعي لهذا الخبر اتصلت بداغفين. أخبرني بأن الفريق انتقل إلى داخل مدخل العمليات. وأنهم سينامون الليالي القادمة داخل قسم العمليات مع بقية الأطباء. وضعوا فراش النوم على الأرض في قاعة الاستراحة في قسم التخدير وناموا على الأرض. لم يعد هناك أمان خارج مبنى الجراحة.

كان الأمر مخيفا حيث قالت إسرائيل أن قادة حماس يختبئون في ملجأ تحت المستشفى. عندما سمعت أنا ومادس هذه الاتهامات، كنا في مستشفى الشفاء، وكنا نخشى من أن يستخدموا هذه الحجة ذريعةً لقصف المستشفى. قال داغفن إن فريقه كان يناقش الأمر نفسه. كانت لدينا تجربة أنه لا أحد في المستشفى يصدّق هذا الادعاء.

كان الكل على يقين أنها فقط دعاية إسرائيلية للتخويف. أكثر من سبعين هدفاص في غزة تعرض للقصف ليلة 15 يناير. ومن بين الأهداف التي قصفت بالفسفور واشتعلت فيها النيران، المكتب الرئيسي للأنوروا في غزة. 700 فلسطيني لجؤوا إلى المركز الرئيسي. كذلك احترق المخزن الرئيسي للمواد الغذائية وفرشات النوم و الأرز. الهدف الآخر للقذائف الفسفورية كان مستشفى القدس الذي أسسه فتحي عرفات. احترق المركز الثقافي الذي كان بالقرب من المستشفى كليا. كان قد لجأ إلى هذا المبنى 500 شخصاً. كذلك أصابت قذيفة قسم العمليات في المستشفى.لم يكن بالإمكان إخلاء المرضى من محيط مستشفى القدس بسبب إطلاق النار الكثيف. لحسن الحظ لم تنفجر تلك القنبلة.

14 من أصل 27 مستشفى في قطاع غزة تضررت بالقصف. استمر القصف لمدينة غزة في السادس عشر من يناير. أعضاء فريق نورواك كانوا يسكنون بقسم

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

اخيرا اشرقت الشمس في رفح، غرفة الحرس كانت باردة لكن كرم الحرس كان بلا حدود من اليسار: مراتا تسكدال، اندرش فيتا، توماس هوف، ضابط مصري، مادس و فتحي محمد عبدالله.

أصيبت نقطة الحدود المصرية باضرار جسيمة بعد القصف الليلي الذي تعرضت له.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فـريق نورواك رقم 2 يوم 11 يناير 2009 امام مـستشفى الشفاء، من اليسار: الدكتور محمد ابو عرب، الممرض داغفين بيركليد، الدكتور نجيب رمزي والدكتور يوهنس برتبي.

العمليات. في اليوم التالي يظهر انسحب الجنود قد انسحبوا من المدينة. لكن القصف ما زال مستمرا شمال قطاع غزة. من بينها مدرسة الأمم المتحدة ببيت لاهيا التي احترقت بالقنابل الفسفورية الإسرائيلية. أعلنت إسرائيل ليلة 18 يناير وقف إطلاق النار من جانب واحد. غادر الفريق قطاع غزة يوم الثلاثاء 20 يناير ووصل إلى النرويج في 22 يناير.

الفريق الثالث المؤلف من ممرضي التخدير أرفا هولم وكريستين أوهرن وصل إلى غزة في 18 يناير. حصلنا من هذا الفريق على شهود عيان على حجم الدمار الهائل. كريستين أوهر سبق وأن عاشت سنين عدة في غزة وتتكلم اللغة العربية بطلاقة. استطاعت أن تقيم علاقة جيدة مع النساء الفلسطينيات وكانت تستطيع أن ترسل تقارير عن الوضع الصعب الذي كانت تعاني منه المرأة الفلسطينية.

لقد أتيحت لي الفرصة أن أتحدث إلى العديد من النساء اللواتي أنجبن أطفالا أحياء أو ميتين. كثير من القصص ما تزال محفورة في ذاكرتي. لكن كان للجميع شيء مشترك واحد، وهو اليأس من غير حدود.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المرأة، التي أنجبت طفلها السابع بعد أن خسرت منزلها بسبب القصف في بيت لاهيا، خسرت عائلتها كل شيء، ولم يكن لديها حتى ملابس أو أغطية لمولودها الجديد. كان الأطفال الآخرون في مبنى المدرسة، وكانت مريضة من قلقها عليهم. هناك أيضا النساء اللواتي أنجبن أجنة ميتة في الشهر السابع والثامن. أريد أيضا ذكر المرأة التي حملت بالتلقيح بعد سبع سنين من الزواج، أجهضت أيضا في الشهر الخامس من حملها. هن أنفسهن يقلن إن الخوف هو سبب موت أجنتهن. ومن خلال هذه النساء سمعنا أيضا أن هناك نساءً أخريات وضعن مواليدهن تحت القصف من غير أن يأتين إلى المستشفى ومن غير قابلة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مجرمو حرب

مادس جلبرت

كريستيان، هل مازلت هنا؟ ألم يسمح لك بالدخول بعد؟ صحافي ال بي بي سي البريطاني كريستيان فريزر، هزّ رأسه وابتسم في يأس. فريزر كان واحداً من عدد قليل من الوجوه المألوفة من بين حشد من الصحافيين الدوليين الذين أتوا إلى المؤتمر الصحافي الذي عقد في فندق كليف بالعريش. لم نتخيّل عودتنا إلى تلك المدينة المصرية الحدودية، كأنّنا غبنا عنها دهراً. مازلت وايرك نرتدي بدلة العمليات الجراحية الخضراء من مستشفى الشفاء. سماعة الطبيب والمنظار الضوئي حول عنقي، وجيب البدلة الطبية الخضراء، كان مليئاً بالحقن الجاهزة.

نظر إليّ فريزر وقال موضحاً:

- لقد كانوا يغلقون الحدود بإحكام. صدقني، جربت كل شيء للدخول. فكرت في الأنفاق، لكن الإدارة رفضت، لخطورة ذلك.
- ومازال الأمر مستحيلاً للدخول إلى غزة.
- صحيح، لا يبدو أن الإسرائيليين يفكرون أن يفتحوا الباب للصحافة الدولية قبل أن ينتهوا من "المهمة"-المهمة القذرة". لكن نحتاج لإجراء مقابلة معك لتلفزيون ال بي بي سي عقب المؤتمر الصحافي. نجريها على الشاطئ.
- بطبيعة الحال. لكن يجب أن نأكل شيئا أولا.

كنا جائعين ومتعبين بعد ذلك الرحيل المثير، وبعد عشرين ساعة من السجن في الأرض المحايدة على حدود مصر. بدأت أتعثر في كلماتي. فمي كان جافا.

أخذ كريستيان فريزر الميكروفون وجهاز التسجيل الرقمي من السيارة وأجرى مقابلة معي للبي بي سي العالمية. كانت الأسئلة دقيقة، وسمح لي بإنهاء حديثي. من السهل ملاحظة الفرق بين الصحافيين المحترفين مع الخبرة بالشؤون الخارجية وكل الآخرين. فريزر بدون شك كان متمكّناً.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

فقد رجل واحدة فقط. الهجمات الاسرائيلية ادت الى العديد من عمليات البتر. وفقا للشريعة الاسلامية يحتفظ بالاجزاء المقطوعة وتدفن بعد حين، حتى لو عاش المصاب.

أخيرا وبعد تسعة عشر يوما من الانتظار، سمح له بالدخول كأول صحافي غربي إلى غزة. استخدم الوقت جيدا. بدونه سيكون من الصعب معرفة حقيقة ما حدث للطفلة سمر وعائلتها في منطقة عبد ربه بجانب جباليا مباشرة في شمال مدينة غزة وبالكاد على بعد كيلومترين من الحدود مع إسرائيل.

سمر كانت لا تزال مشلولة من منطقة الخصر عندما تم إجلاؤها بسيارة الإسعاف من مستشفى الشفاء عبر معبر رفح إلى المستشفى في العريش. كان المستشفى مجهّزا ليستقبل ضحايا الحرب الذين تم إجلاؤهم من غزة والذين يحتاجون إلى استراحة بعد مسافة طويلة إلى مستشفيات في دول عربية أو في أوروبا.

كان مطار المدينة أيضا مهمّاً بالنسبة للجسر الجوي إلى العديد من البلدان العربية التي تضامنت وأخذت على عاتقها الدّعم ومساعدة الفلسطينيين في غزة. قامت المملكة المغربية بـ18 رحلة بطائراتها العسكرية "هيركوليز" الكبيرة، بحيث أدخلت 250 طناً من: المعدّات الطبية، البطانيات، والطعام،. البلدان

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

العربية الأخرى قامت بالشيء نفسه. المشكلة كانت أن الأعداد الكبيرة من المعدّات والأشخاص الذين نزلوا في هذا البلد المترب. فندق المدينة الذي هو عادة فارغ في فصل الشتاء، أصبح مليئا بالأطباء والصيادلة والصحافيين، والمطار كان مليئا بطائرات النقل، كل ذلك بسبب الحدود مع غزة التي لا تزال مغلقة.

في وقت الانتظار، وجد العديد من الصحافيين الدوليين طريقهم إلى المستشفى في العريش، على الأقل، كان باستطاعتهم إجراء مقابلة مع جرحى الحرب من الفلسطينيين الذي تم إجلاؤهم من قطاع غزة مع أسرهم. المصابون يمكنهم أن يرووا القصص بالتفصيل عن الأعمال الحربية الإسرائيلية وعن الأوضاع في قطاع غزة. قام كريستيان فريزر بزيارة سمر في مستشفى العريش بعد أسبوع من إصابتها خارج منزل عائلتها. تحدث فريزر معها ومع عمها حسن عبد ربه، الذي كان يرافقها. استرجعت سمر ابتسامتها الرائعة والتألق في عينيها، لكنها كانت لا تزال مشلولة من منطقة الخصر إلى أسفل القدمين. لم يعتقد الأطباء أنها ستستعيد حيويتها.

قصتها وقدر عائلتها حُكِي عنه في ريبورتاج على تلفزيون الجزيرة وال بي بي سي. حيث يقول العم حسن والأب خالد قصةً مختلفةً تماماً عن تلك التي سمعناها في مستشفى الشفاء عندما جاءت سمر في 7 يناير- كانون الثاني. كنا نعتقد أنها تعرضت لشظية قذيفة. الحقيقة كانت أسوأ بكثير.

أخبر حسن أن حوالي ثلاثين شخصاً كانوا يحتمون في الطابق الأول من منزل العائلة، خوفا من القوات البرية الإسرائيلية المتقدّمة، حينها بدأت الدبابات تطلق النار أولا نحو الطابق الثالث، ثم الثاني وأخيراً الطابق الأول: بدأ المنزل يهتز، وكان الجميع في حالة ذعر. النساء والأطفال يصرخون من الخوف لأنهم يعتقدون أن المنزل سينهار عليهم. وبما أنني أتقن اللغة العبرية، صرخت للإسرائيليين. ردّ الضابط: أخرجوا! خرجتِ النساءُ أولاً، والجدة كانت تلوّح بعلم أبيض

التقط فريزر صورةً لسمر في سريرها في المستشفى بالعريش، وقرر زيارة والدها في قطاع غزة للحصول على القصة كاملة. ما أن فُتح معبر رفح حتّى

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

ذهب مع مصوّره شمالا إلى مخيم اللاجئين في جباليا في ضواحي مدينة غزة، وبدأ في البحث عن عبد ربه. كان كل شيء مدمّراً بعد الهجمات الإسرائيلية. بحثوا طويلا، لكن أحداً لم يتعرّف على تلك الفتاة الصغيرة في الصورة. كانوا على وشك أن يستسلموا إلى أن وجدوا والد سمر أخيرا.

بمجرد ما أن رأى عبد ربه الصور حتى تعرف على ابنته. "هل هي على قيد الحياة؟" كان ذلك أول ما سأل؟

- "نعم، إنها على قيد الحياة، لكنها لن تستطع المشي على قدميها. إنها مشلولة في كلتا ساقيها. أجاب فريزر عبر المترجم.

في بداية الأمر كان يبدو على خالد رباطة الجأش، لكنه بعد فترة قصيرة استدار بعيدا وبكى. ضمّه رجل فلسطيني مواسياً. ثم قال خالد:

- تقريبا شيء لا يصدّق.

قال فريق ال بي بي سي:

- أخبرنا ماذا حدث.

قال: "كانت الدبابة مباشرة هناك وأشار إلى المكان. كان يقف أمام ذلك المنزل المدمّر تماما. كانت الساعة الثانية عشرة وخمسين دقيقة. أُمِرنا من طرف ضابط بمكبر صوت، أن نخرج من المنزل. والدتي وزوجتي وبناتنا الثلاث، سمر (أربع سنوات)، سهاد (سبع سنوات) وأمل (سنتان). خرجنا كلنا. كانت دبابة إسرائيلية على بعد من سبعة إلى عشرة أمتار هناك. رأينا اثنين من الجنود يجلسان فوق الدبابة، كان أحدهم يأكل شوكولاته والآخر رقائق بطاطس. كنا ننتظر الأوامر من الجنود، عندها خرج جندي إسرائيلي ثالث من الدبابة وفي يده بندقية ال إم 16 وبدأ بإطلاق النار على الأطفال.

الثلاثة أصيب بالرصاص: سهاد قتلت على الفور. أمل ماتت في وقت لاحق بسبب الجروح. وسمر أصيبت بالرصاص في الظهر، لكنها نجت. حملتُ أمل وأمعاؤها تتدلى من بطنها، وجئت بسمر. قتلوا الجنود الإسرائيليون سهاد بأكثر من عشر رصاصات في الصدر.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أصيبت أمي التي تبلغ ستين سنة من عمرها برصاصتين، كانت تنزف. حاولنا أن نتصل بسيارة الإسعاف، لكن لم يأتنا أحد. بعد حين قررنا الخروج من البيت في مجموعات صغيرة. عندما خرجنا، أطلقوا النار فوق رؤوسنا.

بينما كنت أحمل أطفالي القتلى، خرج الجنود الإسرائيليون من دباباتهم يضحكون علينا. في دوار زمو كان هناك رجل مع حصان وعربة، عرض علينا المساعدة، لكنهم أطلقوا النار عليه وعلى حصانه. نُقل إلى مصر، لكنه توفي لاحقا بسبب الإصابات. بعد يوم أو ثلاثة أيام قدمت سيارة إسعاف لتنقل القتلى، لكنها تعطلت كذلك. كانوا فقط على بعد أمتار قليلة عندما أطلقوا النار علينا. كيف يمكنهم ألا يروا الأطفال الذين يطلقون عليهم الرصاص. "يمكن أن يروهم قال العم حسن لفريزر.

بعد ساعات حصلت سمر على العناية الطبية،لم تُصب أم الأطفال. كانت تحمل واحداً من الأطفال القتلى. أصيبت الجدة التي كانت تلوح براية بيضاء، بإحدى ذراعيها وبطنها. العم حسن يؤيد فتح، وليس حماس. كل من حسن وخالد أكّدا أنه لا يوجد مقاتلون لحماس ولا سلاح في المنزل.

شاهدت تغطية ال بي بي سي وفمي مفتوح. هل هذا معقول؟ شعرت بأنني محاصر تماماً بسذاجتي. لماذا كنت على يقين أن سمر أصيبت بشظية؟ الجواب كان بسيطا: كنت أرفض لزمن طويل الاعتقاد بأن جيشاً عصرياً تحت سيطرة سياسية وقيادة عسكرية يتعمّد إطلاق النار على المدنيين. وبالطبع كنت أرفض أن أصدّق أن ذلك الجيش يطلق النار على الأطفال. سنخدع عندما نعتقد أن إسرائيل تقود حرباً "إنسانية" مع كل التحذيرات كان كل شيء يحصل بالعكس، على الرغم من خبرتي عبر عقود من الملاحظات على وحشية إسرائيل في مسارح الحرب في لبنان، أو الضفة الغربية وفي قطاع غزة، وعلى الرغم مما قاله لنا زملاؤنا والمرضى وعائلاتهم، خلال اثني عشر يوماً، الجميع قالوا الشيء نفسه. إنهم يذبحوننا، هذا ما قاله الفلسطينيون لنا. سمعنا قصة ذبح العائلة بأسرها والهجمات الوحشية على المدنيين نساء وأطفالا. هذه القصص كانت غالبا ما ترتبط بالمصابين الذين جاؤوا إلى مستشفى الشفاء. لم يكن باستطاعتنا التحقق من تلك القصص، مثل قصة مذبحة عائلة السموني. كما أننا لم نكن نستطيع مغادرة المستشفى، ولا متابعة كل قصص المصابين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إنهم ينهجون التطهير العرقي. هذا ما أخبرنا به الفلسطينيون. مازلنا لا نستطيع الاعتماد على وثائق قانونية قوية تؤكد تلك الادعاءات. لم نكن صحافيين ولا رجال قانون، وإمكانيات الطب الشرعي في الخدمات الصحية الفلسطينية كانت قريبة من الصفر. لم يكن هناك وقت لعمليات تشريح الجثث والتوثيق المنهجي. لم تكن هناك سلطة سليمة يمكن أن تحقق في الهجمات والإصابات والوفيات من المدنيين. وربما الأهم من ذلك : لم تكن هناك صحافة غربية في قطاع غزة يمكنها أن تلاحق تلك القصص.

بقيت الصحافة الغربية لأسبوع تمشي وراء ضابط الإعلام الإسرائيلي عندما كان يطلعهم على بعض الثقوب التي أحدثتها صواريخ القسام محلية الصنع من قطاع غزة في مروج سديروت وعسقلان. في الوقت نفسه، كان المواطنون الفلسطينيون المبعدون من المجدل ونجبا كما كانتا تسميان قبل أن يحتلهما الصهاينة، -الآن يذبحون الآن في غزة.

في وقت لاحق تبين أن العديد من المرضى الذين كنا نعالجهم، كانوا ضحية على وجه التحديد من هذا النوع من العنف المنظم ضد مجموعات كبيرة من المدنيين الفلسطينيين العُزَّل، و من دون حماية. كنا نقدم طوال الوقت تقارير للصحافة نقول فيها أن 80 إلى 90 بالمئة من القتلى والجرحى، الذين شاهدناهم في مستشفى الشفاء كانوا من المدنيين. ومع ذلك تراجعنا إلى الوراء كي نستوعب حجم الهجمات الوحشية الإسرائيلية الممنهجة ضد المدنيين.

وهناك شهادة من الجنود الإسرائيليين شاركوا بالاجتياح البري، توضيح كيف كان يفكر الإسرائيليون "نحن ذاهبون إلى الحرب"، قال قائد القوات الإسرائيلية لجنوده. لا يجب أن نقوم بشيء عن قرب وفقا للعرف والأمن. أريد عدوانية. إذا كان هناك أي شخص مشتبه في الطابق العلوي من المنزل، علينا أن نقصف. إذا كانت لدينا شكوك حول المنزل، علينا أن ندمّره. ينبغي أن لا يكون هناك أي تردد، واصل القائد. نحن أو هم، نعم، هم. إذا اقترب منكم شخص غير مسلّح، أطلقوا النار في الهواء اذا استمر في المشي، إذا فهو ميت لا ينبغي لأحد أن يتردد . لندع الاشتباه يكلّفهم الحياة، وليس نحن. يعرف الإسرائيليون جيدا ما الذي يفعلونه، ومن يطلقون عليه النار، ومن يصيبون. تلقوا تقارير استخباراتية من جنودهم، من كاميرات الفيديو، برؤوس صواريخهم، التي تبين بوضوح أي نوع

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

من الأهداف التي يصوّبون سلاحهم نحوها ويقصفونها، موثّقة بأقمارهم الاصطناعية وأقمار التجسس الأمريكية. يحصلون عليها من جميع العملاء المدفوعة لهم النقود من بينهم فلسطينيون، من الصور التي تظهر بشكل مستمر عبر شاشات التلفزيون، وخصوصا في العالم العربي، ومن صور الأمم المتحدة الدقيقة المتّخذة من الأقمار الاصطناعية، ومن تقارير يومية عن الوضع من عدد من وكالات الأمم المتحدة - وصور حصلوا عليها منا. كانوا يلخصون ويناقشون الهجوم مرة واحدة يوميا، يعرفون أنهم سيخففون الأمر وكانوا يعرفون أنهم لن يتمكنوا من حماس. لم يكن ذلك مقصودا. الغرض هو العقوبة الجماعية على السكان الفلسطينيين في قطاع غزة. عقوبة ذبح لا تعرف رحمة لا للنساء ولا للأطفال، لا للكبار ولا للصغار، وتدمير غزة يعيدها عشرات السنين إلى الوراء. الحصار طويل الأمد لقطاع غزة لم يؤثر فقط على المدنيين بشكل عشوائي، بل عمدا. هذه المجازر لم تأت عن طريق الخطأ باستثناء بعض الحالات.

شاب عمره 14 سنة يعاني من نزيف حاد في رجله وينتظر ليأتي دوره. لقد تم تنفيذ 90 بالمئة من العملية حسب الخطة الموضوعة مسبقاً. هذا ما صرح به الرئيس الاسرائيلي شمعون بيريز.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الأطفال القتلى لم يكن نتيجة ظلام في الليل، ولا خطأ في إحداثية نظام تحديد المواقع أو نتيجة جندي غير منضبط. القتلى والجرحى من النساء والأطفال في الحقيقة لا يجب أن يقتلوا. فعلوا الشيء نفسه مع الرجال المدنيين، كلهم كانوا أهدافا للرشاشات والمدافع، والطائرات بدون طيار والهيليكوبتر والطائرات المقاتلة، لأنهم يجب أن يَقتلوا، أن يصيبوا، ويروّعوا. كل الفلسطينيين في غزة إرهابيّون بالنسبة للجنود الإسرائيليين. لذلك فهم في أعينهم أهداف مشروعة للهجوم والإصابة والقتل.

أنظر من يتحدّث. رئيس دولة إسرائيل الحائز على جائزة نوبل للسلام، شمعون بيريز، الذي كشف بوضوح عن السياسة الإسرائيلية والأهداف العسكرية لعملية الرصاص المسكوب للعالم. "لقد تمّ أنجاز 90 في المئة من العملية الحالية حسب الخطّة" هذا ما خلص إليه شيمون بيريز قبل أربعة أيام من انتهاء العملية في خطابه أمام اللوبي الأمريكي الإسرائيلي، لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية (أيباك)، في منزل رؤساء إسرائيل في القدس (Beit Hannasi) في القدس 14 يناير 2009- حين كانت القنابل ما تزال تنهمر على قطاع غزة- كشف عن خطة إسرائيل الحقيقية: هدف إسرائيل هو أن توجّه للشعب في غزة ضربة شديدة لدرجة تفقدهم الشهية لإطلاق النار على إسرائيل. هذا كل شيء.

كان من المقرر أن تسقط غزة في الظلام الدامس، لا يجب على العالم أن يعرف. يجب على الفلسطينيين في غزّة أن يجبروا على الركوع لإسرائيل، كما تأمل إسرائيل أن يبتعدوا عن قيادة حماس، وأن يأتوا في صفوف طويلة حاملين رايات بيضاء، منقسمين، خائفين، مستسلمين، مهزومين ومسحوقين. يجب أن نضرب الفلسطينيين ضربة قوية لن ينسوها في حياتهم، ضربة تملؤهم بالفزع والصدمة والرعب، هكذا حتى لا يفكروا في الدفاع عن أنفسهم ضد الاحتلال الإسرائيلي والإذلال.

كان تعذيب الفلسطينيين وقتل المدنيين جزءاً من الخطة التي نفذت دولة إسرائيل 90 بالمئة منها. بالنسبة لسمر وعائلتها كانت النتيجة خسارة مئة بالمئة: الشقيقتان المقتولتان وبقية أفراد الأسرة التي قصفت بالقنابل، والمنزل والقرية المدمّرة كمثال بشع لتلك "الضربة القوية" التي وجهتها إسرائيل بشكل منهجي "لسكان غزة" خلال 22 يوما. ولم تحمّل المسؤولية لسياسي إسرائيلي، أو ضابط

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أو حتى جندي، ولا محكمة عسكرية نصبت ولا تعويضات حرب دفعت، ولا أي تبرير من إسرائيل. على العكس من ذلك. على خلفية الانتقادات الدولية ومزاعم بارتكاب جرائم حرب واعتداء على المدنيين، نفّذ قائد الأركان الإسرائيلي الجنرال غابي أشكنازي، تحقيقا داخليا. أجريت التحقيقات لخمس فرق عسكرية، وكان يقودها ضباط إسرائيليون من الجيش الإسرائيلي.

سبق وأن وضع رئيس هيئة الأركان هذه النتائج في إبريل 2009، كانت النتائج ليست بالطريقة التي كنّا نتوقعها: "لم يطلق النار عمدا على المدنيين من قبل الجنود الإسرائيليين خلال عملية الرصاص المسكوب في قطاع غزة. وجيش الدفاع الإسرائيلي عمل وفقا للقانون الدولي، وكان على قدر عال من المهنية والأخلاق العالية". علّق وزير الدفاع الإسرائيلي مؤكداً أن "القوات الدفاع الإسرائيلية أظهرت من جديد إرادتها على أن تجري تحقيقا داخلياً. ومرة أخرى أثبتنا للعالم أننا أكثر الجيوش أخلاقاً". وبعبارة أخرى كان الجيش أحسن تنظيم. المنظومة الأوروبية والولايات المتحدة لم يعلّقوا.

مكتبة الرمحي أحمد

تصريحات شيمون بيريز للأيباك (لجنة الشؤون العامة الإسرائيلية الأمريكية) لم يكن صدفة: إن الهجوم العسكري كان مخططا له في غاية الدقة، والهدف هو معاقبة جميع الفلسطينيين في غزة. تصوّر العمليات العسكرية الإسرائيلية في غزة إستراتيجية عسكرية جديدة، سموها عقيدة الضاحية". والضاحية تستعمل كدلالة على الجزء الجنوبي من بيروت الغربية والتي تعتبر معقل حزب الله.

تعرضت هذه الأحياء لقصف مدمّر من القوات الجوية الإسرائيلية خلال حرب لبنان الثانية في تموز/يوليو 2006. كان هدف إسرائيل هو تدمير البنية التحتية وتخويف المواطنين بقتل أكبر عدد ممكن من المدنيين. حتى بعد وقف إطلاق النار. رمى الإسرائيليون من الطائرات الحربية أكثر من مليون قنبلة عنقودية فوق جنوب لبنان، لجعل تلك المناطق غير قابلة للسكن.

"عقيدة الضاحية" تعني ضرب المناطق التي تطلق منها صواريخ ضدّ إسرائيل بأسرع وقت ممكن، بقوة عسكرية ساحقة وتنفيذ هجمات تدميرية وقاتلة على نطاق واسع. لا يميزون بين الأهداف المدنية والأهداف العسكرية. والحجة هو أن هذه المناطق يمكن أن تكون قرى أو أحياء تخبئ الذين يطلقون الصواريخ على

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إسـرائيل. الجـميع يجب أن يتحـمّل المسؤوليـة، بصـرف النظر إن كـان مـدنيـا أو عسكريا، وبصرف النظر عن العمر أو الجنس.

يعتقد الاستراتيجيون العسكريون وكبار الضبـاط الإسرائيليين أن الرد على تهديد الصواريخ والهجوم من سوريا، ولبنان وقطاع غزة، سيكون هجوما قويا وفوريا على نحو غير متناسب "في قلب نقطة ضعف العدو . يقول الخبـراء الاستراتيجيون في الجيش الإسرائيلي، إن إضعاف قدرة إطلاق الصواريخ هي هو هدف ثانويّ. مثل هذا الهجوم المدمر سيكون ذكرى لا تغيب عن البال لسنوات عديدة لصانعي القرار، وبالتالي نعمّق قوتنا الرادعة في أذهانهم.

العقيدة موثقة جيدا من خلال تصريحات كبار الضباط الإسرائيليين . في خريف عام 2008 كانت هذه العقيدة تناقش علناً في مقابلة مع القائد الميجر جنرال جادي ايزنكوت، في صحيفة التابلويد الإسرائيلية الكبيرة يديعوت احرونوت "نحن نريد استخدام قوة غير متكافئة، ضد أي قرية تطلق صواريخ على إسرائيل. سوف نسبب أضرارا هائلة ودمارا. من وجهة نظرنا، إن هذه القرى هي قواعد عسكرية. هذا ليس اقتراحا، هذه هي الخطة التي سبق وأن حصلت على الموافقة من الحكومة. وإننا لن نتوقّف أو نرتدع من الرأي العام العالمي.

محلّل ومنظر عسكري آخر، الكولونيل غابرييل سيبوني، وهو ضابط في الاحتياط ورئيس سابق لفرقة جولاني المدرعة، ذهب إلى أبعد مما قاله الميجر جنرال أيزنكوت. ففي تقرير صدر عن معهد دراسات الأمن القومي في جامعة تل أبيب، قال إن استخدام القوة يجب أن يكون مفرطاً فيما يتعلق بالتهديد الفعلي الذي يمثله العدو. الغرض من الردّ العسكري سيكون إدخال المجتمع المحلي في عقاب مدمر، وفي نطاق واسع يتطلب إعادة إعمار طويلة ومكلفة.

يجب أن يكون الهدف من القصف الإسرائيلي، "إعادة غزة عشرات السنين إلى الوراء"وفي الوقت نفسه "ايقاع أكبر عدد ممكن من الخسائر في العدو، وإبقاء خسائر القوات العسكرية الإسرائيلية ضمن الحد الأدنى. قال قائد المنطقة الجنوبية في الجيش الإسرائيلي الميجر جنرال يوآف غالانت في رسالة إلى العالم بعد يوم من الهجوم على غزة: عدد الضحايا الفلسطينيين

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

والإسرائيليين، والدمار في غزة، أظهر أنه هو وغيره من القادة الإسرائيليين سيحافظون على ما وعدوا به.

يدّعي تقرير الجيش الإسرائيلي أن 295 "من غير المقاتلين" الفلسطينيين "قتلوا خلال العملية"، ومن بينهم حوالي 89 تحت 16 سنة، و49 من النساء حسب ادعاءاتهم. لاتوجد منظمات أخرى لديها أرقام قريبة من هذه الأرقام الرسمية الإسرائيلية. عندما تواجه الإسرائيليين بأرقام القتلى المدنيين، يجيبك المتحدّث العسكري الإسرائيلي بأن الفلسطينيين يحسبون الذين يموتون ميتة طبيعية مع هذا العدد، لكنه لا يستطع أن يقدّم لك لائحة بأسماء القتلى أو الطريقة التي حصل فيها على هذه الأرقام.

الأرقام الفلسطينية تختلف، لكنّ المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان، يتمسّك بأرقامه: أكثر من 1400 لقوا مصرعهم في الفترة من 17 ديسمبر 2008 إلى 18 يناير 2009. على عكس فقدان التوثيق الكلي عند الإسرائيليين، يملك المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان لائحة بأكثر من 1415 قتيل، بالاسم والعمر والجنس ومكان الإقامة والتاريخ والمكان الذي أصيب أو قتل فيه. هذه القائمة المفصّلة تظهر أن قرابة 85 بالمئة من القتلى كانوا مدنيين، و343 فلسطينياً قتلوا في اليوم الأول للهجوم. وتتضمّن اللائحة معلومات عن عمل القتلى أو الجرحى، وتميّز بين المدنيين والعسكريين. النساء والأطفال كانوا 38 بالمئة من القتلى، (319 طفلاً و216 امرأة)، 20 بالمئة كانوا من رجال الشرطة، في حين كانت نسبة العسكريين 5،16 بالمئة فقط.

هذه الأرقام قريبة من التقارير الخارجية وغيرها من الأرقام الصادرة عن وزارة الصحة.

تعني عقيدة الردع الإسرائيلية الجديدة أن آلة الحرب الإسرائيلية تستخدم قوة متفوقة على ترهيب وتهديد المعارضين للخضوع والطاعة من خلال استخدام العنف على نحو غير متناسب من الأسلحة العسكرية وغيرها من وسائل الهجوم الموجهة ضد البنية التحتية المدنية والعسكرية والأهداف الإنسانية. كل هذه الأنواع من الأعمال غير شرعية بموجب القانون الدولي. ومع ذلك يجيبك خبراء جيش الدفاع الإسرائيلي بإجابات مختلفة تماما.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

في الأشهر التي سبقت الهجوم على غزة، جرت مناقشة مستفيضة حول هذه الأسئلة في قيادة جيش الدفاع الإسرائيلي. كان النقاش حول مشروعية مهاجمة المباني الحكومية ومدارس الشرطة في غزة، حيث مجموعات كبيرة من طلبة الشرطة ينظمون احتفال التخرج. كلا من الهدفين يُعَد من الأهداف المدنية بموجب القانون الدولي وينبغي ألا يكون هدفا للهجوم.

وعلى الرغم من ذلك اعتبرت مسبقا أهدافا مشروعة للقوات الإسرائيلية، من قبل المستشارين القانونيين للجيش الإسرائيلي ومحاميي الدفاع في قسم القانون الدولي (والمدعي العام العسكري في قسم القانون الدولي)، كان المحامون من هذا المكتب يتواجدون باستمرار في غرفة العمليات العسكرية خلال فترة الهجوم على غزة. شاركوا في عمليات التقييم والموافقة على الأهداف التكتيكية العسكرية المختلفة التي تم اختيارها للقصف، والأنواع الأخرى من الهجمات الإسرائيلية. كما وافقوا على أكثر الأهداف العشوائية التي كانت تظهر خلال الهجوم، مثل قصف قواعد إطلاق الصواريخ الفلسطينية.

هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن قصف مباني الأمم المتحدة مثل المدارس ومخازن المواد التموينية، كان مدروسا من قبل المستشارين القانونيين، وليس نتيجة لسوء الفهم. وهناك ملحق قانوني للأوامر الخطية لعملية الرصاص المسكوب، أوصت بأن المدنيين يمكن أن يكونوا أهدافا مشروعة بعد إعطائهم الإنذار "بقدر ما تسمح الظروف"، ولكن الاستثناء من القاعدة يأتي في المقطع التالي من المستشارين القانونيين ومن الممكن أن نتغاضى عن هذا الإنذار إذا كان العمل يعيق أو يهدد (القوات الإسرائيلية)

كان العديد من الحقوقيين الإسرائيليين كانوا على خلاف مع القيادة العسكرية وتقييمات المحامين العسكريين. "في الدول المنظمة والمتحضرة يُمنع مهاجمة رجال الشرطة كما لو أنهم من الجنود ، هذا ما قاله أستاذ القانون توفال شاني في الجامعة العبرية في القدس.

يجب أن يكون هناك حدود، وعليك أن تهاجم الأشخاص الذين يقومون بأنشطة (عسكرية) . أستاذة القانون اورنا بن نافتالي هي أيضا من المنتقدين الإسرائيليين الذين يؤمنون بأن القانون الدولي "مفلس في هذا المجال ، وتشير

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

إلى أن الجيش الإسرائيلي يستخدم القانون الدولي لإضفاء الشرعية على استخدام القوة في عملياتهم العسكرية في غزة.

وأضافت " كان يبدو أن محاولة إضفاء الشرعية على استخدام القوة من غير حدود على نحو يتنافى تماما مع الأهداف الأساسية للقانون الإنساني الدولي. بدلا من الحد من المعاناة، يستعمل القانون الدولي كذريعة لاستخدام كل أنواع القوة". وقالت "إنها ترى أن الطريقة المعمول بها في القانون الدولي في الأراضي المحتلة، ولا سيما في قطاع غزة، يسهل عليها ارتكاب جرائم حرب والتي يشارك فيها ويتحمل مسؤوليتها مستشارون قانونيون إسرائيليون"

يظهر أن هذه المشورات القانونية شرّعت الانتهاك للقانون الدولي، وخلقت وضعا بحيث يمكنهم اعتبار كل رجل وكل مبنى في قطاع غزة هدفا مشروعا. في الواقع، قلبوا القانون رأسا على عقب، وتوقف عن تحقيق غرضه. بل يجب علينا أن نعترف بأن القانون كان مُعسّرا قبل أن يفلس.

رد الفعل الإسرائيلي على صواريخ القسام، كان مفرطا في استعمال القوة. وحسب شهادة الجنود الإسرائيليين تظهر كم كان وحشيا في الميدان. هذا ما استنتجه الخبير القانوني فالنتينا ازاروف في منظمة حقوق الإنسان الإسرائيلية هموكيد (مركز الدفاع عن الأفراد).

هذه واحدة من بين عشرين وثلاثين منظمة إسرائيلية لحقوق الإنسان الذين يعملون بانتظام لكشف وتوثيق الهَجَمات على الشعب الفلسطيني. لم يكن فقط المحامون العسكريون الإسرائيليون يحاولون إضفاء الشرعية على الهجوم على غزة، كذلك الحاخامات بداخل وخارج وزارة الدفاع الإسرائيلية، منحوا الجنود المبررات الدينية المشددة للهجوم والقتل.

كبير الحاخامات في الجيش الإسرائيلي، العميد أفيشاي رونتزكي، الذي هو نفسه مستوطن في إحدى المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، اصدر أحد إحدى الكتب الدينية المثيرة للجدل، والتي كانت قد وزّعت على الجنود لتحضيرهم لعملية "الرصاص المسكوب" ومن بينها أيضاً الكتاب الذي كتبه الحاخام القومي المتطرف شلومو افنير، المسؤول الذي يدير المدرسة الأصولية"

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

أتيريت جوهانيم في الجزء المسلم من القدس، والتي يعتبرها العديد من الناس أشد الدعاة للاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية.

رصاصة واحدة تقتل اثنين وكلّما كانوا اصغر كلّما كانت اصعب. بعض الجمل والعبارات كتبت على فانلات الجنود الاسرائيليين من وحدة القناصة.

يحمل الكتاب عنوان حارب معركتي : نصوصا للدراسة اليومية للجنود والضباط في زمن الحرب (مترجمة).

وكبير الحاخامات السابق لليهود السفرديم، واليميني المتطرّف مردخاي الياهو، أوصى ب "قصف السجادة" لقطاع غزة، لأن جميع المدنيين الذين يعيشون في قطاع غزة، يتحمّلون مسؤولية جماعية للهجمات الصاروخية على إسرائيل. هذا ما كتبه في رسالة إلى رئيس الوزراء آنذاك إيهود أولمرت عام 2007. الحكم الديني لكبير الحاخامات كان واضحا: ليس هناك على الإطلاق أي رادع أخلاقي يعيق أو يقف في طريق قتل المدنيين في حملة عسكرية هجومية على غزة لوقف الهجمات الصاروخية.

في نشرة وزعت على جميع المعابد في البلاد، يدّعي أيضا أن أخلاقيات الحرب اليهودية، تقول إن كل المدن يمكن أن تكون مسؤولة عن سلوك لا أخلاقي

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

عند الأفراد، ويشير إلى قصة في العهد القديم لمذبحة شيشم، حاليا مدينة (نابلس في الضفة الغربية). إزاء هذا الحديث، فإن قصص الجنود الإسرائيليين عن قيامهم بأعمال وحشية ضد المدنيين في قطاع غزة، لن تكون بمثابة صدمة.

قصص الجنود الإسرائيليين عن القتال في غزة جاءت في إطار مناقشات لحلقة دراسية عسكرية بعد انتهاء القتال في غزة بفترة قصيرة. هذه الحلقة - حلقة إسحاق رابين، كانت للتحضير لخدمة عسكرية ذات مغزى. قاد هذه الحلقة ضابط الاحتياط الليبرالي داني زامير، الذي كان يجمع ولمدّة عشرين سنة الجنود الشبان في أكاديمية أورانيم بكريات تيفون. حصل الكثير من الذين شاركوا في الحلقة الدراسية، على مناصب قيادية في وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي.

يوم الجمعة 13 فبراير، جمع زامير الجنود الذين شاركوا في البرنامج، لتلخيص ومناقشة تجاربهم عن الخدمة في قطاع غزة. نشر تقرير مفصّل في مجلة مدرسة بريزا وتم تسريبه وعلى الفور صدر مقال مطول في صحيفة هاآرتس الإسرائيلية. الجنود يتحدّثون عن اعتداءات وقتل المدنيين الفلسطينيين وتدمير الممتلكات الخاصة. شهادات تؤكد أنه لا يوجد تمييز بين المدنيين والعسكريين المقاومين.

كان الجنود يطلقون النار بسرعة على المدنيين ويقتلوهم، وكذلك الأطفال نتيجة ما وصفوه ب "القواعد اللينة من طرف الضباط". في مسلسل فضائح أخلاقيات الجيش الإسرائيلي و"مدوّنة لقواعد السلوك . بعد انتهاء عملية غزة، وردت أخبار تفيد أن الجنود الإسرائيليين، طبعوا على قمصان، وسترات مع قلنسوة، وقبّعات صورا كاريكاتورية ونصوص تظهر بوضوح موقف الجنود تجاه المدنيين الفلسطينيين. بعض الكاريكاتور يظهر نساء وأطفالا فلسطينيين في مرمى الهدف ونصوص واضحة لا تقبل الشرح. قميص للقناصة من كتيبة شكيد من لواء جفعاتي عليه نص مكتوب فيه طلقة واحدة، تقتل اثنين" باللغة الانكليزية، وتحت الرسم امرأة فلسطينية حامل ترتدي الزي العربي مع الحجاب تقع في وسط مرمى الهدف للقناصة أو للرشاش. وصورة أخرى لطفل فلسطيني صغير، يحمل بندقية تحت مرمى الهدف ونص مكتوب بالعبرية: "كلّما كان أصغر كل ما كان أسوأ. باللغة العبرية لها معنيان: المعنى المزدوج يصور كم هو صعب أن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

يطلق النار على الأطفال. "من الأفضل أن تستعمل الواقي الذكري "دوريكس ، كان هذا النص موجودا على قميص أحد القنّاصة. ويظهر الصورة لطفل ميّت يحمل بيده العلم الفلسطيني إلى جانبه لعبة الدب، وتقف أمه بجانبه تبكي طفلها الميّت.

إدّعى الناطق باسم الجيش الإسرائيلي أن القمصان طبعت بمبادرة خاصة من الجنود، ومحتواها غير لائق وليس وفقا لقيم القوات العسكرية الإسرائيلية. "هذا النوع من الفكاهة هو أمر غير مقبول ويجب أن يدان". حاييم يسرائيل، صاحب المحلّ في تل أبيب الذي كان يصنع تلك القمصان بطلب من الجنود الإسرائيليين، أخبرنا أنه ينتج حوالي 500 قميص بصور مختلفة كلّ شهر، والجنود الإسرائيليون من كلّ فروع الأسلحة يطلبون هذه القمصان وخاصّة القناصة. عندهم تقليد قديم أن يضعوا عدوهم على شكل كاريكاتير أو هدف، ويعدّون هذا العدوّ هدفاً لهم.

كل من تقرير منظمة العفو الدولية وأربعين شهادة من الجنود الإسرائيليين نشرت عن طريق قدامى منظمة"كسر جدار الصمت"، يؤكدون أن عملية الرصاص

في اكتوبر 2008: جود الى اليسار وجميلة يودعون "عمّو مادس" العم مادس. الاب خليل قلق على مستقبل الاطفال.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

المسكوب نفّذت بوحشية وهجمات واسعة النطاق وكانت منظمة ضد الفلسطينيين المدنيين، وهي خرق للقانون الدولي.

خلال رحلاتي الكثيرة في جميع أنحاء إسرائيل وفي فلسطين المحتلة، كنت غالبا ما أشعر بأن الإسرائيليين يعيشون في عالم مختلف تماما عن عالمنا. حق الدفاع عن النفس موجودة في كلّ مكان. سياسة العزل العنصري الذي يمارس علنا ومن دون خجل، كما لو كانت هذه هي الكيفية التي ينبغي أن يكون عليها العالم.

نقاط التفتيش العديدة، الجدار العاري والمرعب، والتسليح الواسع النطاق في المجتمع المدني الإسرائيلي، والتوسع المستمر من خلال بناء الكثير من المستوطنات غير الشرعية. كلّ شيء منظم بدقة وغطرسة تكاد لا تحتمل.

لا أفهم كيف أن كثيراً من الناس يتغاضون عن مشاهدة هذا الظلم والطريقة غير الإنسانية التي يتركّب منها مجتمعهم. لكن اللهجة الإسرائيلية العدوانية هي ضد كلّ شخص ينتقد من الدّاخل، لحسن الحظ لا تؤثر على الجميع.

لأول مرة في تاريخ القانون النرويجي تُقام دعوى ضد قادة سياسيين وعسكريين عن جرائم الحرب والانتهاكات الخطيرة للقانون الإنساني الدولي في 22 أبريل 2009 ادّعى المحامون لؤي ديب، شيل بروج فيال، بنت اندرسن، بول هارالد، هارالد ستابل وجاير هويين، على كبار السياسيين في الحكومة والجيش الإسرائيلي قدمت الدعوى إلى المدّعي العام الجديد لمحكمة الجرائم الدولية. تتضمن لائحة المدّعى عليهم أسماء مثيرة:

رئيس الوزراء السابق في إسرائيل إيهود أولمرت، وزيرة الخارجية السابقة تسيبي ليفني، وزير الدفاع السابق والحالي، إيهود باراك، قائد القوات البرية في قيادة الجيش الإسرائيلي، الميجور جنرال آفي مزراحي، قائد قوات البحرية في قيادة الجيش الإسرائيلي، الأدميرال آليعازر ماروم، قائد القوات الجويّة، الميجور جنرال إيدو نيهوشتان، وقائد القطاع الجنوبي في القوات البرية الإسرائيلية الجنرال ياعوف جالانت، وقائد لواء جفعاتي، الكولونيل إيلان مالاكا، وقائد لواء غولاني، الكولونيل أفي بيليد، جميعهم كانوا متهمين بانتهاك القانون الجنائي العام لعام 2005 الفقرات من 102 - 109 والفقرة 5.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مكتب المدّعي العام الجديد، سيضمن بأن النرويج لن تكون ملاذا للأشخاص الذين يشتبه بأنهم ارتكبوا أعمالا إجرامية خطيرة في الخارج، بما في ذلك جرائم حرب. كون النرويج من الدول الموقعة على اتفاقية جنيف واتفاقية حقوق الإنسان، ووفقا لنظام روما العائد للمحكمة الجنائية، من واجب النرويج - كدولة -معاقبة مرتكبي الجرائم الدولية ومرتكبي الجرائم ضدّ الإنسانية. هذا الواجب - والحق - يريد المحامون الخمسة تطبيقه من خلال هذه الدّعوى.

عندما استلمت المدّعية العامة، سيري فريغورد، الدعوة في مكتبها كان اهتمام وسائل الإعلام النرويجية واستناداً إلى ملاحظتي الشخصية قد بدأ يتلاشى. فقط قام فريق تلفزيون قناة الجزيرة بتغطيّة هذا الحدث، والمؤتمر الصحفي الذي تبعه، حيث لخّص المحامون سبب الدعوى. لم يكن لديّ شك أن المدّعَى عليهم كانوا يعلمون بكل ما جرى، وأصدروا الأوامر ووافقوا على العمليات في غزة، وفكروا مليا بعواقب هذه العمليات. في أي ظرف من الظروف كان باستطاعة المدّعى عليهم أن يوقفوا هذه العمليات وقد كانوا في وضع يخوّل لهم فعل ذلك.

طالب المحامون باعتقال المدّعى عليهم حال وصولهم إلى النرويج، أو باعتبارهم مطلوبين ويلقى عليهم القبض بالتعاون مع الأنتربول. ساندت نقابة المحامين في لجنة حقوق الإنسان هذه الدّعوي . تتماشي الدعوة النرويجية مع مجموعة قضايا قانونية مدعومة من منظمات حقوق الإنسان وكذلك من دول أخرى. حتى في إسرائيل ارتفعت الأصوات مطالبة بإعادة النظر فيما حدث في غزّة.

شكّلت جامعة الدّول العربية لجنة تحقيق من حقوقيين بارزين، استنتجوا أن هناك أدلة على أن إسرائيل ارتكبت جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية خلال الهجوم على غزة. وكانت اللجنة تعتقد أن إسرائيل ربما تكون قد ارتكبت جريمة الإبادة الجماعية، التي هي أخطر أشكال الجريمة في القانون الجنائي الدّولي.

كان قاضي حقوق الإنسان النرويجي المعروف، فين لينغهايم، عضوا في اللجنة، و قام بإرسال التقرير إلى النيابة العامة النرويجية في أوائل مايو، على أمل أن المدعي العام سوف يدين غيابيا قادة الحكومة الإسرائيلية. ويبقى أن نرى

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

استقلالية وشجاعة نظام العدل النرويجي تجاه الانتهاكات الإسرائيلية الخطيرة لحقوق الإنسان.

كنّا يوم 7 مارس 2009، في رام الله بالضفة الغربية.

- لم يحدث شيء، دكتور مادس. لا إعادة بناء، ولا ترميم. ليس لدينا مواد بناء، ولم يدخل أي شيء إلى قطاع غزة. مازال الحصار حادّا على غزّة.

اللوبي الكبير في مقر الهلال الأحمر الفلسطيني الرئيسي في مدينة البيرة بالضفة الغربية، يعجّ بالمندوبين بإشارات تحمل أسماءهم، ويتأبطون مجلّدات المؤتمر على الأكتاف. تناقض كبير بينهم و بين أولئك المتعبين والمقصوفين الآن في مكاتب الهلال الأحمر في غزة، حيث يعمل هناك الدكتور خليل أبو الفول في مكاتب الهلال الأحمر الفلسطيني، حيث كنا نلتقي عادةً.

سألت الدكتور خليل:

- لكنك خرجت من غزة. هل كنتم وفدا كبيرا؟
- نعم، كل المجموعة. العديد من الجراحين في مستشفى القدس ومسؤولو جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني.
- لكن، من غير الدكتور نافذ؟
- لا، لم يأتِ.

كان خليل شاحباً وكانت عيناه محاطتين بلون داكن، ارتعش صوته عندما كان يتحدث. وفقا للبرنامج فإن كلاً من خليل أبو الفول وإيريك وأنا سنلقي كلمة عن غزة في الذكرى الأربعين لجمعيات الهلال الأحمر.

- يسعدني الاستماع إليك، قلت مشجعا.
- مادس، إن الوضع صعب. الأطفال خائفون ومتعبون والشيء نفسه مع زوجتي سوزان. كانت صدمة بالنسبة لنا عندما قصفوا مستشفى القدس الذي بدأ يحترق. تعرف أننا اضطررنا لإجلاء كلّ المرضى.
- نعم أعرف ذلك. شيء رهيب! ولكن هل كان هناك أيضا محمد، وجودة وجميلة؟
- كنّا نحن الثلاثة برفقتنا الأطفال. كان علينا الذهاب إلى العمل، الجميع تم إجلاؤهم إلى قسم العمليات. مكثنا هناك لمدة ثمانية وأربعين ساعة. أعتقد أن الأمر كان سيئا بالنسبة لجميلة.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- هل الكلب الأسود تحت سريرها الآن؟
- ليس الآن، لكن أخشى أنا وسوزان أن يعود. جميلة تقول إن عمو مادس سيقتله. لا أعرف كم يمكننا أن نتحمل. نحتاج إلى استراحة، استراحة من الحصار والقنابل وعدم الأمان. ليس عندنا فقط 5400 من الجرحى ولكن عندنا مليون جريح ونصف. غزّة كلّها تعاني.

نظر إلي، كان وجهه خالياً من التقاسيم، امتلأت عيناه بالدموع. جميلة على وشك أن تتمّ ست سنوات، جودة سبع سنوات ومحمد عامان ونصف. ثلاثة أطفال فلسطينيين لا تستحقّ مرحلة طفولتهم أن تكون تحت الذل والاحتلال والحصار والقصف.

قال خليل: لا أدري إن كنا سنتحمّل أكثر.

مرة أخرى لم أعرف ماذا سأقول. سيعود إلى قطاع غزة. إجازة من سجن غزة لمدة ثلاثة أيام، وبعد ذلك عودة خلف جدران الحارس الإسرائيلي بعقوبة غير محدودة. جولات من القصف الجديد وربما القدر الكافي من الطعام، ربما. المياه عذبة ربما. سوف نرى. المزاريب بالكاد. زجاج النوافذ بالتأكيد لا. ملاعب إنس ذلك! أقنعة الأوكسجين للأطفال ربما. العمل بالتأكيد لا. الكهرباء ربما هناك القليل، إعادة بناء بالتأكيد لا. الاحترام أبدا!

محكوم على الفلسطينيين في غزة أن يعيشوا تحت حكم سخيف. لم يقوموا بفعل شيء خاطئ، لم يحصلوا أبدا ولن يحصلوا نهائيا على فرصة الدفاع عن أنفسهم في أي محكمة. يجلسون وهم محكومون بحكم ليس ثابتاً في أي شرع، محلّي أو دولي. وليس عندهم حتى إمكانية الاستئناف، ولا العفو. إنهم مسجونون جميعا مع أطفالهم وأحفادهم وأجدادهم.

من حين إلى آخر يوجد في السجن ما يقرب من 40000 امرأة حاملٍ. النساء اللواتي لم ينجبن بعد، لا يعرفن أبدا إن كنّ سيطلق سراحهن. حرّاس السجن متقلبون ومتهكمون. يعاقبون جميع السجناء بمكر وشر على عمل ليسوا مسؤولين عنه،أو يستطيعون إيقافه. لا يمكنك فهم الخوف من الخارج. لو أن أحدا فعلا استطاع أن يفهم هؤلاء الخائفين، لأوقف هذا منذ زمن طويل ولأطلق سراح السجناء وعاقب السجانين.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

تحدث خليل بهدوء وبطريقة منتظمة عن الدمار، وعن الصعوبات في جلب سيارات إسعاف جديدة، عندما قصف الإسرائيليون ودمروا السيارات، عن صعوبات في إيجاد حلول جديدة لمركز الإنذار عندما يبدأ القصف. أو عندما يصاب أفراد الإسعاف ويقتلون خلال الأعمال الخطيرة لينقذوا المصابين والقتلى بعد القصف ويحملونهم إلى المستشفى.

كنت أتأمله حين كان يتكلم، كان حديثه قيما، منضبطا، ومحترفا. ركز على مهامّه القيادية في التمكن والسيطرة. العاملون في مجال الصحة الفلسطينية ليس من عاداتهم أن يكونوا في موقف الضعفاء أو موقف الضحية. إنهم مصمّمون على القيام بالمهام نفسها وعدم انتظار الآخرين ليحلوا مشاكلهم. خلال العقدين أعجبت بإرادتهم واستعدادهم لحماية ومعالجة مرضاهم، وحماية المجتمعات المحلية ومستقبل الفلسطينيين.

استمع المجتمعون لمحاضرة خليل كما استمعوا لمحاضرة إيريك ومحاضرتي. الكثير من الممثلين الفلسطينيين بكوا عندما شاهدوا صوراً من قطاع غزة، واستمعوا إلى قصص عن أقدار الأفراد من الناس. لكن لماذا كان الاهتمام الفلسطيني ضعيفا على المستوى الرسمي العالمي وكان قويا على المستوى الشعبي؟ هل سيفعل المندوبون الدوليون شيئا إزاء ما شاهدوه من شهادات ووثائق؟ أحسست بحزن عميق إزاء ما يحدث. قيمنا السائدة مهددة من قبل القوى الغربية الكبرى ومن الدول التي تعطي الحق لنفسها في إنشاء بعض الاستثناءات من الأعراف المتعارف عليها والسائدة عندنا. مجتمعاتنا هي التي ناضلت بشدة على مدى القرون القليلة الماضية.

تطور مجتمعنا ببطء، بعيدا عن أساليب ووحشية العقاب في العصور الوسطى، ورفع من كرامة الإنسان، بعيدا عن استخدام الحكام للتعذيب وعقوبة الإعدام، والإذلال، وانعدام العدل، تجاه مجتمع توجد فيه المساواة بين الناس وحقوق الإنسان التي ينبغي أن تطبق على الجميع. نحن نعيش بعد 220 سنة من الثورة الفرنسية، ولكن التجارب في غزة وغيرها من الأحداث في السنوات العشرة الماضية، أعطتني شعورا بأننا نرجع بالتاريخ إلى الوراء.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

نحن أطباء، ولكن لا نريد أن نكون فقط أطباء. هناك فائدة قليلة، بأن نعمل فقط في مجال الطبّ في المناطق المحتلّة وفي مخيمات الفلسطينيين في لبنان وسوريا والأردن. يجب علينا أيضا أن نكيف أنفسنا مع الحقائق السياسية والاجتماعية. هنالك اليوم حوالي 5،4 مليون لاجئ فلسطيني، أحفاد الذين أبعدوا في عام 1948، ربع هؤلاء ما زالوا يعيشون في مخيمات اللاجئين. منظمة الصحة العالمية تركّز تركيزا كبيرا على العوامل الاجتماعية التي تعدّ مقرّرة للحالة الصحية. ركزت بشكل خاص على الآثار السلبية المترتبة على الدخل المنخفض، والمساكن غير الملائمة، والعمل غير المضمون، والنقص في الخدمات الصحية. ستون عاما من حروب متتالية، وأربعون سنة من الاحتلال الإسرائيلي، كان لها عواقب سلبية على الوضع الصحي والمعيشي لملايين من الفلسطينيين.

من سبتمبر 2000 إلى يونيو 2008 قتلت القوات الإسرائيلية حوالي 5000 فلسطيني معظمهم من المدنيين، ومن بينهم أكثر من 900 طفل. أكثر من ألف من المدنيين والعسكريين الإسرائيليين قتلوا بأيدي فلسطينيين خلال الفترة نفسها.

فقط من خلال التوصل إلى فهم أعمق للظروف السياسية والهيكلية التي خلقها الاحتلال الإسرائيلي، إنه من الممكن البدء بحملة تستهدف الجهود من أجل التغيير والتقدم الطبي. ربما فات الأوان، ربما هي كارثة بالفعل لا رجعة فيها لأجيال. لا أعتقد ذلك. بالطبع من الممكن العثور على حلول سياسية، ولكن بعد ذلك يجب على إسرائيل أن تغير من مواقفها المتصلبة، والولايات المتحدة يجب أن تتبنى نهجا مختلفا ودورا أكثر استقلالية بالنسبة لإسرائيل. استمرار الاحتلال والحصار والهجمات العسكرية لن تحسّن شيئا.

لا ينتج سوى المزيد من الكراهية والمرارة، من جانب الشعب الفلسطيني والعربي. ينبغي أن يتقدم الحوار، ويجب أن تظهر الحقيقة. الجهود شاقة لبناء الثقة، و يتطلب من الحكومة العثور على المسؤولين عن جميع عمليات القتل والإصابات، ومحاكمتهم ومعاقبتهم بموجب القانون.

لكي تخلق السلام يجب أن تبدأ بالتحدث مع أعدائك، هكذا قال نيلسون مانديلا. طالما أن حماس مستبعدة عن جميع أنواع الحوار، فإن الوضع لم يتغير. مادام ليس هناك محاولات لخلق لجنة لتقصي الحقائق أوالمصالحة، حيث يمكن

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

لكلا الجانبين أن يعرض قضاياه، ستبقى المصالحة والتفاهم ضربا من الوهم. دولة إسرائيل هي تصميم أوروبي أمريكي.

الناس في غزة والضفة الغربية هم ضحايا هذا التصميم. بدلا من دعم الحصار القاسي عديم الرحمة، ومواصلة فرض العزلة، يجب على الغرب أن يركّز على حلّ سياسي وعادل للصراع. الفلسطينيون بحاجة إلى دعم في مقاومتهم للاحتلال. العزلة، والإدانة، والاستعلاء على الفلسطينيين يخدم المحتل فقط، وسوف يؤدي على المدى البعيد إلى المزيد من المآسي.

عندما رجعت إلى بيتي في ترومسو وجدت الكثير من الرسائل وعلبا تحتوي كتبا جميلة، وأسطوانات موسيقية، وبعض التحيات التي ارسلت إلى بيتي، في الفترة التي كنت فيها في غزة. في آخر ظرف كان يوجد زوج من القفازات محبوكة باليد وجميلة الشكل. القفازات محبوكة بشكل جيد وبألوان العلم الفلسطيني، الأحمر والأبيض والأخضر والأسود، وكلّ فرد منها بشكل مختلف. كانت الحياكة بسيطة والرسم عليها كان أصليا. الرسالة المرفقة مع القفازات، مكتوب عليها: "لا استطيع أن أذهب إلى غزة وأفعل ما فعلتموه أنتم، ولكن أستطيع الحياكة. القفازات سوف تبقي يديك دافئة"

" لا أعرف المرسل، لكن الرسالة كتبت من طرف صديق. أولا وأخيرا ليس صديقي، ولكن صديقا للشعب الفلسطيني. غصة في حلقي من الصعب ابتلاعها. تأثرت جدا من تلك الطيبة. قوبلنا بموجة دافئة من الاهتمام والدعم عندما وصلنا إلى ديارنا. الدعوات للتحدث عن غزة كانت عديدة، وكان من المستحيل أن نوافق عليها كلها.

قرأت بعض الصحف القديمة التي صدرت في الأسبوع ما بين عيد الميلاد ورأس السنة، والأسابيع الأولى من شهر يناير، ومرة أخرى غمرت بالفرح عندما قرأت تلك المقالات حول الترتيبات التضامنية التي تم تنفيذها. من كنيسة البحارة في لاس بالماس إلى سفالبارد، كانت مظاهرات وندوات سياسية ونداءات ومعارض واسعة النطاق، شيء نادر! جموع كبيرة من الناس محتشدة تحمل إحساسا مشتركا: "القصف يجب أن يتوقف. حدود غزة يجب أن تفتح. يجب على الفلسطينيين أن يُدعموا!" بالجبهة الداخلية كانت دائما ذات أهمية. العمل التضامني النرويجي له تاريخ طويل ومحدود.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

كان الطريق على نحو ما متعرجا وشديد الانحدار، لأن النرويج كانت معقلاً لدعم إسـرائيل من طرف واحـد. ببطء، ومن خـلال عـمل مـضن وآلاف من الاجتماعات الصغيرة والكبيرة، والرحلات، ومشاريع ومناقشات، تحوّل الرأي العام، والواقع الفلسطيني أصبح أكثر وضوحا وإلحاحا. الكثير من التعاطف والتضامن من شعب صغير شجاع وعشرات الآلاف نهضوا و قالوا بصوت واحد: كفى! كفى!

الكل يمكنه القيام بشيء، الكل يمكنه أن يتحدث بصوته، أن يكتب رسالة، أن ينظم شعرا، أو يؤلف أغنية، يقرأ ويجمع المعلومات، يسافر إلى فلسطين المحتلة، يؤسس صداقات ويتعلم الثقافة الفلسطينية، يدعم مشروعا ما، يؤسس صداقات تعاون بين البلديات، والمستشفيات أو المدارس أو ينضمّ إلى المنتدى الفلسطيني. لا يوجد حدود لما يمكن للفرد أن يفعله، وكم يمكن أن نفعل عندما نكون سويا. الخيوط يمكن أن تكون رفيعة، لكن عندما نصنع منها شبكة تصبح قوية.

حازم الشوا المسؤول في بلدية غزة عن ورشة الاطراف الصناعية. النقود ليست مهمة انما العمل التضامني، الانوار التي تأتينا من النرويج تجعلنا لا نفقد الامل.

يقول حازم الشوّا المسؤول عن ورشة الأطراف الصناعية في البلدية: "الأهم ليس هو المال، وإنما التضامن، في كل مرة نأتي بأموال من شمال النرويج.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

الأموال المحصلة جعلت الفلسطينيين قادرين على الاستمرار في إنتاج الأطراف الصناعية، وغيرها من المواد التجبيرية المساعدة محلياً،على الرغم من الحصار الاقتصادي وظروف العمل الصعبة. ويتابع قائلا: " أنتم عالمنا الآن، كلّ شيء مظلم من حولنا، لكننا نرى النور من النرويج، مثل النجوم. عندها نعلم بأننا لسنا لوحدنا، وأننا لن نفقد الأمل.

يقول طبيب العيون، ماجد أبو رمضان، صديقي لسنوات طويلة: إن أخطر شيء على الشعب الفلسطيني هو فقدان الأمل. كان عمدة لمدينة غزة، وشريكا مهماً لرئيس بلدية توأمة غزّة ترومسو. كان يردّد في كل مرّة ألتقيته إذا فقدنا الأمل، فقدنا كلّ شيء. أنتم تجعلون الأمل يعيش فينا .

بدأت جمع الأموال لورشة الأطراف الصناعية امرأة نشيطة تسكن على الشاطئ. عندما سمعت إنغريد أيفريشن، التي تسكن في بلدية برغ بمنطقة سنيا، في يوليو 2006 عن الهجمات الإسرائيلية وحجم الدّمار الذي حلّ بغزة أثناء عملية "مطر الصيف"، قرّرت أن تفعل شيئا. في مقابلتي على الهاتف مع تلفزيون ترومسو أناركو، وصفت وأنا منفعل الأوضاع السيئة والصعبة في مستشفى الشفاء. وتحدثت عن العديد من عمليات البتر البشعة وآثار الحصار الجسيمة على غزّة.

قالت:

"عندما صرخ مادس على الهاتف، كان هذا يعني أن هناك شيئاً جدّياً. ثم اتصلت بأصدقائها، ومن ضمنهم العاملين في مجال الثقافة في شمال النرويج. حشدت في وقت قصير قافلة ثقافية من الفنانين، المعروفين محليا ووطنيا، الذين عزفوا وغنّوا وقدّموا عروضا يعود ريعها إلى ورشة الأطراف الصناعية وأهالي غزة. شعار عملية التبرعات كان مقطعا من ترنيمة كينجو "الحزن والفرح":

"يمكن للضعيف أن يقف على الرجل السليمة

من خلال دعم العمال المهرة في ورشة الأطراف الصناعية في مدينة غزة، كنا ندعم ونقوّي الاكتفاء الذاتي عند الفلسطينيين، وقد أسهم هذا في جعل الأرجل والأيدي المقطوعة، تصنع من قبل الفلسطينيين أنفسهم.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

مايو 2009 رنّ الهاتف:

- مـرحبـا معك راديو نيـيـا في سيلبو. هل يمكن إجـراء مـقـابلة معك بشـأن التبرعات لورشة الأطراف الصناعية في غزة؟

أجبتها:

- بالطبع.

فينكي أرتوم الناشطة في الأعمال التضامنية في تروندهايم، والمسؤولة عن جمعية أصدقاء تروندهايم رام الله، ورئيسة لجنة فلسطين سنوات عدّة، أخبرتني للتّـو عن حـملة التبـرّع في تروندر بيـغـدا . بعـد حـفلتين تضـامنيـتين لغـزة في تروندهايم، قرّرت بنت منطقة سيليبو، أنجر جرانبو، أنّ منطقة سيلبو لن تكون أقل من المناطق الأخرى. ونظمت حفلات تضامنية وجمعت مبلغ 150000 كرون.

جـرت المقـابلة على مـا يرام. مـازلت أفكر بتلك القـفـازات بألوان العلم الفلسطيني التي حصلت عليها بعد عودتي إلى النرويج. هل يمكن أن نبني بيتا للحرف اليدوية الفلسطينية ونبدأ بقفازات سيلبو؟

رسم على احدى الجدران في بيت لحم في فلسطين المحتلة شهر مايو 2009.

مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf

- نعم، خـذ مـعك القـفـازات وتعـالَ إلـى سـيلبـو. يمكننا أن نصنع القـبـعـات والقـفـازات والأوشـحـة لدعم الفلسطينيين، أجـابت أينجـر غـرانبـو على لاقتراح عندما اتصلت بها وشكرتها وشكرت جهود قريتها.

- ضحكت: موضة جديدة للحياكة حياكة - غزة - فلسطين" تقريبا مثل قبعة بابا نويل خلال الحرب؟

أجابت انغر:

- من المؤكد يمكننا فعل ذلك.

في يونيو 2009 اتصلت هاتفيا بسوزان وخليل في غزة. كانت سوزان تتحدث بصوت منخفض ومتوتر، بينما الأطفال يهتفون في الخلف عمو مادس، عمو مادس.

- مازلنا نحتاج إلى الكثير. الأطفال بخير، لكنهم خائفون جدا من أن يبدأ القصف من جديد. هل أنتم بخير في النرويج؟

- نعم، نحن بخير، لكننا نفكر كثيرا في حالكم. نحن قلقون جدا.

- سنتدبر أمرنا. فقط نحتاج إلى العيش بسلام مثل باقي الناس العاديين. هاهو خليل قد جاء.

كان صوته أجشّاً عندما أجاب على تشجيعي الحذر. مرحبا حبيبي.

- الوضع ليس جيدا. الحال متوتر الآن في غزة. ننتظر المزيد.

- المزيد؟

- نعم، مزيد من القصف وهجوم إسرائيلي جديد. لم ينتهوا بعد. يريدون أن يعاقبوننا أكثر. لم أشعر بأي شفقة، ولكن فقط غضب شديد.

- سنعود يا خليل، إذا لزم الأمر، أنا وإيريك على حدّ سواء، أصبحنا كثيرين الآن. لا تستسلم، سيتحسن الأمر لا محالة. سيكون الحال أفضل.

- إن شاء الله يا مادس.

- إن شاء الله خليل.

مكتبة الرمحي أحمد

هذه قصة انسانية عميقة تهزّ الإنسان، تتحدث عن الصدمة، الألم والجحود من ناحية، وعن البطولة والمعاناة والتضامن من ناحية أخرى.

خلال 22 يوماً من الهجوم العسكري والطويل ضدّ السكان المحاصرين في قطاع غزة 2008 - 2009، قتل أكثر من 1400 فلسطيني، من بينهم المئات من الأطفال، كما أصيب أكثر من 5000 شخص بجروح.

كان الطبيبان النرويجيان مادس جلبرت وإيريك فوسا يعملان على مدار الساعة مع زملائهم الفلسطينيين في مستشفى الشفاء. وكانا الشاهدين الوحيدين من الغرب، على الفظائع التي ارتكبت هناك. هنا يرويان تجربتهما في أيام الغزو وشهادتهما عن المرضى الذين عُولجوا وعن العمل الطبي الشاق والمتطلب في مستشفى في حالة حرب وعن عواقب الحرب الرهيبة.

«عندما تندلع الحرب وتحتدم يدفع المدنيون الثمن ويعانون. كان إيريك فوسا ومادس جلبرت في غزة كأطباء في يناير 2009. لكنهما أوصلا إلى العالم ما كانا يشاهدانه هناك. لم يكن ذلك من واجبهما بل مسؤوليتهما. عندما تحاصر القوات العسكرية كل الأصوات وتكتمها، يصبح القليل الذي يخترق هذا الحصار أقوى وأكثر أهمية».

بوهان غادر ستروي، حزب العمل، وزير خارجية النرويج.

لم تسمح إسرائيل للصحافيين من الاقتراب عندما كانت تسبّب لأهل غزة معاناة لا توصف. لكن كان هناك طبيبان نرويجيان. إن قوة ما رويا سلطت فيضاناً من الأضواء على وحشية أضرّت أيضاً بإسرائيل وأعاقت السلام.

كور فيللوك

ISBN 9957-00-456-5

9789957004569

دار الشـروق للنشـر والتوزيـع

عمان-الأردن / رام الله - فلسطين

مكتبة 149